

مضامین

د. عثمان قوری مگانی

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى على نعمه كلها لا نحصيها ، فالجليل لا تُعد نعمه ، فهي تتوالى كل ثانية وكل لحظة بصر، تتابعنا عدد أنفاسنا ، وحركة أبصارنا، ونبضات قلوبنا، وحركاتنا وسكناتنا.

يروى أن سيدنا داود قال: يا رب ، كيف أشكرك ؟ قال الآن شكرتني يا داود. مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : إنما الاعمال بالنيّات، لقد بدأ النبي داود عليه السلام بشكر الله حين فكر بشكره، والسعيد من يعرف كرم الله تعالى فيشكره ويحمده.

وبالشكر تدوم النعم وتستمر قال تعالى: (وإذ تأذن ربكم ، لنن شكرتم لأزيدنكم) فكلما شكر العبد ربه آتاه الله تعالى الفيض من كرمه . يروى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أنه قال: إذا أنعم الله عليك بنعمة فحمدته فقد أدّيت شكر النعمة ، واستوجبت نعمة جديدة، إن المرء بحمده الله تعالى يتقلب بين نعم تترى وخيرات تنهل.

كنت في بعض أشهر رمضان أنشر خواطر في المواقع الالكترونية أحرص أن تكون هادفة تضيف إلى المعاني الراقية للصيام نكهة (أدب وعلم وتربية) لا أدعيها جميعاً لنفسى ، فهي مستقاة من الواقع الذي نحياه أو من تجربة شخصية ، أو من قصص الصحابة والتابعين أو من جواهر الكلام، أو دراسات تربوية لبعض الكتب القديمة كـ: (عيون الأخبار لابن الانباري)، ففيه كنوز من العلم وأخبار التربية الناجحة أو من غيره ، أو من نظراتي التربوية في بعض الآيات الكريمة ، أو من أخبار الصالحين أعلق عليها وأترجمها للواقع، أو بعض قصائدي تحمل قيمة أخلاقية استقيتها من سيرة معلم الناس الخير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

عدت إلى ما كتبته -نقلًا مع التصرّف أو استنباطًا لأدب تربوي نحن بحاجة إليه، أو فكرة تُصلح واقعاً مآلَ قليلاً أو كثيراً ينبغي تقويمه ، أو إيجابية في مجتمعنا المسلم أحببت أن يتعرّفها الناس ، فينمّوها- فوجدته فسيفساء أدب وقطرات حكمة، وأسلوب حياة.

أحببت أن أقدم خلاصة تجربتي في الحياة لإخواني وأصدقائي وأبناء أمتي ، لعل في ذلك طرفة مفيدة، وزاداً في درب، وإضاءة في سبيل.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وزاداً لي في آخرتي ونوراً يملأ قبوري ، وضياءً يوم لا قمر ولا شمس ولا نجوم . فإن أحسنت فبفضل الله تعالى إن أسأت فبضعفي وتقصيري ، والله تعالى من وراء القصد.

أخبار البكّاءين

عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري رحمه الله كنز من كنوز الادب والعلم ، كثيراً ما ألجأ إلى رياضه أتجول بين بستان وحديقة ، وقطيفة وأيكة . فما يزال يُمدّني بالحكم والمواعظ والشعر والأدب والفكرة والخاطرة .

قرأت اليوم من إحدى روضات زهدياته ، فأحببت أن أنقل لكم بعض حكمها وعظاتها :

كان زيد الرقاشي يخاطب نفسه قائلاً : ويحك يا يزيد ؛ من يصوم عنك ؟ من يصلي عنك ؟ ومنذا يترضى لك ربك من بعدك ؟ ثم يقول : يا معشر مَن الموتُ موعده ، والقبر بيته ؛ ألا تبكون ؟ ! .. فيبكي حتى تسقط أشفار عينيه .

وكان سيّار بن جعفر يقول : أخوك مَن وعظك برويته قبل أن يعظك بكلامه .

وتكلم الحسن البصري يوماً حتى أبكى مَن حوله ، فقال : عجيجٌ كعجيج النساء ، ولا عزم ، وخدعة كخدعة إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء وهم يبكون ؟ . (والعجيج : الصياح ورفع الصوت) .

فقد مالك بن دينار مصحفه في مجلسه ، فنظر إليهم كلّهم يبكون ، فقال : كلّكم يبكي ! فمن سرق المصحف ؟ ! ... قرأت ما قاله ، فابتسمت ابتسامة الموافق تعجّبه ، فقد صلينا التراويح في مسجد حيناً أمس الأول فلما أردت الخروج لم أجد حذائي ، وهذه ثالث مرة أو رابعها أفقده . وعدت إلى البيت حافياً .. واشتريت حذاءً يزهد الناس فيه .

قال ابن الحواري : رأيت أبا سليمان الداراني يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ قال : إنما أبكي لذلك الغم الذي ليس فيه فرح ، وذلك الأمد الذي ليس له انقطاع .

قال بعضهم : أتيت الشام ، فمررت بدير حرملّة ، وبه راهب كأن عينيه عدلاً مزاد ؛ فقلت : ما يُبكيك ؟ قال : يا مسلم ؛ أبكي على ما فرطتُ فيه من عمري ، وعلى يوم مضى من أجلي لم يَحْسُنْ به عملي . قال : ثم مررت بعد ذلك ، فسألتُ عنه ، فقالوا : أسلم ، وغزا ، فقُتِلَ في بلاد الروم .

قال ابن الحواري : دخلت على أبي سليمان الداراني وهو يبكي ، فقلت : ما يُبكيك ؟ قال : يا أحمد ؛ إنه إذا جنّ الليل ، وهذأت العيون ، وأنس كل خليل بخليله فرّش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف عليهم الجليل فقال : بعيني مَن تلذذ بكلامي واستراح إليّ ، فما هذا البكاء الذي أراه منكم ؟ هل أخبركم أحد أن حبيباً يعذب أحبّاءه ؟ ! أم كيف أبيّث قوماً وعند البيات أجدهم وقوفاً يتملقونني ! فبي حلفتُ أن أكشف لهم يوم القيامة عن وجهي ينظرون إليّ .

قالت الخنساء : كنت أبكي لصخر من القتل ، فأنا أبكي له اليوم من النار .

قال عمر بن ذرّ لأبيه : يا أبتِ ؛ ما لك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يُبكهم ؟ فقال : يا بنيّ ؛ ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة .

قال الفضيل لأحد تلامذته وقد أخذ بيده : يا ولدي ؛ كذب مَنْ الدّعى محبتي وإذا جنّ ليْلُهُ نام عنيّ ، أليس كل حبيب يحبّ خلوة حبيبه ؟! ها أنذا مطّلع على أحبائي ، إذا جنّ الليل جعلتُ أبصارهم في قلوبهم ، مثّلت نفسي بين أعينهم ، فخاطبوني على المشاهدة ، وكلموني على الحضور .

وفي بعض ما أوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه : هبْ لي مِنْ قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع ، وادْعنيّ ، فإنّي قريب .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : استغزروا العيونَ بالتذكّر .

ومسك الختام قول النبي صلى الله عليه وسلم : " عيناّن لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله " .

أستاذي لا يحمل شهادة عليا

دخلت بيته وأنا غلام سألتهم أين صاحب البيت قالوا في غرفة أمه كان الصبيان وأمهم يأكلون الخبز اليابس مفتتتا في شوربة العدس مع البصل اليابس كان الوقت ظهراً وأنا جائع فجلست معهم آكل و كل طعام لذيذ حين يكون المرء جائعاً شبعتم ثم شربت كأسين ماءً بارداً من (الخابية) ، فارتويت - والخابية : إناء فخاري كبير ذو مسامات دقيقة يرشح منها الماء فيبرد ما فيها، وحمدت الله تعالى على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى .

طرقت الباب ودخلت عليهما فسلمت فردا السلام كان وحده معها يطعمها بيده اللحم المشوي ويحدثها و يمازحها فتردّ عليه بما يثلج صدره فيضحك ثم يعود إلى إلقاء بعض الكلمات فتسبه سباً لطيفاً فيعود إلى تقبيلها من يديها ثم من خديها ورأسها . وتقول لي أسمعت ما يقول عمك يا عثمان فأرد لا دخل لي بين البصلة وقشرتها فتسبني قائلة أنت مثله قليل الأدب فأضحك وأقول قصدت التفاحة وقشرتها يا جدتي فتبتسم وتقول داعية لنا اللهم ارض عنهم وعن أبنائهم فأنا راضية عنهم

لم يكن عمي وقتذاك ميسوراً و طلبت منه جدتي اللحم المشوي إنه يطلب رضاها ويودّ أن يكون بها باراً فالجنة تحت أقدام الأمهات وكان يردد القول المأثور برّوا آباءكم تبرّكم أبناءكم " . فكر قليلاً ثم قال لزوجته - وهي امرأة لبّية عاقلة - يا ابنة عمي لن أستطيع شراء ثلاث كيلات من اللحم لتأكل الأسرة كلها معاً و لن أشوي نصف كيل من اللحم وأضعه أمام أمي ، والأولاد ينظرون ، إنهم لا يقدّرون الظروف فهم صغار لا يعقلون . وسيتألمون إن رأوا جدتهم تأكل اللحم وحدها وهم يأكلون شوربة العدس المطحون . وقد يمدون أيديهم إلى اللحم ويسبقون جدتهم في أكله . أشغلهم بالأكل وسأدخل إلى أمي فأطعمها ثم أعود إليكم .

حفر عمله هذا في قلبي حباً للوالدين ، فكان لي أستاذاً ومعلماً ، ولن أنسى هذا الدرس ما حييت ، ولأحدث به كي يترأساه كل ذي قلب حي وعقل عقول .

مرت الأيام ، وشب الصبيان فصاروا آباء . وكانوا بارين بو اليدية ، يتأدبون بحضرة والدهم ويتلطفون مع أمهم .

علّموا أولادهم أن الجد والجدة مقدّسان ، وأن نيل البركة كل يوم بتقبيل يديهما وطلب الدعاء منهما والتأدب بحضرتهم . وإدخال السرور إلى قلوبهم .

عمي الحبيب له بقالة يعمل فيها ويساعده أبنائه .. كبرت هذه البقالة ، وفتح الله باب الرزق الطيب الوافر عليهم ،

يجلس الآن بينهم فيسارعون إلى مرضاته ، ويقولون له : إذا دخلت المحل كثر الزبائن يا أبانا ، فما السبب؟!!

فيقول : أدبكم يا أولادي مع والدتكم ، وحسن أخلاقكم ، وطلب الرزق الحلال ، وابتسامتكم في وجوه الناس يجلب رضاء الله . ويزيد في الرزق .

يلتفت إليّ قائلاً : أنا رجل عامي ولدي ، لا أعرف العربية مثلك ، ولا أتقن القراءة ، فأسمعني شيئاً من القرآن وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهما الماء للعطشان والزاد للغرثان .

وعلمت أنه - أطال الله في عمره وحسن عمله - يجلس بين أترابه ، فيحدثهم بما سمعه وما فقهه من علم وأدب وتفسير وسيرة ، فهو يتعلم ويعلم . ونعم المعلم المتعلم .

السلف الصالح... أين نحن منهم

قرأت بعض أخبار السلف الصالح ، فلم أستطع المقارنة بيننا وبينهم ، فأين الثرى من الثريّا ، وأين وهاد الأرض من القمم السامقة؟! وأين الوشل من النهر الواسع العذب . فشتان ما بين الرياض الزاهرة والأرض المعشبة ، وما بين ضوء القمر وذباله السراج .
قلت :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح
ألم يقل الشافعي وهو من القمم الذاهبة في سماء أمتنا ومن الشموس المضيئة في عالمنا
الإسلامي والنجوم الزاهرة في حياة المسلمين :
أحب الصالحين ولست منهم لعلني أنال بهم شفاعاة ؟؟

فإن قال هذا وهو من هو من السادة العلماء والرجال النجباء ، فأولى بنا أن نعرف شيئاً عنهم
لعلنا نتخذ منهم القدوة الحسنة ، ونحبهم ونعمل بعض عملهم ، فينطبق علينا قول النبي صلى
الله عليه وسلم : " يحشر المرء مع من أحب "

ولم أنقل لك سوى عباداتهم أما جهادهم فله - إن شاء الله تعالى - خاطرة أخرى .

قال الوليد بن مسلم : رأيت الأوزاعي يثبت في مصلاه ، يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ويخبرنا
عن السلف : أن ذلك كان هديهم ، فإذا طلعت الشمس ، قام بعضهم إلى بعض ، فأفاضوا في ذكر
الله ، و التفقه في دينه .

روى حماد بن زيد عن أيوب قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة
، فإن قضى الله موتا ، دفنت في موضع القبر الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
والله لأن يعذبني الله بغير النار أحب إلي من أن يعلم من قلبي أنني أراني لذلك أهلا .

من التوازن عن السلف رحمهم الله أنهم يضاحك بعضهم بعضاً ، فإذا جاء الليل كانوا رهبانا .

وقال ابن المبارك : قيل لو هيب : أيجد طعم العبادة من يعصي ؟ قال : ولا من يهم بالمعصية .

وقال الحارث بن قيس العابد الفقيه التابعي : إذا كنت في الصلاة ، فقال لك الشيطان : إنك
ترائي ، فزدها طولا .

عن نافع: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قرأ: { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر
الله } بكى حتى يغلبه البكاء . وكان لابن عمر مهراس فيه ماء ، فيصلي فيه ما قدر له ، ثم
يصير إلى الفراش يغفي إغفاءة الطائر ، ثم يقوم ، فيتوضأ ويصلي ، يفعل ذلك في الليل أربع
مرات أو خمسا .

أما عامر بن قيس الزاهد فقد كان من عباد التابعين ، يشغل نفسه بإقراء الناس ، كان يقول : من أقرئ ؟ فيأتيه ناس ، فيقرئهم القرآن ثم يقوم فيصلّي إلى الظهر ، ثم يصلّي إلى العصر ، ثم يقرئ الناس إلى المغرب ، ثم يصلّي ما بين العشاءين ، ثم ينصرف إلى منزله ، فيأكل رغيفا ، وينام نومة خفيفة ، ثم يقوم لصلاته ، ثم يتسحر رغيفا ويخرج ، ولما احتضر بكى ، فقيل ما يبكيك ؟ قال : ما أبكي جزعا من الموت ، ولا حرصا على الدنيا ، ولكن أبكي ظمأ الهواجر وقيام الليل .

أما العابد التابعي هرم بن حيان العبدي ، فقد قاد بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ، قال ابن سعد : كان عاملا لعمر ، وكان ثقة ، له فضل وعبادة . وكان يخرج في بعض الليل وينادي بأعلى صوته : عجبت من الجنة كيف نام طالبها ؟ وعجبت من النار كيف نام هاربها ؟ ثم يقول : { أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا } وكان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله ، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه ودهم .

أما الإمام أبو عمرو الأسود بن يزيد النخعي فكان من رؤوس العلم والعمل . ويضرب بعبادته المثل . سئل الشعبي عنه فقال : كان صواماً قواماً حجاجاً . وكان يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين ، وكان ينام بين المغرب والعشاء ، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليال .

قال عنه علقمة بن مرثد : كان الأسود يجتهد في العبادة ، ويصوم حتى يخضر ويصفر ، فلما احتضر بكى ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ فقال : مالي لا أجزع ، والله لو أتيت بالمغفرة من الله لأهمني الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين آخر الذنب الصغير فيعفو عنه ، فلا يزال مستحييا منه .

أما مِرَّة الطيب الهمداني الكوفي ، ويقال له : مرة الخير لعبادته وخيره وعلمه ، فتابعي روى عن أبي بكر وعمر وابن مسعود رضي الله عنهم . يصفه يحيى بن معين فيقول : بلغنا عنه أنه سجد لله حتى أكل التراب جبهته . وقال عطاء بن السائب : رأيت مصلى مِرَّة الهمداني مثل مبرك البعير . كان همه العبادة وقراءة القرآن والبحث عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما أبو بحر الأحنف بن قيس التميمي ، أحد السادة الأمراء والحلماء ، ومن يُضرب بحلمه المثل ، فإنه كان يكثر الصيام ، فقيل له : إنك كبير ، والصوم يضعفك . قال إنني أعده لسفر طويل . وعُرف عنه محاسبة النفس ، فقد كان يقول : ما حملك يا أحنف على أن صنعت كذا يوم كذا ؟ . وذُهِبت عينه فقال : ذُهِبت من أربعين سنة ما شكوتها إلى أحد .

أما شبّيه الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاته فعمر بن الأسود العنسي الحمصي ، أدرك الجاهلية والإسلام ، كان من سادة التابعين ديناً وورعاً . حج ابن الأسود ، فلما انتهى إلى المدينة ، نظر إليه ابن عمر وهو يصلّي فسأل عنه ، فقيل : شامي يقال له : عمرو بن الأسود ، فقال : ما رأيت أحداً أشبه صلاة ولا هدياً ولا خشوعاً ولا لبسة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الرجل . ثم بعث إليه ابن عمر بقرئ وعلف ونفقة ، فقبل ذلك ورد النفقة . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليُنظر إلى هدي عمرو بن الأسود .

الشفاعة

شفع له في أمر : أعانه عليه ، وساعده في الحصول عليها ، وذلك لها له .
وقد أثنى الله تعالى على الشفيع الخير حين قال " من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها " .

أما في الآخرة فلا يشفع أحد لأحد إلا بإذن الله تعالى " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " .
والشفاعة : إذا طلب الخير للغير والوساطة لهم عند من يرجونهم . وهذا ما علمناه النبي الكريم إبراهيم حين قال لأبيه : " سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيأ " .
إن المدعو حين يرى من الداعية اهتماماً واعتناءً يلين قلبه ثم يتقبل منه ما يقول ، ثم يؤمن بما يقول ، ثم يعتنق ذلك ويكون منافحاً عن هذه الدعوة " ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " ..

كان الصحابة متحلقين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل رجل من بعيد إلى مجلسه صلى الله عليه وسلم ، فالتفت إليهم صلى الله عليه وسلم ، وقال : " هذا الرجل قادم يريد مني مسألة ، وإنني معطيه إياها إن شاء الله ، ولكن إذا سألتنيها فاشفعوا له ، والله يؤجركم على شفاعتكم ، وليقض الله على لسان نبيه ما يشاء " .

جاء الرجل وجلس ولم ينبس ببنت شفة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألك حاجة يا رجل؟ " قال : نعم يا رسول الله ، صلى الله عليك وسلم . وذكر حاجته . فكان أصحاب رسول الله يقولون :

- هو أهل لفضلك يا رسول الله .

- ما علمنا عنه إلا خيراً يا رسول الله .

أحسن إليه يا رسول الله . فما عهدناك إلا محسناً .

كان الرجل ينظر إليهم مسروراً من شفاعتهم ، وقد أحبهم وشعر أنه منهم وأنهم منه يا لهذا المجتمع المتحاب المتكافل ...

وابتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد اكتسب إلى المسلمين واحداً آخر ، وعلم أصحابه أن يناصر بعضهم بعضاً وقضى للرجل حاجته .

جميل جداً أن يهتم المسلم بأمر أخيه فيعينه على قضاء حوائجه ، ويسعى بخدمته ، فإذا بالحب والود والشعور بالأخوة يتعمق ، ويصير المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

وحب الصالحين يجعلنا معهم يوم الحشر . ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم " يُحْشَرُ المرء مع من أحب " فحبهم شفع لنا أن نكون معهم ، ورحم الله الشافعي إذ يقول :

أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة

وأكره من تجارته المعاصي ولو كنا سواء في البضاعة

وفي رمضان الخير يعود المرء نفسه أن يكون سفير إخوانه إلى المحبة والود وحسن الأخلاق ، وسفير الود وحسن الأخلاق إلى إخوانه سواء بسواء . فيسعى في خدمة إخوانه وقضاء حوائجهم ، فيسعدوا به ويسعد بهم ، وتتمكن الصداقة والأخوة في قلوبهم وأفعالهم . ويبدأون السير إلى الله في الطريق الصحيح أليس هذا صحيحاً يا أحبائي؟؟

الله أكبر

أديت صلاة العشاء أمس في المسجد القريب من بيتنا ، وسلمت على بعض الأحباب وهناك بعضنا بعضاً بـرمضان ، وهممت بالخروج من المسجد .

سلم أحد المصلين عليّ وقال لي بعد ن أخذ بيدي إلى إحدى الزوايا وكأنه يريد أن يخلو بي :
ألم تلاحظ يا أخي أن الأذان يبدأ بالنداء " الله أكبر " وينتهي به كذلك؟
قلت : بلى .

قال وكذلك يفعل من يقيم الصلاة ، فيرفع صوته بـ " الله أكبر " .

قلت : نعم يا أخي .

قال : وتبدأ تكبيرة الإحرام بقوله : " الله أكبر " وقبل الركوع والسجود وبعدهما نردد هذه العبارة حتى صارت جزءاً منا نعيش بها ، ونتنسمها ، ونأنس إليها ، ونردها إرادياً وغير منتبهين . إنها في دمننا وأرواحنا .. فلماذا اعتدنا قول: " الله أكبر " في كل لحظة من لحظات حياتنا ؟

يرردها الإمام في صلوات العيد وفي خطبها ، ويترنم بها المسلمون في تكبيرات العيد .. ويندفعون بها في ميادين الجهاد ، ويستعينون بها في كل أمر يسير أو عسير .

نقولها إذا تعجبنا مما نرى أو نسمع ، ونقولها إذا ألمّت بنا النوازل ، وإذا فرحنا ، إذا ابتسمنا وسعدنا أو تألمنا وبكينا .. نشعر أنها الوقود الذي يحركنا وبه نحيا ، ونحس أنها العون يهبنا القوة والنشاط والإرادة والتصميم

كنت أسمع ما يقول ، وأسبح في الذكريات إلى أن وصلتـ في ذكرياتي - إلى صلاة عيد الفطر السعيد حين كنت في مدينة " بولونيا " الإيطالية منذ أربع سنوات .. كان الناس مجتمعين في خيمة تتسع لأكثر من عشرة آلاف يهللون ويكبرون . وخارجها مثل عددهم أو يزيد .

دخلت عليهم ، فقادني أحد المنظمين لهذا الجمع الحاشد إلى مقدمة الخيمة ، والمسلمون من جنسيات مختلفة تتعدى العشرين جنسية أو أكثر يقولون " الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولا شيء بعده ... " ثم يهدرون بصوت واحد " الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون " قلت نعم ، ولو كره الكافرون . وانطلقت معهم أترنم بهذا الحُداء الخالد والهتاف الأبدي العظيم .

وقبل الصلاة تقدم أحدهم يعلن إسلامه ، فقال مردداً ورأني بلغة عربية ثم إيطالية :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله . أحيا على هذا وأموت في سبيله . اللهم أحيني مسلماً وأمتني مسلماً ، واجعلني في عبادك الصالحين .
ضجت القاعة بالتكبير والتهليل ، وهنأ المسلمون أخاهم الجديد بالهداية ، ودعوا له بالثبات على هذا الدين العظيم .

وبعد الصلاة والخطبة تقدمت صحفية إيطالية تسألني : لقد استرعى انتباهي كثرة تردد " الله أكبر " فيما قلت وما كانوا يقولون ، فما المقصود منها ، بل ما معناها ؟ أرجو أن تفصل في ذلك .

ولما كنت أجهل اللغة الإيطالية تقدم بعض المصلين يريدون أن يترجموا بيننا الحديث ، ونظرت حولي لأرى أخاً إيطالياً أسلم منذ ست سنوات ، وعاش في مصر وتزوج مسلمة مصرية ، وهو الآن - أقصد في عام ٢٠٠٤ للميلاد الموافق ١٤٢٥ للهجرة - لولب في خدمة المسجد في بولونيا وخدمة إخوانه ، فاخترته ليكون المترجم لما أقول . اخترته لأن الإسلام في قلبه حار وقوي ، وله نبض جديد متدفق بين الضلوع والحنايا .

قلت لها : الله أكبر من الدنيا وشهواتها ، وملذاتها وأهوائها .

المبارك وابن عياض

موقع في النت من أكثر المواقع نفعا ، لا أشبع منه ولا أرى غيره - من قبله - خيراً منه - بزعمي - فما من يوم إلا وأستعين بهذا الموقع في تفسير آية كريمة أو معنى جليل ، أو التعرف إلى قصة وموقف تربوي أو فكري وأدبي أو تاريخي . " quran . muslim " فيه تفسير ابن كثير والجلالين والطبري والقرطبي رحمهم الله إلى جانب كل آية من آيات القرآن الكريم . فتعرج على معنى الآيات في جمع هذه التفسيرات الجليّة بسهولة ويسر ، وتدرس ما فيها وتقرن مقارنة قاطف الورد وناسم الروح لا مقارنة التفضيل والتقديم ، فما يحق لي أن أكون إلا تلميذاً صغيراً من تلاميذ تلامذتهم وأقل من ذلك بكثير . نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله تحت لواء سيد البشر وخاتم النبيين .

كنت أقرأ تفسير قوله تعالى آخر سورة آل عمران " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) " فمررت في تفسير ابن كثير بقصة العالمين الجليلين " عبد الله بن المبارك " و " الفضيل بن عياض " رحمهما الله تعالى . وكلاهما عالم جليل وإمام في الدين . فقد كان ابن المبارك في أحد الثغور الإسلامية ، يجاهد في سبيل الله تعالى ، وكان الفضيل بن عياض في الحرم المكي معتكفاً لا يكاد يخرج منه إلا لزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام في المدينة المشرفة ، ففي قصتهما عبرة وعظة ، وأدب وأخلاق .

رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي سَكِينَةَ قَالَ : أَمَلَى عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ بِطَرَسُوسَ (عَلَى حَدُودِ الرُّومِ) وَوَدَّعْتَهُ لِلْخُرُوجِ وَأَنْشَدَهَا مَعِيَ إِلَى الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَّاضَ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِئَةٍ وَفِي رِوَايَةٍ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِئَةٍ .

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا	لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ	فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يَتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلِ	فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
رِيحَ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَابِرُنَا	رَهْجَ السَّنَابِكِ وَالْغَبَارِ الْأَطْيَبِ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا	قَوْلَ صَدِيقٍ صَادِقٍ لَا يَكْذِبُ
لَا تَسْتَوِي أَغْبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي	أَنْفِ إِمْرِي وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا	لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

قَالَ فَلَقِيتَ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَّاضٍ بِكِتَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَلَمَّا قَرَأَهُ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ :
صَدَقَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَنِي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْتَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الْحَدِيثَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ قَالَ :
فَاكْتُبْ هَذَا الْحَدِيثَ كِرَاءَ (أَجْرَةً) حَمَلَكَ كِتَابُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَيْنَا . وَأَمْلَى عَلَيَّ الْفُضَيْلُ
بْنُ عِيَّاضٍ :

حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ
عَلِّمْنِي عَمَلًا أَنْالَ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ " هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَلِّيَ فَلَا تَفْتُرَ
وَتَصُومَ فَلَا تَفْطُرَ ؟ " فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أضعفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ طَوَّفْتُ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَرَسَ الْمُجَاهِدَ لَيَسْتَنَّ فِي طَوْلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ الْحَسَنَاتُ " .

فأقر الفضيل رحمه الله تعالى بفضل المجاهد على العابد .. والأحاديث الواردة بهذا الخصوص
كثيرة وصحيحة . وما أعظم أن يكون المسلم صواماً قواماً ومجاهداً مقاتلاً في سبيل الله فينال
الأجرين معاً ، وهؤلاء قليل ندره الأحجار الكريمة في أرض مليئة بالصخور والأحجار . فطوبى
للمشمرين .

أين تحب أن تكون

قرأ الإمام اليوم في صلاة فجر الثاني والعشرين من رمضان عام ١٤٢٩ للهجرة قوله تعالى في سورة الشورى الآية الخامسة والأربعين " ... وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ " : فقلت إنه والله لأمر جلل أن يبيع الإنسان نفسه للهوى والشيطان رخيصة ، فيخلد في النار ، ويخسر كل شيء ، وأول ما يخسر نفسه .

قد يخسر الإنسان ماله ، فيعوضه . وقد يخسر عقاراته ، فيسعى للحصول على غيرها ، وقد يخسر خيوله وأنعامه فيجدد ويجتهد لتعويض خسارته . كل شيء يمكن أن يُعَوَّض ، لكنَّ خسارة النفس ، وتضييعها لا يُعَوَّض أبداً . وهنا الألم القاتل والحسرة الدائمة .. ولات حين مندم .

يطلع المؤمنون - وهم في جنة الله ورضوانه ونعيمه ، وعسانا أن نكون من الوارثين لهذا الفردوس المقيم بفضل الله ورحمته - يطلعون على الكفار في عذاب النار وألمه الذي لا يُطاق فماذا يقولون :

إن من يدخل النار إما أن يكون أهله معه فيها ، فلا انتفاع بهم .

وإما أن يكونوا في الجنة ، فقد حيل بينه وبينهم ، ونالهم غيره .

أما من يدخل الجنة فإما أن يكون أهله معه ، فيسعد بهم ويزداد سروره بوجودهم معه .

وإما أن يكون أهله في النار فيبدله الله تعالى في الجنة أهلاً خيراً منهم من

الحور العين .

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ ، مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : " أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ") [الْمُؤْمِنُونَ : ١٠] .

وعلى هذا يُضاعف ملكه في الجنة فوق حقه هبة وإراثاً بفضل الله تعالى ، يرث ما كان للرجل الكافر لو كان مؤمناً . وَفِي مُسْنَدِ الدَّارِمِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ إِلَّا زَوْجُهُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَسَبْعِينَ مِنْ مِيرَاثِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، ..) .

قَالَ هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ : (مِنْ مِيرَاثِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) يَعْنِي رَجَالاً أَدْخَلُوا النَّارَ فَوَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ نِسَاءَهُمْ كَمَا وَرِثَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةً فِرْعَوْنَ .

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه الآية : إن الخَسَارَ الأكبرَ لمن ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ
فَعَدِمُوا لَذَّتَهُمْ فِي دَارِ الْأَبَدِ وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّابِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ
وَأَهَالِيهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ ، فَخَسِرُواهُمْ " أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ " دَائِمٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ لَا
خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا .

ولا يقول المؤمنون هذا القول : إلا حين يعاينون لذة الجنة ونعيمها ، يقولون ذلك ويحمدون الله
تعالى أن هداهم للإيمان وأكرمهم بالإسلام ، ورزقهم الخلود الأبدي في نعيم لا ينقطع وسعادة لا
تزول ، وخير يتجدد .

وإفأك الخير ونجّاك	إن كنت إلى خير تسعى
جين بكل هناء وإفأك	وإلى الفردوس مع النّاء
أحبّابك جذلي إذ ذاك	يا فرحة قلبك حين ترى
م وحوار الجنة أرضاك	والله تعالى بالإكرا
إذ جعل الجنة مأواك	بل تشكر ربك تحمده
بلظاها تشوي الأفّاك	وحماك بمنّته ناراً
فضلاً ونعيماً يغشاك	وأعاذك منها ، وحبّاك
تهليلٌ ، فالزم ذكراك	وغراس الجنة تسبيح
كي يحلّو فيها مثواك	واعمل للجنة في دأب

بين جبريل ويوسف عليهما السلام

- يروى في الإسرائيليات أن يوسف عليه السلام لما لبث في السجن سبع سنين أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام بالبشارة بخروجه فقال له :

أتعرفني أيها الصديق؟

قال له يوسف : أرى صورة طاهرة وروحاً طيبة لا يشبه أرواح الخاطنين .

قال جبريل : أنا الروح الأمين , رسول رب العالمين .

قال يوسف : فما أدخلك مداخل المذنبين وأنت سيد المرسلين وراس المقربين؟.

قال جبريل: أَو لَمْ تَعْلَمْ - أيها الصديق - أن الله يُطَهِّرُ البيوت بطُهر النبيين وأن البقعة التي يحلون بها هي أظهر الأرضين ؟ وقد طَهَّرَ بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين.

قال يوسف : كيف تشبهني بالصالحين وتسميني بأسماء الصديقين ، وتُعْذُّني مع آبائي المخلصين ، وأنا أسيِّر بين هؤلاء المجرمين ؟!

قال جبريل : لَمْ يَكَلِّمْ (يجرح) قَلْبَكَ الجَزَعُ ، وَلَمْ يَغَيِّرْ خُلُقَكَ البَلَاءُ ، وَلَمْ يَتَعَاطَمَكَ السَّجْنُ ، وَلَمْ تَطَأْ فِرَاشَ سَيِّدِكَ ، وَلَمْ يُنْسِكَ بَلَاءُ الدُّنْيَا بَلَاءَ الْآخِرَةِ ، وَلَمْ تُنْسِكْ نَفْسَكَ أَبَاكَ ، وَلَمْ يُنْسِكَ أَبُوكَ رَبَّكَ .

وهذا الزمان الذي يَفُكُّ الله به عُنُوكَ (أسرك) ، ويعتق به رَقَّكَ ، وَيُبَيِّنُ فيه للناس حَكَمَتَكَ ، وَيُصَدِّقُ رُؤْيَاكَ ، وَيُنْصِفُكَ مَنْ ظَلَمَكَ ، وَيَجْمَعُ إِلَيْكَ أَحْبَبَتَكَ ، وَيَهْبِ لَكَ مَلِكُ مِصْرَ ، يُمَلِّكَ مَلُوكَهَا ، وَيُعَبِّدُ لَكَ جَابِرَتَهَا ، وَيُذِلُّ لَكَ أَعَزَّتَهَا ، وَيُصَغِّرُ لَكَ عِظَمَاءَهَا ، وَيُخْدِمُكَ سَوَاقِطُهَا ، وَيُخَوِّلُكَ خَوَلَهَا ، وَيَرْحَمُ بِكَ سَاكِنِيهَا ، وَيُلْقِي لَكَ المودَّةَ والهيبةَ في قلوبهم ، ، ويجعل لك اليد العليا عليهم ، والأثر الصالح فيهم ، ويُري الملكَ حُلماً يَفْزَعُ منه ، ويأخذه كَرْبٌ شديد ، حتى يُسْهَرَهُ وَيُذْهَبَ نَوْمُهُ ، وَيُعْمَى عليه تَفْسِيرُهُ وعلى السحرة والكهنة ، ويعلمك تأويله .

- كلام منمَّق يدل على أن راويه متمكن في اللغة العربية تمكناً رائعاً فجمع هذه الجمل القصيرة المترادفة ، فجلَّى لنا بعض ما أراده الراوي وأحسن السبك والتصوير . لكنَّ خاتمه البيان في بعض الجمل والتعابير في أمور نذكر بعضها :

١- لم يكن للصديق يوسف عليه السلام أن ينكر صديقيته ولو كان في السجن ، فهو يعلم أنه بريء مما رمي به ، وأن المكان يطهر بالطاهرين - فعلاً- ولا يضره أن يكون في السجن ما دام في رعاية الله وحفظه . كما أنه عليه السلام نبيُّ ابنِ نبيِّ ابنِ نبيِّ أبي الأنبياء .

٢- أخطأ الراوي حين جعل من اشتراه سيده ، والقرآن الكريم يتجاوز ذلك حين يقول معرضاً وملمّحاً " وألفيا سيدها لدى الباب " فجعله سيدها لا سيده فلا ينبغي أن يكون الكافر سيّداً لنبي . وكذلك لم يجعل القرآن المرأة سيده حين قال " وراودته التي هو في بيتها عن نفسه " أما قوله تعالى حكاية عن يوسف " معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي " فالرب هنا الله تعالى على أصح الوجوه ، فهو سبحانه الذي رعاه وحفظه وأكرم مثواه .

٣- ولا يليق التعبير " ، يملكك ملوكها ، ويعبد لك جبابرتها ، ويذل لك أعزتها ، ويصغر لك عظماءها ، ويخدمك سوقتها ، ويحولك حولها " بمكانة نبي داعية ينشر الحق والعدل بين الناس أن يتسلط على رقاب العباد فيتعبدهم ويستذلهم ويستخدمهم ، ويجعلهم خولاً ... وقد ذاق مرارة الظلم والقهر ..

والنص - حقيقة - جيد السبك مرصوف العبارة ، قويّ الحبكة .

وكان يوسف عليه السلام رحيماً بالناس ذا أثر صالح فيهم ، له اليد العليا عليهم ، فسبحان الله تعالى الذي ابتلاه فرفع درجته في الأنبياء والصديقين ، فكان نموذجاً رائعاً ، وأسوة صالحة . ورفع ذكره بين خلقه إلى يوم القيامة .

تخترق الحُجُب

- اعتمر علي رضي الله عنه يوماً فرأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول :
يا من لا يشغلُه سَمْعٌ عن سَمْعٍ ، ولا تُغْلِطُه المسائل ، ولا يُبْرِمه إلحاح المُلْحِين ؛
أَذِقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ ، وحلاوة مغفرتك .
فقال علي : والذي نفسي بيده ، لو قُلَّتْهَا وَعَلَيْكَ مَلَأُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِينَ ذُنُوباً لَغُفِرَ لَكَ .

- دعا أعرابيٌّ عند الملتزم فقال : اللهم إِنْ لَكَ عَلَيَّ حَقُوقاً ، فَتَصَدَّقْ بِهَا عَلَيَّ ، وللناس قِبَلِي تَبِعَاتٌ ،
فَتَحْمَلْهَا عَلَيَّ ، وَقَدْ أُوجِبْتُ لِكُلِّ ضَيْفٍ قِرَى ، وَأَنَا ضَيْفُكَ . فَاجْعَلْ قِرَايَ الْجَنَّةِ .

- وقال آخر: اللهم إِيَّاكَ خَرَجْتُ ، وَمَا عِنْدَكَ طَلَبْتُ ، فَلَا تَحْرِمْنِي خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدِي . اللهم
وَإِنْ كُنْتُ لَمْ تَرْحَمْ نَصَبِي وَتَعَبِي فَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمَصَابِ عَلَى مَصِيبَتِهِ.

- وقال آخر : اللهم ؛ إِنَّهُ مَنْ تَهَيَّأَ أَوْ تَعَبَّأَ وَأَعَدَّ وَاسْتَعَدَّ لَوْفَادَةِ مَخْلُوقٍ رَجَاءَ رَفْدِهِ وَطَلَّبَ نَيْلَهُ ، فَإِنْ
تَهَيَّئْتُ وَتَعَبَّيْتُ وَإِعْدَادِي وَاسْتِعْدَادِي لَكَ رَجَاءُ رَفْدِكَ وَطَلَبُ نَيْلِكَ الَّذِي لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا مَثِيلَ . .. اللهم
إِنِّي لَمْ أَتِكَ بِعَمَلٍ صَالِحٍ قَدَّمْتَهُ ، وَلَا شَفَاعَةِ مَخْلُوقٍ رَجَوْتَهُ ، أَتَيْتُكَ مُقِرّاً بِالظُّلْمِ وَالْإِسَاءَةِ عَلَى نَفْسِي
، أَتَيْتُكَ بِأَنِّي لَا حُجَّةَ لِي . أَرْجُو عَظِيمَ عَفْوِكَ الَّذِي عُدْتُ بِهِ عَلَى الْخَطَايَا ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعْكَ عُكُوفُهُمْ عَلَى
عَظِيمِ الْجُرْمِ أَنْ جُدْتَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ . فَيَا مَنْ رَحْمَتُهُ وَاسِعَةٌ ، وَفَضْلُهُ عَظِيمٌ ، اغْفِرِ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ .

- وقال آخر : اللهم لَا تُدْخِلْنَا النَّارَ بَعْدَ أَنْ أَسْكَنْتَ قُلُوبَنَا تَوْحِيدَكَ ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَفْعَلَ ، وَلَنْنُ فَعَلْتَ
لِتَجْمَعَنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِ عَادَيْنَاهُمْ فِيكَ .

- وقال آخر :

وَإِنِّي لِأَدْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرَ ضَيِّقٌ عَلَيَّ فَمَا يَنْفَعُكَ أَنْ يَتَفَرَّجَا

وَرُبَّ فَتًى سُدَّتْ عَلَيْهِ وَجُوهُهُ أَصَابَ لَهُ فِي دَعْوَةِ اللَّهِ مَخْرَجًا

- قال إبراهيم بن أدهم لأصحابه حين عرض لهم سُبُعٌ : قولوا :
اللهم احْرُسْنَا بَعِينِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ ، وَاجْعَلْنَا فِي كَنَفِكَ الَّذِي لَا يُرَامُ ، وَارْحَمْنَا بِقُدْرَتِكَ عَلَيْنَا ، لَا نَهْلِكُ وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا .
- قال خلف : فما زلت أكررها مذ سمعتها ، فما عرض لي قَطٌّ لص ولا غيره .
- قال أعرابي : مَنْ أَقَامَ بَارِضَنَا فَلْيُكْثِرْ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ ، فَإِنَّ مَعَ الْاسْتِغْفَارِ الْقُطَارَ (السحاب العظيم القطر) .
- وكان أعرابي يدعو : اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع ، اللهم اجعل خير عملي ما قارب أجلي .
- ومسك الختام دعوة سيّد ولد عدنان صلى الله عليه وسلم :
" اللهم اجعلني لك شَكَاراً ، لك ذَكَاراً ، لك رهَاباً ، لك مطيعاً ، إليك مُخْبِتاً ، لك أَوَاهاً منيباً ، ربّ تقبل توبتي ، وغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبّت حجّتي ، واهد قلبي ، وسدّد لساني .

جواهر الكلام

قال ابن قتيبة الدينوري رحمه الله :

- ١- سمعت بعض العباد يقول : علامة التوبة الخروج من الجهل ، والندم على الذنب ، والتجافي عن الشهوة ، واعتقاد مقت نفسك المسؤلة ، وإخراج المظلمة ، وإصلاح الكسرة ، وترك الكذب ، وقطع الغيبة ، والانتهاز عن خد السوء .
- ٢- لقي زاهد زاهداً ، فقال له : يا أخي ؛ أحبك في الله . قال الآخر : لو علمت ما في نفسي لأبغضتني في الله . قال له الأول : لو علمت من نفسي ما تعلم من نفسك لكان لي من نفسي شغل عن بغضك .
- ٣- قال بهز بن حكيم : صلى بنا زرارة بن أوفى الغداة فلما قرأ " فإذا نُقِر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير " خر مغشياً عليه فحملناه ميتاً .
- ٤- كان عمر بن عبد العزيز يقول : الصلاة تُبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تُدخلك عليه .
- ٥- أراد قوم السفر ، فحادوا عن الطريق ، وانتَهَوْا إلى راهب منفرد في ناحية ، فنادوه ، فأشرف عليهم . فقالوا : إنا قد ضللنا ، فكيف الطريق ؟ قال لهم : ها هنا ، وأوماً إلى السماء . فعلموا الذي أراد . فقالوا : إنا سائلوك ، أفتجيبنا ؟ قال : سلوا ، ولا تُكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لن يعود ، والطالب حثيث في طلبه ذو اجتهاد . قالوا : ما الخلق غداً عند مليكهم ؟ قال : على نياتهم . قالوا : فالأم المونل؟ قال : إلى المُقَدِّم . قالوا : أوصنا . قال : تزودوا على قدر سفركم ، فإن خير الزاد ما بلغ المحل . ثم أرشدهم إلى الطريق وغاب في صومعته .
- ٦- قال أحدهم : قلت لعابد : عطني عظة نافعة . قال : جميع المواعظ منتظمة في حرف واحد . قلت : ما هو ؟ قال : تجمع على طاعته ، فإذا أنت قد حوت المواعظ والأذكار .
- ٧- قال الأصمعي : قيل لأعرابي معه ماشية : لمن هذه ؟ قال : لله عندي ...
- ٨- وكان ابن السماك يقول : لقد أمهلكم حتى كأنه أهملكم . أما تستحيون من الله من طول ما لاتستحيون؟!
- ٩- وقال بكر بن عبد الله : اجتهدوا في العمل ؛ فإن قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي .
- ١٠- قال منصور بن عمار : ما أرى إساءة تكبر عن عفو الله فلا تينس ، وربما أخذ الله على الصغير منها فلا تأمن.
- ١١- أتت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحفة فيها خبز شعير وقطعة من الكرش ، فقالت : يا رسول الله ذبحنا اليوم شاة ، فما أمسكنا منها إلا هذا . قال " بل كلها أمسكتم إلا هذا " .

١٢- قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : ما بألنا نكره الموت؟ قال : لأنكم عَمَرْتُمُ الدنيا ، وأخربتم الآخرة . فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . وحين أخبره بوعيد الله للمذنبين قال له سليمان : فأين رحمة الله ؟ قال أبو حازم : قريب من المحسنين .

١٣- قيل لرجل جاء من حَلْبة سباق : من سبق يا عم ؟ قال : " المقربون " ، وقيل لشيخ رأى ظلماً : أين ربك ؟ قال : " بالمرصاد " .

١٤- قيل : إن المسيح عليه السلام خرج من بيت عاص ، فقيل له ما تفعل عنده يا روح الله ؟! قال: " إنما يأتي الطبيبُ المرضى " . ومرّ بقوم شتموه ، فقال خيراً . فقال له حوارِيوه : كلما زادوك شراً زدت خيراً؟! قال : " كل إناء بما فيه ينضح " .

١٥- قيل لأحد الحكماء : مَنْ شَرَّ الناس؟ قال : من لا يُبالي أن يراه الناسُ مسيئاً .

١٦- وقال علي رضي الله عنه : عَجِبْتُ لمن لمن يهلك والنجاة معه . قالوا : وماهي يا أبا الحسن ؟ قال : الاستغفار .

١٧- كان فتى يجالس سفيان الثوري ولا يتكلم . وكان سفيان يحب أن يسمع منه ليرى أين هو من رجاحة العقل . فمرّ به يوماً فقال : يا فتى ؛ إِنَّ مَنْ كان قبلنا مرّوا على خيل ، وبقينا على حمير دَبْرَة ؛ فقال الفتى : يا أبا عبد الله ؛ إِنَّ كُنّا على الطريق فما أسرع لحوقنا بالقوم .

رحمة الله بأمة الحبيب المصطفى

كنت أقرأ اليوم - صباح السادس عشر من رمضان عام ١٤٢٩ للهجرة سورة البقرة ، فتوقفت عند آخرها في قوله تعالى " اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " وفيها أن الله تعالى لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمانر وإن دقت وخفيت وأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى " قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " . وَقَالَ " يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى " وأنه سبحانه يحاسب العباد على جليل الأعمال وحقيرتها

لما سمع أصحاب رسول الله هذه الآية اشتد الأمر عليهم وخافوا وجثوا على الركب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون هلكننا والله يا رسول الله ، وقالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " . فَلَمَّا أَقْرَبَ بِهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " .

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَنْزَلَ : " لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا " قَالَ نَعَمْ " رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا " قَالَ نَعَمْ " رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ " قَالَ نَعَمْ " وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " قَالَ نَعَمْ . من حديث ابن عباس

فَتَجَوَّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَأَخَذُوا بِالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ فَقَطْ .

يقول القرطبي في تفسيره : قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ ، فَسَلْ تُعْطَهُ . فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّخْفِيفَ ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الْآخِرَةُ " لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " ، ثُمَّ رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ " .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ " .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " قَالَ اللَّهُ : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ فَإِنْ عَمِلَهَا فَامْكُتُبُوهَا سَيِّئَةً وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَامْكُتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَامْكُتُبُوهَا عَشْرًا " .

وَفِي حَدِيثِ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ قَالَ " وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ " قَالُوا نَعَمْ قَالَ " ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ " .

وقد قال العلماء : إِنَّ الْمُذْنِبَ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :

١- أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ،

٢- وَأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ عِبَادِهِ فَلَا يَفْضَحَهُ بِهِ بَيْنَهُمْ ،

٣- وَأَنْ يَعْصِمَهُ فَلَا يُوقِعَهُ فِي نَظِيرِهِ .

وهذا من فضل الله تعالى على أمة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم . إذ رفع الله سبحانه عنا الفضيحة والعنت مما كانت الأمم قبلنا تعيشه .

فقد كان يُكتب على أبواب الأقوام قبلنا ما كانوا يفعلونه في اليوم السابق ، فيستيقظون ، فيجدون ذلك أمام أعينهم ، يقرؤهُ الجميع ، فلا سر ولا ستر أكان ما فعلوه خيراً أم شراً . مثال ذلك قصة الرجل الذي تصدق على زانية وعلى لص ثم على تاجر .

وكان من طهارة الثوب إذا أصابته نجاسة أن يُقرض مكان النجاسة بالمقاريض .

والإصر كما قال العلماء : الشدة والتكليف الشاق الذي قد لا يتحمّله المكلف به إلا بعنت وجهد كبيرين .

من الأمثلة التي نجد فيها شدة الأخذ بخواطر النفس في الأمم قبلنا مارواه صهيب بن سنان رضي الله عنه قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفتيه بشيء لا نفهمه ، فقلنا : يا رسول الله إنك تحرك شفتيك بشيء لا نفهمه ! قال : " إن نبياً من الأنبياء أعجبه كثرة قومه ، فقال : من يفي لهؤلاء ؟ أو من يقوم لهؤلاء ؟ قال : فقيل له : خير أصحابك بين

١- أن نسلط عليهم عدواً فيستبيح بيضتهم ،

٢- أو الجوع ،

٣- أو الموت ، فخيرهم فاختروا الموت ، قال : فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفاً " . قال : فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وأنا أقول : اللهم بك أقاتل ، وبك أحاول ، وبك أواصل ، ولا قوة إلا بك " . وفي رواية : فأوحى إليه أن اختر لقومك إحدى ثلاث إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم أو الجوع أو الموت فاستشار قومه في ذلك فقالوا أنت نبي الله فكل ذلك إليك خر لنا فقام إلى الصلاة وكانوا إذا فزعوا فزعوا إلى الصلاة فصلّى ما شاء الله قال ثم قال أي رب أما عدو من غيرهم فلا أو الجوع فلا ولكن الموت فسلط عليهم الموت فمات منهم سبعون ألفاً . فهَمْسِي الذي ترون أني أقول اللهم بك أقاتل وبك أواصل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وتصور أن عقوبة هذه الخواطر التي لم يطلع عليها إلا الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى كانت إحدى ثلاث أمور من أشد ما يُعاقب به الإنسان .

وفي معركة حنين بعد فتح مكة قال المسلمون حين نظروا إلى أعدادهم الكثيرة - وكانوا أكثر من اثني عشر ألفاً - لن نُغلب اليوم عن قلة ، وكانت المعركة درساً عظيماً حين غفل المسلمون لحظاتٍ عن مصدر النصر فأخطأوا فيما قالوه ، فانهزموا أول الأمر إلا أن الله تعالى لم يعاقبهم العقاب الشديد إنما نبههم إلى أن النصر بيده سبحانه ، فلم تمض فترة قصيرة وهم مدبرون مشتتون حتى نادى القائد المعلم صلى الله عليه وسلم :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وأمر عمه العباس أن ينادي بصوته الجهوري يدعو المسلمين أن يفيئوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،،،، وكان النصر للمسلمين من عند الله تعالى

ولم يكن عقاب إنما كان التنبيه الذي يعيد الإيمان بالله والتوكل عليه ، ولم يكن إصرّاً إنما كانت هزة قويّة أعادت الأمور إلى نصابها برحمة الله وفضله :

" لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين "

فالحمد له - سبحانه - أنه لم يكلفنا إلا ما نُطيق ، ولم يحملنا حساب الخواطر والأفكار وحديث النفس ، فوالله إنها لمن الطامات لو كانت ، إنها لا تبقي ولا تذر .

يا ربنا لك الحمد ولك الشكر آناء الليل وأطراف النهار ، في كل لحظة وثانية في حياتنا إلى أن نلقاتك وأنت راضٍ عنا .

رحمة الله بأمة الحبيب المصطفى

كنت أقرأ اليوم - صباح السادس عشر من رمضان عام ١٤٢٩ للهجرة سورة البقرة ، فتوقفت عند آخرها في قوله تعالى " اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " وفيها أن الله تعالى لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت وأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى " قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " . وَقَالَ " يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى " وأنه سبحانه يحاسب العباد على جليل الأعمال وحقيقتها

لما سمع أصحاب رسول الله هذه الآية اشتد الأمر عليهم وخافوا وجثوا على الركب أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون هلكننا والله يا رسول الله ، وقالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَلَّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " . فَلَمَّا أَقْرَبَ بِهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا " أَمِنْ الرَّسُولِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " .

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَنْزَلَ : " لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا " قَالَ نَعَمْ " رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا " قَالَ نَعَمْ " رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ " قَالَ نَعَمْ " وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " قَالَ نَعَمْ . من حديث ابن عباس

فَتَجَوَّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَأَخَذُوا بِالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ فَقَطْ .

يقول القرطبي في تفسيره : قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ ، فَسَلِّ تَعْلُفَةً . فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّخْفِيفَ ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الْآخِرَةُ " لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، ثُمَّ رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ " .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ " .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " قَالَ اللَّهُ : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا سَيِّئَةً وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكْتُبُوهَا عَشْرًا "

وَفِي حَدِيثِ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ قَالَ " وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ " قَالُوا نَعَمْ قَالَ " ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ " .

وقد قال العلماء : إِنَّ الْمُذْنِبَ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :

٤- أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ،

٥- وَأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ عِبَادِهِ فَلَا يَفْضَحَهُ بِهِ بَيْنَهُمْ ،

٦- وَأَنْ يَعْصِمَهُ فَلَا يُوقِعَهُ فِي نَظِيرِهِ .

وهذا من فضل الله تعالى على أمة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم . إذ رفع الله سبحانه عنا الفضيحة والعنت مما كانت الأمم قبلنا تعيشه .

فقد كان يُكتب على أبواب الأقوام قبلنا ما كانوا يفعلونه في اليوم السابق ، فيستيقظون ، فيجدون ذلك أمام أعينهم ، يقرؤه الجميع ، فلا سر ولا ستر أكان ما فعلوه خيراً أم شراً . مثال ذلك قصة الرجل الذي تصدق على زانية وعلى لص ثم على تاجر .

وكان من طهارة الثوب إذا أصابته نجاسة أن يُقرض مكان النجاسة بالمقاريض .

والإصرار كما قال العلماء : الشدة والتكليف الشاق الذي قد لا يتحملة المكلف به إلا بعنت وجهد كبيرين .

من الأمثلة التي نجد فيها شدة الأخذ بخواطر النفس في الأمم قبلنا مارواه صهيب بن سنان رضي الله عنه قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفتيه بشيء لا نفهمه ، فقلنا : يا رسول الله إنك تحرك شفتيك بشيء لا نفهمه ! قال : " إن نبياً من الأنبياء أعجبه كثرة قومه ، فقال : من يفي لهؤلاء ؟ أو من يقوم لهؤلاء ؟ قال : فقليل له : خير أصحابك بين

٤- أن نسلط عليهم عدواً فيستبيح بيضتهم ،

٥- أو الجوع ،

٦- أو الموت ، فخيرهم فاختروا الموت ، قال : فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفاً " . قال : فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وأنا أقول : اللهم بك أقاتل ، وبك أحاول ، وبك أواصل ، ولا قوة إلا بك " . وفي رواية : فأوحى إليه أن اختر لقومك إحدى ثلاث إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم أو الجوع أو الموت فاستشار قومه في ذلك فقالوا أنت نبي الله فكل ذلك إليك خر لنا فقام إلى الصلاة وكانوا إذا فرغوا فرزوا إلى الصلاة فصلى ما شاء الله قال ثم قال أي رب أما عدو من غيرهم فلا أو الجوع فلا ولكن الموت فسلط عليهم الموت فمات منهم سبعون ألفاً . فهُمسي الذي ترون أني أقول اللهم بك أقاتل وبك أواصل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وتصور أن عقوبة هذه الخواطر التي لم يطلع عليها إلا الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى كانت إحدى ثلاث أمور من أشد ما يُعاقب به الإنسان .

وفي معركة حنين بعد فتح مكة قال المسلمون حين نظروا إلى أعدادهم الكثيرة - وكانوا أكثر من اثني عشر ألفاً - لن نُغلب اليوم عن قلة ، وكانت المعركة درساً عظيماً حين غفل المسلمون لحظاتٍ عن مصدر النصر فأخطأوا فيما قالوه ، فانهزموا أول الأمر إلا أن الله تعالى لم يعاقبهم العقاب الشديد إنما نبههم إلى أن النصر بيده سبحانه ، فلم تمض فترة قصيرة وهم مدبرون مشتتون حتى نادى القائد المعلم صلى الله عليه وسلم :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وأمر عمه العباس أن ينادي بصوته الجهوري يدعو المسلمين أن يفيئوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،،،، وكان النصر للمسلمين من عند الله تعالى

ولم يكن عقاب إنما كان التنبيه الذي يعيد الإيمان بالله والتوكل عليه ، ولم يكن إصرار إنما كانت هزة قوّة أعادت الأمور إلى نصابها برحمة الله وفضله :

" لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين "

فالحمد له - سبحانه - أنه لم يكلفنا إلا ما نُطيق ، ولم يحملنا حساب الخواطر والأفكار وحديث النفس ، فوالله إنها لمن الطامات لو كانت ، إنها لا تبقى ولا تذر .

يا ربنا لك الحمد ولك الشكر آناء الليل وأطراف النهار ، في كل لحظة وثانية في حياتنا إلى أن نلقاك وأنت راض عنا .

صلاة التراويح أم صلاة التساريح؟

لن أدخل في فقه الصلاة – كما يريده الفقهاء أنفسهم – فلست بالذي ينبغي أن يؤصل قاعدة فقهية يناقش فيها ، إنما نراوح بين اللغة والعادة التي تعارف عليها الناس في أدائهم صلاة التراويح في كل رمضان .

اعتاد جمهور المسلمين – وأركز على كلمة (اعتاد) – بعد فرض العشاء في رمضان مباشرة أن يصلوا ثماني ركعات على الأعم وعشرين ركعة على الأقل وكأنها صارت فرضاً عليهم ، لا يخرجون من المسجد إلا إذا صلّوها

وتعمدت أن أقول " صلّوها " ولم أقل " يقيمون صلاتها " لأن الفرق بين المعنيين كبير . فلن تجد في القرآن حين يأمرنا الله تعالى بالصلاة – على الأعم الأغلب - سوى " وأقم الصلاة .. " و " يقيمون الصلاة " وقد ذكرت الإقامة بالفعل الماضي والمضارع والأمر والمصدر خمساً وأربعين مرة ، إلا إذا أراد الدعاء ، فقال " وصلّ عليهم " ثم ذكر الفعل صلّى مرة واحدة بصيغة الأمر في قوله تعالى " فصلّ لربك وانحر " .

وتراهم في أحيان كثيرة يوصون الإمام أن يسرع في صلاته قراءة وأداء ، فيختصر صاحبنا القراءة . ولا حاجة لقراءة " وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ... " أو " سبحانك اللهم وتبارك اسمك وتعالى جدك " بعد تكبيرة الإحرام بل يبدأ بالفاتحة مباشرة ، ويُعدّ ماهراً إذا أنهى الفاتحة بنفس واحد أو نفسين ، ثم قرأ من قصار السور آيتين أو آية واحدة إن كانت طويلة بالسرعة نفسها التي قرأ فيها الفاتحة ، ثم يركع فلا يستوي راکعاً ويسجد فلا يستوي ساجداً . ولا ترى كبار السن والبادنين يستطيعون متابعتة ، فهو يسير بسرعة مئة وثمانين كيلاً في الساعة !.

وأغلبهم لا يريد أن يسمع كلمة توجيهية بعد الركعة الرابعة ، فقد تفوته حلقة من مسلسل تلفزيوني شائق يتابعه ، أو سهرة ممتعة حان وقتها . وإن لم يكن بد من الكلمة ، فلتكن قصيرة وسريعة قصر الركعات وسرعتها .

صليت مرة في مدينتي حلب ، وفي حي الكلاسة ، وبالتحديد في جامع عبد الناصر ، فانتهت صلاة العشاء وركعتا السنة بعدها ، وعشرون ركعة للتراويح ، ثم ركعتا الشفع ومن بعدها ركعة الوتر كل هذه الركعات في نصف ساعة فقط . إنها كما ترون تسع وعشرون ركعة قضاها في ثلاثين دقيقة ! ، وافتخر الإمام أنه كان نشيطاً وسريعاً ، ومن أعجبته الصلاة معه فليصل معه الأيام القادمة ، ومن لم يعجبه فالمساجد في المنطقة كثيرة !!

كنت إذ ذاك في الثلاثين من عمري حين انطلقت لزيارة أهلي ومع زوجتي ، فأذن للعشاء ، وكنا في منتصف الطريق إليهم فدخلنا هذا المسجد وأدينا رياضة نصف ساعة ! وسمعت هذا الكلام ، فحمدت الله أن بيتي ليس في هذا الحي وإلا اضطررت أن أمشي كل يوم مسافة أكبر لأصلي في مسجد آخر .

وسألت نفسي :

١- هل من السنة أن نصلي التراويح بعد صلاة العشاء مباشرة ؟ والجواب قطعاً : لا ؛ إنما نصليها في الوقت بين العشاء والفجر .

٢- هل الصلاة أمر ثقيل فرض علينا يجب أن نؤديه بتلك السرعة أو شبيهها دون أن نتفكر أو نتدبر فيما يقرأ الإمام ؟ ودون أن نعي هذه الرسائل الإلهية فنعرضها على أنفسنا لنرى أنحن ممن يؤديها أم ينساها ويم عليها ، فلا يلقي لها بالاً ؟

٣- وما الفرق بين السرعة والاعتدال في الحركات والطمأنينة في الركوع والسجود ؟ إننا لو زدنا في كل ركعة نصف دقيقة لما زاد الأمر عن أربع دقائق في الركعات الثمانية أو عشر دقائق في الركعات العشرين . أليست هذه الدقائق التي نضمها للصلاة تزرع السكينة والطمأنينة في أذاننا لها ، وترضي ربنا تعالى ؟ وما الأمر الخطير الذي نضيعه في حياتنا إذا كانت صلاتنا هادئة ؟. ولن أقارن أنفسنا برجال الله السابقين ، فهؤلاء قوم عمالقة ، لن نصل إلى كعوب أقدامهم .

٤- والتراويحُ : من المراوحة ، ويقول العلماء : سمي قيام رمضان " تراويح " لأن فيها مراوحة بين الصلاة والذكر والعبر والعظات ، فبين كل ركعتين أو أربع ركعات كلمة ، ثم ذكرٌ لله تعالى وصلاةٌ على نبيه الكريم ، وبعضهم قال - كابن مسعود رضي الله عنه - بل هناك تراويح بين رجل وآخرى في الصلاة لترتاح كل رجل من طول الوقوف قليلاً حين تعتمد على أختها دقائق لطول القيام . وهذه الصلاة التي يحدثنا عنها ابن مسعود لا علاقة لنا بها ، فأولئك - كما قلت - عمالقة شتان ما بيننا وبينهم . ورحم الله سيدنا ابن مسعود فهو يتحدث عن رجال القرون الثلاثة الأولى ولا يقصد رجال القرن الخامس عشر الهجري أو القرن الواحد والعشرين الميلادي !. .

فهل نصلي نحن صلاة التراويح أو صلاة التساريع ؟!

صيام إمبريالي

عرف من جاره أحمد أن سعيداً دعا الأصدقاء جميعاً إلى الإفطار عنده . أخبره أحمد بذلك لأن خالداً من الأصدقاء بل من قدمائهم الخُص !. ولن يظن أحمد أن خالداً لم يكن من المدعوين في رمضان هذا ، إلا أن الدعوة لم تصل خالداً .

لم يكن حزنُ خالد كبيراً لأن سعيداً لم يدعُ ، فقد عرف ابتداءً أنه لن يكون من المدعوين في رمضان هذا ، لقد كان تلك السنة ضيق ذات اليد ، فلم يدعُ الآخرين كما كان يفعلون . وتمنى لو رزقه الله تعالى أثناء السنة ليعوّض ما فاتته ، ولكنَّ العين بصيرة واليد قصيرة . إنما كان حزنه أنه لم يعرف أصدقاءه حق المعرفة ، فصارت اللقاءات بينهم واحدة بواحدة ، وكانوا يتبارون ، بل قتلُ : كانت النساء يتبارين أيتهنَّ تقدم في دورها أطيب الطعام وأشهاها ، وأكثرها تنوعاً وكمية وأغلاها ثمناً .

لقد صارت دعوات الإفطار – كما تقول زوجة خالد - حلبات المنافسة في عَرْض الثياب وأفانين المأكولات . فبعد الإفطار تُقدم المشروبات المتعددة من عرق السوس إلى شراب الورد والبرتقال ، إلى نقيع الكركديه وشراب العسل ، ويذهب الرجال بعد ذلك إلى صلاة التراويح ، في الجامع القريب ، يؤدون ثماني ركعات سريعات بعد صلاة العشاء ، لقد كان الإمام نشيطاً ! يسرع في صلاته فيدمج الركوع بالقيام ، ويسجد فلا تلامسُ جبهته الأرض حتى يرتفع عنها ، ويعود بحركة رياضية إلى الأرض ليلمسها بأنفه وقليل من جبهته ، فيرتدّ جالساً . وتنتهي الصلاة في ماراثون سباق يرضاه الكثيرون من المصلين . فالمراد عندهم أن يَعُدُوا ثماني ركعات يحسبون أنهم أدّوا فيها الصلاة كما علّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم !.

وتبدأ السهرة ببعض الحلويات الشرقية : كنافه مبرومة ، وبين نارين ، وبقلاوة ، وقليل من الفواكه لا تتعدى سبعة الأنواع ، فالإسراف مذموم !!

وعرف بعد ذلك أن سميراً لم يكن من المدعوين رمضانَ هذا ، فقد كانت زوجته مريضة لا تستطيع – حين يأتي دورهما – أن تخدم هذا الجمع الوفير ، فاتفق وزوجته أن يحملا معهما في كل دعوة يحضرانها كيلين من الحلويات الغالية ، وكأنهما يقولان : اعدونا يا جماعة ؛ فوضع الزوجة الصحي لا يسمح لها أن نفعل ما تفعلون وإن كنا ميسورين ..

هكذا كانا يعلنان رمضان الفائت ، ثم تبين الآن أن هذا العذر لم يكن مقبولاً ، فلم يكن سمير وزوجته من المدعوين .

ضيف لطيف

هذا الضيف العزيز الذي يزورنا كل سنة شهراً يعطينا ولا يأخذ منا . لا يكلفنا ما لا نستطيع إنما يخفف عنا كثيراً من الغناء ، ويساعدنا على التخلي عما يضر ولا ينفع . يعيننا مادياً ومعنوياً ونفسياً وفكرياً ... أما كيف ؟ فهناك ما رأيته وأراه .

يأكل أحدنا ما يريد في الوقت الذي يشاء . وفي الوقت الذي يشاؤه غيره في كثير من الأحيان . فقد تلتقي بعضهم فيدعوك بالراح إلى غداء أو إفطار ما كنت تحسب له حساباً ، إنك تخرج من البيت أو تتغدى في مطعم وتنطلق إلى عملك فتلتقي صديقاً أو عميلاً يريد أن يتقرب إليك و يكرمك ، وتخبره أن معدتك ممتلئة أو إنك لا ترغب فعلاً بإدخال شيء إليها لعدم شعورك بالجوع أو الرغبة في الطعام ، فلا يراعي الأمر ، ويصر على ذلك ، ولعله يعتبر عدم إجابة دعوته نوعاً من التهرب أو الإهانة !! فإذا أصرت على موقفك فقد تخسر موقفاً أو عميلاً ، وإن جاريته مكرهاً خسرت صحتك ، نعم خسرت صحتك فالمعدة بيت الداء والحمية أصل كل دواء .

في رمضان تتخلص من كل هذه المواقف الحرجة . ومن أضغوط بعضهم وعدم تفهّمهم الأمور صحيحة .

بل إنك في الإفطار تتناول ثلاث تمرات وتشرب كأساً من الماء ، وتنطلق لصلاة المغرب ، فتؤديها مرتاحاً ثم تعود لتأكل مع أسرتك أو أهلك وأحبائك .. والمسلم الحق يخفف الأكل نوعاً وكمية ، فيرتاح جسمه ويتخلص من الفضلات المقيمة في جسمه ، فيعاوده النشاط وتحسن صحته ، هذا على فرض فهمنا لمعاني الصيام والعمل به .. أما ما يجري على الطبيعة فمخالف – مع الأسف – لحكمة الصيام ومسئوبيته ، إذ ترى الصائمين ! يتمنون في هذا الشهر ما لم يكونوا يفعلونه في الأشهر الأخرى ، فترتفع فاتورة الشراء وتكثر أنواع الأطعمة على مائدة الإفطار، وكان القوم عائدون من بلاد الجوع ، أو من إرهاق شديد بعد رياضة مضية أو عمل شاق .

يُحكى أن مدخناً يستهلك في اليوم علبه دخان واحدة قرر أن يمتنع عن التدخين يوماً واحداً ليبرهن لنفسه أنه قادر على لجمها ، فعل ذلك بحق ، لكنه كافأ نفسه في اليوم التالي فدخّن علبتين ! وهذا حالنا معشر الصائمين إلا من رحم ربنا ، فإنك ترى أنواع العصائر وتنوع الأطعمة على الخوان تنتظر مدفع الإفطار حتى يصير ما عليه في خبر كان ، ثم ينطلق الجميع إلى صلاة التراويح شبه نائمين بسبب بخار الطعام المرتفع إلى الرأس ، فإذا ما أدوا صلاة التراويح (التساريح) ومَرّت ساعتان على وقت الإفطار عاد الناس يتناولون الحلويات وغيرها مما لذ وطاب فإذا المخزون من الطعام في أجسامنا شهر رمضان فاق نظيره في بقية الشهور وتبدل شهر الصيام إلى شهر المأكولات . ولا ننس ما يتناوله الناس في ليالي السمر من أنواع الحلوى أمثال القطايف ، وغزل البنات ، والخنافة بأنواعها ، والشعبيات ، وقد تُسمى (الوربات) وهي قائمة طويلة ...

والمطلوب في رمضان نوع من الغذاء نحتاجه كثيراً لأنه شهر البركات وشهر العفو والمغفرة ، إنه غذاء الروح والقلب والعقل . وهل أطيب من ذكر الله تعالى وتسبيحه والثناء عليه جل في علاه ؟. وهل ألد من ركيعات في جوف الليل تغسل أدران الحياة وتجلو القلوب وتُرضي رب العباد سبحانه ؟

وهل أفضل من إصلاح ذات البين ، فنعتر من أسأنا إليه ونستسمحه ، ندعو له ويدعو لنا فإذا كانت ليلة القدر شملنا الله تعالى بالعتق من النار ، وغفر ذنوبنا وستر عيوبنا وقرّبنا إليه سبحانه ؟ لهذا كان أسلافنا ينتظرون هذا الشهر الكريم بفارغ الصبر ويقولون " اللهم بارك لنا في رجب وشعبان ، وبلغنا رمضان " .

ونحن نلهج إلى الله تعالى راغبين أن يجمع قلوبنا ويلم شملنا ، ويجعلنا قوة واحدة ويداً واحدة ترفع مقامنا بين الأمم وأن ينصرنا على أعدائنا ويشفي صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

فضل الله على خلقه

لو أنك اقترضت من رجل تسعين ديناراً ، ثم جاء ابنه فاستقرض منك ستين ديناراً ، ومرت أيام وشهور ثم طالبك الرجل بدينه فلن تجد حرجاً أن تعطيه ثلاثين ديناراً فقط ، وتحيله على ابنه ليستوفي منه .

ولنفرض أن رجلاً استأجر غرفة في فندق بتسعين ديناراً ، ثم جاء ابنه فاستأجر غرفة بستين ديناراً ، فلما التقيا رغبا أن يكونا متقاربين دون أن يدفعوا شيئاً ، فسوف تعطي كل واحد منهما غرفة أجرتها خمسة وسبعون ديناراً ، فليس مالك الفندق مضطراً أن يخسر ثلاثين ديناراً إنما تنزل درجة الأب خمسة عشر ليرتفع الولد خمسة عشر ، فيلتقيان في غرفتين متقابلتين . وليس المالك للفندق ملوماً بما يفعل .

أما رب العزة الكريم – سبحانه- فقد أخبرنا بأفضل من ذلك في سورة الطور حين قال تعالى " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وما أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ " .

فمن عظيم فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يُلْحَقُهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا عَمَلَهُمْ لَنَقَرَّ أَعْيُنُ الْأَبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ فَيَرْفَعُ النَّاقِصَ الْعَمَلِ بِكَامِلِ الْعَمَلِ وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ ، ويساوي بينهما قَالَ " أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ " .

وَقَالَ الْحَافِظُ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ الْجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ وَزَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ فَيَقَالُ إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَجَتَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ لِي وَلَهُمْ فَيُؤَمَّرُ بِالْحَاقِقِ بِهِ " .

هَذَا فَضْلُهُ تَعَالَى عَلَى الْأَبْنَاءِ بِبَرَكََةِ عَمَلِ الْأَبَاءِ وَأَمَّا فَضْلُهُ عَلَى الْأَبَاءِ بِبَرَكََةِ دُعَاءِ الْأَبْنَاءِ فَقَدْ أورد الإمام أحمد رحمه الله عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أُنِّي لِي هَذِهِ ؟ فَيَقُولُ بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدَكَ لَكَ " إسْنَادُهُ صَحِيحٌ وَلَهُ شَاهِدٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ " .

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ غِنَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ جَمِيعِهِمْ وَمَعَ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ بِهِمْ يُجَازِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ فَيَكْفُرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ، فَيَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا الْوَاحِدَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَيَجْزِي عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ يَعْفو وَيَصْفَحُ

كَمَا قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا " وَقَالَ فِي سُورَةِ الْعَنكَبُوتِ : " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ " .
فيمحو السيئات فلا تبقى ، ولا يجزيهم على عملهم الحسن بالنسبة التي فعلوها ، إنما يجعل العمل الحسن كله بأعلى نسبة ، وهذا من كريم عظيم .

وتعال معي نستجلي الأمر بشكل واضح في الآيات من سورة الزمر . يقول الله تعالى

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤)

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)

يخبرنا الله تعالى أنه يكفر عن المسلمين أسوأ ما عملوا ، فإذا عفا عنا أسوأ ما عملناه ، وهي الكبائر والذنوب العظيمة المخيفة فمن باب أولى أنه سبحانه غفر لنا الذنوب الأصغر . فتلاشت كل السيئات بحمد الله ومنه .

واقرا معي بقية الآية " ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون " فالمسلم يعمل أعمالاً عظيمة أجرها كبير ، ويعمل أعمالاً بسيطة أجرها قليل . فيجعل الله تعالى أجر القليل كأجر الكثير ، فتكثر الحسنات وتنتفي السيئات ، فتكون أيها المسلم من أهل الجنة ، وتدخلها معزراً مكرماً .

من يفعل ذلك سوى الكريم سبحانه المتفضل لا إله إلا هو ؟

بقي أن تهمس في أذني وأهمس في أذنك أن نتعاهد على فعل الخيرات وعمل المبررات ، وأن نعصي شياطين الإنس والجن ، وأن نتوجه إلى الله بقلوب سليمة ...

فادع لي بظهر الغيب يا أخي ، إنني والله لبحاجة إلى دعائك .. اللهم اغفر لي ولإخواني وتجاوز عن سيئاتنا ، واجعلنا من عتقائك في هذا الشهر الفضيل .. اللهم آمين .

قرآء آخر زمان !

- عام ألف وتسع مئة وستة وتسعين من القرن الماضي شارك في مسابقة حفظ القرآن الكريم في دبي - في دولة الإمارات العربية المتحدة - أحد حفاظ القرآن من الباكستان . فلما جاء دوره طلب إليه المقرر أن يقرأ من سورة طه .

وهنا بدأت الطامة الكبرى إذ قرأ هذه الآية " طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " هكذا بعد أن انقطع نفسه : " طه ، ما أنزلنا عليك القرآن " .

" أنزلنا عليك القرآن لتشقى "

ومن المعتاد أن يعيد القارئ كلمة مما قرأ ، أو جملة حتى يصل ما انقطع . إنه فعل هذا ، ولكنه لجهله قلب المعنى وقطعه قطعاً حاداً ، وغيره تغييراً كبيراً ، فكأن الله تعالى لم ينزل القرآن على نبيه الكريم ، ثم لما أنزله قصد أن يشقى نبيه بذلك !! . فأسكته الشيخ ، ثم أنهى المقابلة ، وصرفه .

ولم يدر القارئ سبب إنهاء مسابقته لأنه لا يفهم العربية ، لقد حفظ القرآن دون أن يفهم معانيه ، وردد آياته ترديد الببغاء . ووقف وقفة خاطئة .

- وفي دبي - كذلك - عام سبعة وتسعين وتسع مئة وألف دخلت سوق بيع الجملة للخضار والفاكهة ، فأدركتني صلاة المغرب هناك . ، فدخلت المسجد في تلك المحلة ، فقرأ الإمام البنغالي في الركعة الأولى أول سورة " المنافقون " .. كتبتها بالرفع على الحكاية ، هكذا علمنا أساتذتنا ..

- قلت إنه قرأ الآية الأولى " إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد أنك لرسول الله ، والله يعلم أنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون " فجعل الكلمتين يشهد ونشهد " نشد ويشد " بالحاء بدل الهاء ... قلت لا بأس أن نكون نحن معشر العباد " شحادين " أما أن يتصف الله جل شأنه بـ " الشحادة " فمصيبه كبرى .

واتصلت بمدير الأوقاف إذ ذاك ، ونهته إلى وجوب أن يكون الإمام ناطقاً للعربية بشكل صحيح ، وأن هذا البنغالي لا ينبغي أن يكون إماماً ، فلم أجد منه أدناً صاغية .

بل إن مدير الأوقاف هذا كان منحرف العقيدة - إن صح التعبير - فقد حضرت له خطبة في إحدى الجمع فقال إن النبي صلى الله عليه وسلم ليس بشراً ، واحتج بقصة مختلقة ما أنزل الله بها من سلطان يقول فيها : إن

السيدة عائشة رضي الله عنها حين أرادت أن تحكم النطاق حول خصره صلى الله عليه وسلم عاد النطاق بين يديها . فلما نزل الإمام من المنبر وصلى بنا الفريضة أخبرته أنه اعتمد قصة مختلفة لا أصل لها ، وتناسى أنه صلى الله عليه وسلم شُج في معركة أحد وانكسرت رباعيته ، وسال دمه ، وأنه صلى الله عليه وسلم يأكل ويشرب وينام ويصحو ويموت . وذكرت له الآيات الدالة على بشريته صلى الله عليه وسلم ، .. وكأنك تحرث في الماء ، وتزرع في الهواء ، وكان بيننا ما كان .

- أما في عام ألفين وأربعة للميلاد فقد كنت ضعيفاً في رمضان على المركز الثقافي الإسلامي في مدينة جنوة الإيطالية ، وصليت وراء الإمام نافلة التراويح ، فقرأ في الركعة الأولى من سورة مريم ما قرأ وأناها بقوله تعالى : " وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتماً مَقْضِيّاً " ثم ركع وركعنا ، قلت في نفسي : سامحه الله ، كيف رضي أن يتركنا في جهنم دقائق عدة ، ثم بعد السجود والقيام إلى الركعة الثانية وقراءة الفاتحة أخرجنا منها حين قرأ " ثم ننجي الذين اتَّقَوْا ، ونذر الظالمين فيها جثياً " .. على فرض أننا من المتقين إن شاء الله تعالى !.. هذا دليل على أن الإمام لا يعي ما يقرأ ، ولا يفهم ما يتلو ..

- إن ما ذكرني بهذه المواقف أنني صليت أمس اليوم الرابع عشر من هذا الشهر الفضيل خلف إمام مسجدنا ، وعهدي به لَمَاحاً ذكيّ الفؤاد ، فوقع في المطبّ نفسه حين أنهى الركعة الأولى لصلاة التراويح بقوله تعالى من سورة الصافات على لسان الكفار المستهزئين " إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّنَا لَمَبْعُوثُونَ ؟ ! أَوَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ ! " ثم ركع وسجد وركعنا وسجدنا معه ، ثم قام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة ثم أورد الردّ القاصم الذي كان ينبغي أن يقرأه في الركعة الأولى وهو قوله تعالى " قل : نعم ، وأنتم داخرون أي خاضعون ذليلون وكان المصلون يتابعونه - على ما أظن- غير مدركين ما يقرؤه ، غير أنهم ربطوا أجسادهم بحركاته : قيامه وركوعه وسجوده يؤدون عملية رياضية ليس غير ، تقبل الله منا جميعاً .

كَبَرٌ، كَبَرٌ

قد يخطر ببالك أخي الحبيب حين تقرأ العنوان أنني أقول لك : قل (الله أكبر) ، لا شك أن من شعارات المسلمين في كل آن وحين أن نكبر فنقول : الله أكبر .

كَبَرٌ، كَبَرٌ ... كلمة قالها النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سهل حين قتل أخوه عبد الله - وعبد الله أكبر منه - وكان صديقاً لمحيصة بن مسعود ، بل كان محيصة عمه وصديقه ، وكان القاتل معروفاً ، ذكر اسمه القتل عبد الله وهو يتشخط بدمه قبل أن يفارق الحياة حين لقيه عمه وصاحبه محيصة في اللحظات الأخيرة .

فقد ذهب محيصة وعبد الله إلى خيبر وقت السلم لبيع أو شراء وافترقا على أن يلتقيا في ساعة محددة ، فلما عاد محيصة وجد ابن أخيه وصاحبه يفارق الحياة بضربة غدر من رجل عرفه ونطق اسمه قبل أن يودع .

انطلق محيصة وأخوه حويصة - وحويصة أكبر الاثنين - ومعهما ابن أخيهما عبد الرحمن بن سهل أخو القتل يشتكون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبون الثأر والقصاص ، وظن عبد الرحمن أنه أولى بالحديث لأنه أخو القتل ، فلما بدأه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وعماه الأخوان حويصة ومحيصة معه قال له النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه احترام الكبير وتوقيره ووجوب تقديمه : " كَبَرٌ ، كَبَرٌ " .. ، فسكت ، وتكلم حويصة ومحيصة .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أراني أتسوك بسواك ، فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر ، فناولت السواك الأصغر ، فقيل لي : كَبَرٌ ، فدفعته إلى الأكبر منهما " وللإنسان أن يعطي الهدية من يشاء ، لكن احترام الكبير وتوقيره مطلوب ، فكان تقديمه أولى .

وكان الحبيب المعلم صلى الله عليه وسلم يقول منبهاً إلى إكرام الكبير " إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشبهة المسلم " . فمن إكرامه التأدب في الحديث معه ، وخفض الصوت أمامه ، والنظر إليه بمحبة ولطف ، وإجلاله في مكان يستحقه ، وتقديمه في حضرة الآخرين وعدم تعديه ، ومناداته بكلمة تنبئ عن تقدير (العم ، أبا فلان) .

ألم نحفظ عنه صلى الله عليه وسلم قوله الرائع المضيء في عالم التربية والأدب " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا " ولا حظ معي كلمة " ليس منا " فهي تنبيه وتحذير من جهة ، وحض وتحفيز من جهة أخرى .

وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته الطاهرة الكثير من المواقف التربوية التي تعلمنا الأدب مع الكبير ومراعاة مكانته وتقديره .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد على ذلك منها قوله تعالى في الآية ١٣٣ من سورة البقرة حين نسمع يعقوب عليه السلام قبل أن يلقي ربه يسأل أولاده عمّن يعبدون من بعده ليثبت إيمانهم على الملة السمحاء فيجيبون " قالوا : نعبد إلهك ، وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون " فأبوه إسحاق وجدّه إبراهيم أما إسماعيل فعّمّه ، لكنهم حين ذكروا الثلاثة قدموا عمه إسماعيل على أبيه إسحاق لأن إسماعيل أكبر منه . وجعلوا إسماعيل من آبائه . وهذا قمة في الأدب وحسن الأخلاق .

وانظر معي إلى الترتيب الجميل في قوله تعالى في الآية ١٣٦ من سورة البقرة " قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد مكنهم ، ونحن له مسلمون " ترتيب زمني جيد من لدن إبراهيم إلى عيسى صلوات الله عليهم ، يعلمنا إنزال الكرام منازلهم .

ونجد في السورة نفسها في الآية ١٤١ الترتيب في المقام نفسه " أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟! ؟ .

بل إننا نتعلم من فرعون نفسه - والحكمة ضالة المؤمن أتى وجدّها التقطها - نتعلم توجيه الحديث إلى الأكبر والأكثر وجاهة . فموسى وهارون عليهما السلام دخلا عليه وقالا له " إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى " فوجه فرعون السؤال تحديداً إلى أكبرهما وانتظر الجواب منه فقط " قال : فمن ربكما يا موسى ؟ " وكان الحوار بينهما ...

ليتنا نصوم ونفطر معاً

صامت ليبيا قبل الجميع بيوم ، ثم صام أغلب المسلمين في اليوم التالي ، وصامت بعض البلاد الشرقية في اليوم الثالث . وهذه وهدة المهزلة في عالمنا المسلم ...

ولسوف نرى غداً الثلاثاء من يفطر وحده أو مع غيره ، ثم نرى البقية الباقية تتابع في إعلان رؤيتها شهر شوال الأربعاء والخميس !

فلماذا هذا الاختلاف في الأمور البديهية ؟ نعم إنها بديهية على الرغم من تنوع المتنطعين وفلسفة المتفهبين . وتعليقات من يدعي الاجتهاد والتأويل .

١- إن من سعد القمر ودار حوله ثم نزل عليه كان يحسب حركاته ودورانه بالثانية وأجزائها ، ويتابعه أيام الصحو والغيوم والليل والنهار أكان هلالاً أم بدرأ أم محاقاً ، ويحدد مطالعه ومخارجه ومسافته وبعده .. وتصل إليه المركبة الفضائية بالدقة المتناهية فهل قمرهم غير قمرنا ؟ وأهلتهم غير أهلتنا ؟!

٢- يقول النبي صلى الله عليه وسلم " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته " ولم يحدد صلى الله عليه وسلم طريقة الرؤية ، قد تراه بالعين المجردة أو النواظير الدقيقة أو الحسابات الفلكية . وقد تكون الرؤية عينية وقد تكون حسابية . والأخيرة - الرؤية الحسابية - دقيقة كما ذكرنا قبل قليل . فلماذا التقيد بالوسائل القديمة ما دامت الطرق الحديثة تؤدي الرؤية على وجه أتم وأكمل ؟

٣- ولم يقصد صلى الله عليه وسلم أن يرى المسلمون كلهم الهلال في صيام رمضان ولا إفطار شوال ويكفي أن يراه الموثوق بهم ليثبت أحد الأمرين ، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " صلوا كما رأيتموني أصلي " ولم يره صلى الله عليه وسلم يصلي إلا أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، فهل تسقط الصلاة عمّن لم يره أو لم يره أن يصلي كما يشاء؟ أم إن المسلمين التزموا أخبار الصحابة الثقات الذين رأوا صلاته فأوصلوها لنا؟

٤- بعضهم يقول : إن هناك مطالع للقمر كثيرة . فلنسألهم : هل تعدد المطالع يعني أن من صام أو أفطر اليوم سيجد قمره في الليلة الرابعة عشرة مستديراً ، ومن صام أو أفطر بعده بيوم ستكمل دورته في اليوم التالي؟! وأقصد أن المتأخرين سوف يكون قمرهم في الليلة الثالثة عشرة حين يكون قمر من

صام قبلهم مستديراً استدارة كاملة ؟ قد يكون الجواب إيجاباً حين يكون لكل بلد قمر خاص بهم يظهر لهم بطلعته البهية دون غيرهم !! ، وليس حول الأرض سوى قمر واحد يطلع عليهم جميعاً في ليلة واحدة ويغيب عنهم جميعاً في ليلة واحدة .

٥- بعضهم يحتج قائلاً : إن هناك ما يثبت كثرة مطالع الشروق والغروب . ألم يقل القرآن الكريم مرة " رب المشرق والمغرب " ويقول أخرى " رب المشرقين ورب المغربين " ويقول ثالثة " رب المشارق والمغرب " ؟ فالجواب أن الشروق والغروب يحصلان كل ثانية على مساحات في الكرة الأرضية لأنها تدور حول نفسها إلا أن القمر واحد كما أن الشمس واحدة .

٦- وللتدليل على أن القمر يطلع على الأرض كلها في ليلة واحدة نقول : إن الهلال يظهر دقائق قليلة في الليلة التي يولد فيها ، لكن بقاءه يمتد في اليوم التالي حوالي خمسين دقيقة ، ولنفرض أن بلداً صام الأحد حين ثبت لأهله رؤية هلاله في الليلة السابقة ، وبلداً آخر صام يوم الاثنين لأنه لم يثبت عنده رؤية الهلال ، فإذا كان صوم البلد الأول صحيحاً فسوف يرى أهل الأرض كلهم الهلال أكثر من خمسين دقيقة قبل غيابه ، وإذا لم يروا الهلال فهذا يعني أنه صام يوماً من شعبان . وقد قلنا إن القمر في استدارته سوف يراه أهل الأرض كلهم مستديراً .

٧- لست ممن يحب المناكفة والجدال إلا أن المنطق والعقلانية والعلم ينبغي أن يكون رائدنا إلى الحق وأن يكون تصرفنا دالاً على حكمة وحسن تصرف ، فالبشرية تنظر إلينا نظرة الناقد والمتفحص ينتظرون منا خطأ - وما أكثر أخطائنا مع الأسف - ليهزؤوا بنا ويسخروا منا وينفروا عنا . وها نحن بتفرقنا وبعدنا عن الله نقدم للعدو ما يرغب ويشتهي ، ليتشفى ويسيء .

٨- إن تقوى الله يقربنا إلى أنفسنا ويغير حالنا من ضعف إلى قوة ، ويجعلنا يداً واحدة ، ويفوت على المتربص بنا مكره وفساده ، ويخذله عنا ثم يخذلته . فهل نعي ذلك ؟ أم على قلوب أقبالها؟!!!

الاثنين : ٣٠ رمضان ١٤٢٩

٣٠ أكتوبر ٢٠٠٨

ليلة القدر

- القَدَر والقَدْر - بالفتح والسكون - : القضاء والحُكم ، وهو ما يقدره الله تعالى من القضاء ، ويحكم به من الأمور . قال الله عز وجلّ " إنا أنزلناه في ليلة القدر " أي الحكم ، وقد قال الله تعالى في سورة الدخان " إنا أنزلناه في ليلة مباركة

- وليلة القدر ليلة عظيمة فيها نزل القرآن الكريم " إنا أنزلناه في ليلة القدر " فهي فخر الليالي حين اختارها المولى الجليل زمناً لنزول خير كتبه - القرآن الكريم - فما أكرمها من ليلة .

- وهذه الليلة المباركة خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، فهي على هذا تعدل في الفضل ما ينوف على ثلاثة وثمانين عاماً ، ولأن أعمار أمة محمد صلى الله عليه وسلم قصيرة بالمقارنة بأعمار الأمم قبلها ، فإن ليلة القدر نبع ثر لمن وافاها بعبادة وصلاة وقيام ، وكأن عمره زاد زمناً وعملاً ، فسد النقص ، وفاض خيراً وبركة . هذا في سنة واحدة ، فما بالك إن وافاها المسلم كل عام يجد فيها ويجتهد؟! إنه لعمر طويل مبارك خير للمسلم إن شاء الله تعالى .

- قال تعالى في فضلها " فيها يُفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا .. " ففيها تُقسّم الأرزاق ، وتُقدر الأعمار . فلنسأل الله تعالى أن يرزقنا الرزق الحلال الطيب المبارك ، وأن يكتب لنا نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

- وكم من إنسان واكلها هذه السنة وهو ممن قدر عليه الموت بعدها ، فتجيء السنة القادمة وهو بين أطباق الثرى . فلندعُ دعاء سيدنا يوسف عليه السلام " اللهم فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفيّني مسلماً ، وألحقني بالصالحين "

- وليلة القدر ترفع -بإذن الله تعالى - قدر صاحبها المتوجه إلى الله يسأله فضله ، ويدعوه أن يحييه مسلماً ، وأن يفيض عليه من خيراته سبحانه . وكيف لا يرتفع قدر من أعتقه الله في هذه الليلة من النار ، وجعله من أهل الجنان التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ؟ نرجو أن نكون أهلاً لذلك ، فإن لم نكن فإننا نتضرع إلى الله أن يعاملنا بما هو أهل له ، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ،

- أقول في هذه الليلة المباركة:

يا ليلة القدر الجميل بهاؤها فيك الرضا الموسوم بالخيرات

الروح الملاك بأعذب الكلمات	خير من الألف الشهور، تنزل الـ
الملك الكريم إلى الصباح الآتي	فيها البشائر والسلام يخصنا الـ
يتلوه غفران مع الحسنات	في عشره الأولى مكارم رحمة
من لفح نار لاهب الجمرات	ثم المتاب ، به اعتاق رقابنا
يا سعد من يسعى إلى الجنات	برضا الإله إلى الجنان مآلنا
وارفق بهم بالعفو والرحمات	يا رب فاقبل من عبادك حبهم
فتحت نوافذها إلى الروضات	واجعل قبورهم إذا أتوك منازلًا
في ظل عرشك بارد النسمات	في الحشر أبعد عنهم لفح اللظى
البرق المضيء وواسع الخطوات	وعلى الصراط أجزهم في لمحاة
دار النعيم وموئل السادات	أنت المؤمل يا عظيم فهب لنا

- اللهم هذه ليلتك المباركة أهلت علينا ، فاقبلنا فيها ، واعتق رقابنا من النار ، واجعلنا في عبادك الصالحين يا رب العالمين .

اتخاذ الإخوان واختيارهم

- كان يُقال : أعجزُ الناس من فرط في طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم ؛ فالوصول إلى صديق صدوق كاستخراج الذهب من مكانه ، وما أسهل إضاعة الأصدقاء بإهمالهم أو الإساءة إليهم .
- ويحكى أن داود عليه السلام قال لابنه سليمان عليه السلام : " يا بني ؛ لا تستبدلن بأخ لك قديم أخاً مستفاداً ما استقام لك ، ولا تستقلن أن يكون لك عدو واحد ، ولا تستكثرن أن يكون لك ألف صديق " فالعدو مصدر القلق والترح ، والصديق يُدخل عليك السرور والمرح .
- والغالب من الناس يظن أن الغنى بالمال ، بل براحة البال، وكثرة الأحاب . قال الشاعر ابن الأعرابي :
لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقات الذخائر
- وقال حكيم : رأيت الدنيا وذخايرها تالفة إلا ذخيرة الأدب وعقيلة الخلّة ، فاستكثر من الإخوان واعتصم بعرا الأدب . وكان يُقال : الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال ، وقال الشاعر :
إذا لم يكن للقوم عزّ ولم يكن لهم رجل عند الزمان مكين
فكانوا كأيد أوهن الله بطشها ترى أشملاً ليست لهنّ يمين
- وقال أحدهم – أيوب السخيتاني – " إذا بلغني موت أخ لي فكأنما سقط عضو مني " وقد قال الشاعر :
أخاك أخاك ؛ إن من لا أخاً له كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح
- أقول : وليس شرطاً أن يكون ابن عمك خيراً من صديقك ، إلا أنها دعوة عشائرية وفكرة قبلية ، وكثيراً ما يكون الأقارب عقارب .
- وكثرة الأصدقاء قوة على الضيم ونصرة للحق ، وطرد للذل وشعورّ بالعز . يقول الشاعر الثقفي :
من كان ذا عدد يدرك ظلامته إن الذليل الذي ليست له عضد
تنبو يدها إذا ما قتل ناصره ويأنف الضيم إن أثرى له عدد

أقول : على أن لا يرى نفسه قوياً فيبطر ويظلم ، إن كثيراً ممن شعر بقوته مع ضعف في دينه ومروءته انقلب ظالماً لا يرعوي إلى الحق .

- كما أن التقيَّ إذا لم يصادقك لم يبغضك ولم يعادك ، أما صحبة الفاسق فتثقلة على النفس ، وتودي إلى المهالك ، إن الصاحب صاحب . قال الشاعر :

وبغضاء التقيِّ أقلّ ضيراً وأسلم من مودة ذي الفسوق

ولن تنفك تحسداً أو تعادى فأكثر ما استطعت من الصديق

- وقال المأمون : الإخوان ثلاث طبقات ؛

١- طبقة كالغذاء ، لا يُستغنى عنه .

٢- وطبقة كالدواء لا يُحتاج إليه إلا أحياناً .

٣- وطبقة كالداء ، لا يُحتاج إليها أبداً .

- وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما : " من أدام الاختلاف إلى المساجد أصاب ثمانين :

١- آية مُحكمة ؛ ٢- وأخاً مُستفاداً ؛ ٣- وعلماً مُستطرفاً ؛ ٤- ورحمة مُنتظرة ؛ ٥- ٦- وكلمة تدلُّه على هدى أو تردعه عن ردئ ؛ ٧- ٨- وترك الذنوب حياءً أو خشية . رضي الله عن الإمام الراشدي الخامس الحسن بن علي ، فقد نسي الناس أنه حكم عشرة أشهر تم بها ثلاثون سنة راشدة من حكم الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .

- ويقول أحد العارفين : الصاحب رُقعة في قميص الرجل ، فلينظر أحدكم بم يرقع قميصه . وقال : ما وجدنا شيئاً أبلغ في خير أو شر من صاحب .

- وقال يونس : اثنان ما في الأرض أقلّ منهما ؛ درهم يوضع في حق ، وأخ يسكن إليه في الله .

- وقال علقمة بن لبيد العطاردي لابنه ينصحه نصيحة بليغة : يا بني إذا نرعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب منهم :

١- مَنْ إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة ماتك (بذل لك المؤونة)

٢- وإن قلت صدق قولك ، وإن صُلّت شدّ صولتك ، وإن مددت يدك بفضل مدّها ، وإن رأى منك حسنة عدها .

٣- وإن سألتَه أعطاك ، وإن سكّت عنه ابتداك ، وإن نزلت بك إحدى المُلمات آساك ،

٤- من لا يأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق .

٥- وإن حاول حويلاً آمرك (شاورك فيما يريد) وإن تنازعتما مُنفساً أترك (يفضلك على نفسه بالخير) .

أقول : إنها نصائح رائعة تُكتب بماء الذهب ، ويُحافظ عليها في شغاف القلوب ، يقتنصها الأديب الأريب ، والذكي اللبيب ، ويعمل بها العاقل الندي ذو الفؤاد البهي .

وقال الشاعر في هذا :

إن أخاك الصدق من كان معك ومن يضر نفسه لينفك

ومن إذا ريبُ الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك

- وكتب رجل إلى صديقه يمدحه لما رأى فيه من خير ومروءة : أنت يا صديق كما قال الأعشى :

من ليس في خيره من فيفسده على الصديق ولا في صفوه كدر

وليس فيه إن استنظرتَه عجلٌ وليس فيه إذا ياسرته عُسرٌ

وقال شاعر آخر في أخيه :

إذا كان إخوان الرجال حرارةً فأنت الحلالُ الحلو والباردُ العذبُ

لنا جانبٌ منه دميٌّ وجانبٌ إذا رامه الأعداءُ مركبُه صعب

وتأخذُه عند المكارم هزّةٌ كما اهتزّ تحت البارح الغصن الرطب

- وبكى الشعراء إخوانهم بقلوب دامية إذ فقدوهم ، فقال أحدهم :

أبكي أحياناً يتلقاني بنائله قبل السؤال ويلقى السيف من دوني

إن المنايا أصابتني مصائبها فاستعجلت بأخ قد كان يكفيني

وقال غيره :

أخ طالما سرّني ذكره فأصبحثُ أشجى لدى ذكره

وقد كنت أغدو إلى قصره فأصبحثُ أغدو إلى قبره

وكننت أراني غنياً به عن الناس لو مُد في عمره

إذا جنّته طالباً حاجة فأمرني يجوز على أمره

- والحقيقة أن الصديق الصدوق كالجوهرة النادرة ، ولا ترى الأصدقاء إلا أيام الرخاء ، أما في أيام الشدة فلا وجود لهم - كما يقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه -

ولا خير في ودّ امرئ متلّون إذا الريح مالت مال حيث تميل

جوادٌ إذا استغثت عن أخذ ماله وعند احتمال الفقر عنك بخيل

فما أكثر الإخوان حين تُعدهم ولكنهم في النائبات قليل

(الحرص والإلحاح)

- لما قتل كسرى وزيره (بُزُرْ جَمِهْرَه) وجد في ثوبه كتاباً " إذا كان القدر حقاً فالحرص باطل ، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز ، وإذا كان اللوم لكل أحد راصداً فالطمأنينة إلى الدنيا حُمق. " وصدق الحكيم في وصفه الدقيق للحياة والناس .

- وقيل : لا يُكثر الرجل على أخيه الحوائج ، فإن العجل إذا أفرط في مصّ أمه نطحته . هذا في القريب ، فما تقول في التعامل مع الغريب؟!

وصدق الشاعر بقوله :

من عَفَّ خَفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول

ويقول ابن المقفع : الحرص مَحَرمة ، والجبن مقتلة ، وانظر : من يطلب إليك باللطف والأدب أحق أن تجيبه أم من يطلب ذلك بالشرّ والحرص؟

وقال عدي بن يزيد في هذا :

قد يدرك المبطئ من حظه والرزق قد يسبق جهد الحريص

وقد يكون الحرص سبب المنية أو القتل أو المنع .. واقرأ قول الشاعر المبدع :

كم من حريص على شيء ليدركه وعلّ إدراكه يدني من العطب

وقال آخر في المعنى نفسه :

ورُبّ مُلِحٍّ على بُغية وفيها منيته ، لو شعر

- وتقول العرب في الرجل الذي يلح في الطلب ولا ينتهي من أمر حتى يُلَحَّ في غيره :

" لا يرسلُ الساقَ إلا ممسكاً ساقاً "

وأصل المثل في الحرياء ، إذا اشتد عليها حر الشمس لجأت إلى شجرة ، ثم لا تترك

غصناً إلا لتمسك غصناً آخر .

وقالوا : (إن الطمع ضرّ ما نفع) ، ولكنهم يقلّبونه فيقولون (ما ضرّ ، نفع) (١)

وفي كتاب كليله ودمنه : لا فقر ولا بلاء كالحرص والشره ، ولا غنى كالرضا والقناعة ، ولا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكفّ ، ولا حسَب كحُسن الخُلُق .

ويقول أيضاً صاحب كليله ودمنه : خمسة حُرّصاء ، المال أحب إليهم من أنفسهم .

١- المقاتل بالأجرة ، ٢- حقّار القنّي والأسراب (القنّي جمع قنّاة) ٣- والتاجر يركب البحر ، ٤- والحاوي يُلّسع يده الحيّة ، ٥- والمخاطر على شرب السم .

أقول : إن في حرصهم هذا مظنة مقتلهم .

- وقال ابن المقفع : الحرص والحسد يكرّ الذنوب ، وأصل المهالك ، أما الحسد فأهلك إبليس ، وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة .

- دخل مالك بن دينار رحمه الله على رجل محبوس قد أخذ بمال ، وعليه قيد ، فقال له : يا أبا يحيى أما ترى ما نحن فيه من القيود ؟ فرفع مالك رأسه فرأى سلة ، فقال : لمن هذه ؟ قال : لي . قال فأمر بها مالك فأنزلت ، فوضعت بين يديه ، فإذا دجاج وحلوى ، فقال مالك : هذه وضعت القيود في رجلك .

- والعاقل من بينس مما بيد الناس ويترك الدنيا الفانية لأهلها ، يقول النابغة :

والياس مما فات يعقب راحة ولربّ مطمعة تعود ذباحاً

ولماذا يسعى الإنسان إلى ما ليس له ، والله تعالى قدر له رزقه الذي سيأتيه لا محالة

يقول الشاعر في مثل هذا :

أيها الدائب الحريص المعنى لك رزق وسوف تستوفيه

قَبَّحَ الله نائلاً ترتجيه من يدي من تريد أن تقتضيه

إنما الجود والسماح لمن يعطيك عفواً وماءً وجهك فيه

لا ينال الحريص شيئاً فيكفيه ، وإن كان فوق ما يكفيه

فسل الله وحده ودع الناس ، واسخطهم بما يرضيه

لا ترى معطياً لما منع الله ولا مانعاً لما يعطيه

- وقد أحسن أبو العتاهية حين وصف النفس الإنسانية بشحها وكرهها للخير في أكثر الأحيان ، فهذا طبع متأصل فيها إلا من راض نفسه خلاف ذلك ، وقليل ما هم :

إن للمعروف أهلاً وقليل فاعلوه

أهنأ المعروف ما لم تُبتذل فيه الوجوه

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه

فإذا احتجت إليه ساعة مجك فوه

إنما يعرف الفضل من الناس ذووه

الزيارة والتلاقي

روى عثمان بن سودة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من عاد مريضاً أو زار أخاً ناداه مناد من السماء : أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً " فهي دعوة من نبي الحب والود إلى المسلمين والبشرية جمعاء أن يتقاربوا ويتزاوروا ، فَرَبَ السماء سبحانه يجزيهم الحياة السعيدة في الدنيا والمنزلة الرفيعة في الدار الباقية .

وكان يُقال : "امش ميلاً وعُد مريضاً ، وامش ميلين وأصلح بين اثنين ، وامش ثلاثة أميال وزُر أخاً في الله " . وهذه حكمة تدعو للقاء المثمر للأخوة ، الداعم للصدقة . والمسلم عنوان البر والإيجابية في الحياة ، فما أجمل أن تزور مريضاً وأن تصلح بين المتخاصمين وأن تنشئ علاقة طيبة مع أخ لك في الله؟! .

وما أجمل قول علي بن الجهم في الصحبة والزيارة :

أبلغُ أخاً ما تولى الله صحبَتنا أني وإن كنتُ لا ألقاه ألقاهُ
وأن طرفي موصول برويته وإن تباعد عن مثواي مثواه
الله يعلم أني لست أذكره وكيف أذكره إذ لست أنساهُ

فصحبه في الله باقية سواء لقيه أم غاب عن ناظره ، إن قلبه موصول به متعلق برويته ، وإنه دائماً معه في كل آن .

وفي هذا المعنى يقول أحدهم : قد جمعنا وإياك أحوالاً لا يُزري بها بعدُ اللقاء ، ولا يُخلّ بها تنازحُ الديار .

ويعتبر سهل بن هارون أن من روعة الحياة أن تلتقي من يمتاز بشمائل عالية وأخلاق سامية :

وما العيشُ إلا أن تطول بنائل وإلا لقاء المرء ذي الخلق العالي

ويروي ابن قتيبة أنه قرأ في كتب حكماء الهند أن ثلاثة أشياء تزيد في الأُنس والثقة : ١- الزيارة في الرحل (مكان الإقامة) ٢- والمواكلة ، ٣- ومعرفة الأهل والحشم (أن يتعرف أهلك على أهل المزور فتزداد الألفة وتتوثق الصداقة) .

وكتب رجل إلى صديقه يستحثه على الوصال : مثلنا - أعزك الله - في قرب تجاورنا وبُعد تزاورنا ما قال الأول :

ما أقرب الدار والجوار وما أبعد مع قُربنا تلاقينا

وكل غفلة منك محتملة ، وكل جفوة مغفورة ، للشغف بك والثقة بحُسن نيتك ، وسأخذ بقول أبي قيس :

ويُكرمها جارأتها ، فيزُرُنها وتعتلّ عن إتيانهنّ فتعتذر

وفي هذا المعنى كتب أحدهم إلى أخيه يستزيره : طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء ، وقد جعلك الله للسرور نظاماً ، وللأنس تماماً ، وجعل المشاهدَ موحشةً إذ خلّت منك .

ولعل الرجل يهوى لقاء من يحب ومن يستفيد منه ، ألم يقل بشار بن بُرد في هذا :

يسقط الطير حيث تلتقط الحَـبَّ وتُغشى منازل الكرماء

فالإنسان يأوي إلى من يرتاح له فائدةً مادية أو معنوية ، يقول الشاعر في هذا :

تثاقلتُ إلا عن يد أستفيدُها وزُورَة ذي ودّ أشدّ به أزري

وقال رجل لصديقه : قد تصدّيت لقائك غير مرّة ، فلم يُقضَ ذلك . فقال له الآخر : كل بر تأتيه فأنت تأتي عليه (تصله وتنال خيره) .

ولعل والودّ والتفاهم يزيد في الآصرة ويُقوي العلاقة خاصة إذا كان الرجلان متماثلين ، وقد أنشد الشاعر في هذا المعنى بيتين لطيفين فقال :

أزور محمداً ، وإذا التقينا تكلمتِ الضمائر في الصدور

فأرجع لم أَلَمُه ولم يَلْمني وقد رضي الضمير عن الضمير

لكنّ كثرة الزيارات وطول الزيارة يبعث الملل والقلى في النفوس وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " زُرْ غُيْباً تَزِدْ حُبّاً " . وقد وصف الأصمعي صاحباً له فقال : كان يكره الزيارة المُملّة ، والفعدة المُنسيّة . وقد أنشد شاعر :

إذا شئت أن تنقلى فزُر متتابعاً وإن شئت أن تزداد حباً فزُرْ غُيْباً

وأنشد آخر بيتين ممثلين حكمة وأدباً ، فقال :

أقلّل زيارتك الصديقَ يراك كالثوب استجده

إنّ الصديق يُمِلّه ألا يزال يراك عنده

وقد أخطأ الشاعر فلم يجزم جواب الشرط ، ولو وضع (يجذّك) بدل يراك لاستقام الوزن والمعنى .

إلا أن زيارة الكريم ولقائه شفاء وراحة ، ولقاء اللئيم مرض وسقام ، وهذا ما أحسن وصفه شاعر متمكن ذو علم بهذين النوعين المتناقضين من الناس :

ومالي وجهٌ في اللئام ولا يدّ ولكنّ وجهي في الكرام عريضٌ

أصحّ إذا لاقيتهم ، وكأنني إذا لاقيتُ اللئامَ مريضٌ

القناعة والعفة

ذكرت في بعض رمضانياتي أننا سنقضي بعض السويعات في رياض كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة الدينوري ، فتعال اليوم معي نتمتع بالنظر إلى هذه الروضة " العفة والقناعة " ونشم بعض ورودها العبقرة في هذا السفر الرائع مع شيء من التصرف ، فما أروع أن يستنشق المرء عبير الأدب والأخلاق عله يستفيد منه أدباً وجمالاً .

- فعن ثوبان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من يتقبل لي بواحدة أتقبل له الجنة " قال ثوبان أنا قال " لا تسأل الناس شيئاً " قال فإن كان سوطه يقع فما يقول لأحد ناولنيه حتى ينزل فيأخذه ، رواه ابن جرير الطبري . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الصفا الزلال الذي لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع " فإذا كان ديدن العالم الطمع فاقراً عليه الفاتحة.
- قال عمر رضي الله عنه : (ليس من عبد إلا بينه وبين رزقه حجاب ، فإن اقتصد أتاه رزقه ، وإن اقتحم هتك الحجاب ولم يُزد في رزقه) . أقول : ولقد تلمستُ هذا يقيناً فما عدوت ما قاله الفاروق عمر رضي الله عنه وحشرنا معه في زمرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم .
- قال أبو حازم المدني وقد سأل بعض الملوك : ما مأك؟ قال : الرضا عن الله ، والغنى عن الناس . وقد أخذ هذا المعنى أحد الشعراء ، فقال :

للناس مالٌ ولي مالان، ما لهما إذا تحارس أهل المال أحراسٌ
مالي الرضا بالذي أصبحت أملكه ومالي اليأس مما يملك الناس

وقال غيره :

وإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
إذا سدَّ بابٌ عنك من دون حاجة فنذرها لأخرى ليّن لك بابها

- وترى أبا حازم ينأى بنفسه عن مد يده للآخرين فنفسه عزيزة لا ترضى سماع ما يشين أو أن يجد رداً قاسياً :

أوجع من وخزة السنان لذي الحجا وخزة اللسان
 فاسترزق الله واستعنه فإنه خير مستعان
 وإن نأى منزل بحر فمن مكان إلى مكان
 لا يثبت الحر في مكان ينسب فيه إلى الهوان
 الحر حر وإن تعدت عليه يوماً يد الزمان

- بعض الرجال - ومن كان مع كتاب الله فهو الرجل - يقول : إن عامر بن عبد القيس العنبري كان يردد : أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا تلوتهن مساء لم أبال على ما أمسي ، وإذا تلوتهن صباحاً لم أبال على ما أصبح : ١- " ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده " ٢- " وإن يردك الله بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده " ٣- " وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها " ٤- " سيجعل الله بعد عسر يسراً "

- وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول الحكمة فيصيب بها كبد الحقيقة : " لا تجعل بينك وبين الله منعاً عليك ، وعدّ النعم عليك مغرمًا " وبعض الناس يعتبرون النعمة مغنماً وينسون أنهم محاسبون عليها ، ونسوا قوله تعالى " ثم لتسألن يومئذ عن النعيم " وقال الأصمعي : أبرع بيت قالته العرب بيت أبي ذؤيب الهذلي :

والنفس راغبة إذا رغبته وإذا تردّ إلى قليل تقنع

ولقد قيل : إن الإنسان يسأل فيمنع ، ثم يسأل فيمنع ، والصبر ينتظر ناحية ويقول : لو صرت إليّ لكفيتك .

وكان يُقال : أنت أخو العز ما التحفت القناعة ،

ويقال : اليأس حرّ ، والرجاء عبد .

- قال بعض المفسرين في قوله تعالى : " فلنُحْيِيَنَّه حياءً طيباً " بالقناعة . وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه : يا بني ؛ إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ، فإن لم تكن لك قناعة فليس يغنيك مالٌ . وقال عروة بن أذينة بيتين جمع فيهما الحكمة الرائعة :

ولقد علمتُ - وما الإسراف في طمع - أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له ، فيُعْثِنِي تَطْلُبُهُ..... ولو قعدتُ أتاني لا يُعْثِنِي

وقال أبو العتاهية في المعنى نفسه :

إن كان لا يُغْنِيكَ ما يكفيكَ فكل ما في الأرض لا يُغْنِيكَ

- وقد ذكروا أن أعرابية حجت على ناقة ، فقيل : أين زادك ؟ قالت : في ضرعها .

وقد لخص الشاعر النمر بن تولب الرجاء في الله في بيتين بليغين فقال :

ومتى تُصْبِكَ خصاصة فارجُ الغنى وإلى الذي يهب الرغائب فارغب

لا تغضبَنَّ على امرئ في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

وشكا رجل إلى قوم ضيقاً فقيل له : شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك .

- ومن روائع التصرف أن هشام بن عبد الملك قال لسالم بن عبد الله وقد دخلا الكعبة : سلني حاجتك . قال أكره أن أسأل في بيت الله غير الله .

ورأى سالم رجلاً يسأل الناس في موقف عرفة فقال له : أفي هذا الموقف تسأل غير الله ؟!

وقال سليمان بن عبد الملك للإمام أبي حازم : سلني حاجتك . قال : رفعتها إلى من

لا تُخَذِّل عنده الحوائج .

وبهذا يقول الشاعر :

لا تَصْرَعَنَّ لمخلوق على طمع فإن ذلك ضعف منك في الدين

واسترزق الله رزقاً من خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون

وقال ابن عباس : المساكين لا يعودون مريضاً ولا يشهدون جنازة ، وإذا سأل الناس

الله سألوا الناس .

وكان الحسن البصري يطرد من يسأل يوم الجمعة ، ولا يرى لهم جمعة.

ويقول محمود الوراق مرشداً ومسدداً :

فارغب إلى ملك الملوك ولا تكن ياذا الضراعة طالباً من طالب

- وكان بعض الكرام يعطي ويكره أن يسأله أحدهم مواجهة لأنه يضمن بسائله أن يقف أمامه موقف الذل ، فيقول له : اكتب حاجتك في رقعة ولا تُذِل وجهك أمامي . وهذا غاية الكرم وغاية الشهامة والكرامة .

وبذا المعنى تمثل معاوية في هذين البتتين :

وفتّى خلا من ماله ومن المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله فكفاك مكروه السؤال

- أما الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى فقصته مع الأمير سليمان بن حبيب بن المهلب تدل على إيمان راسخ وكرامة رفيعة ، فقد استدعاه الأمير إليه فأبى ، فكتب الخليل إليه :

أبلغ سليمان أنني عنه في سعة وفي غنى غير أنني لست ذا مال

شحاً بنفسي ، إنني لا أدرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال

فالرزق عن قدر لا الضعف يمنعه ولا يزيدك فيه حولٌ محتال

فغضب سليمان وقطع سليمان عنه الراتب ، فبلغ الخليل ما فعله سليمان فقال :

إن الذي شق فمي ضامن للرزق حتى يتوفاني

حرمتني مالا قليلاً فما زادك في مالك حرمانني

فبلغ هذان البيتان سليمان فحجل مما فعل وكتب إلى الخليل يعتذر إليه وأضعف الراتب .

- ونهني جولتنا في هذه الروضة بما قاله أحد الشعراء في عفته ونبذ الطمع :

حسبي بعلمي لو نفع ما الذل إلا في الطمع
من راقب الله نزع عن قبح ما كان صنع
ما طار شيء فارتفع إلا كما طار وقع

المعاتبة الإخوانية

- قد يخطئ الصديق مع صديقه ، فهل يصمره وينساه أو يعفو عنه ويصفح ويوجد له الاعذار أو يستعته فيعذر إليه تصرفه معه بعد ذلك ؟
- يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : " معاتبة الأخ خير من فقده ، ومن لك بأخيك كله؟ " ولن تجد أخاً كامل السمات وافي الأوصاف ، والصبر على الصديق مدعاة للاحتفاظ به .
- وقال أوس بن حارثة لولده ينصحه : العتاب قبل العقاب (لا بد من التثبت من حقيقة الصديق وتصرفاته قبل اتخاذ الموقف المناسب)
- وكتب رجل إلى صديقه : الحال بيننا تحتل الدالة ، وتوجب الأئس والثقة ، وتبسط اللسان بالاستزادة . (ولم يكن هذا القول من فراغ إنما من شعور بالود يكتنف الرجلين) .
- وقال إياس بن معاوية : خرجت في سفر ومعى رجل من الأعراب ، فلما كان ببعض المناهل لقيه ابن عم له ، فتعانقا وتعتبا ، وإلى جانبهما شيخ كبير من الحي . فقال لهما الشيخ : - يحذرهما من العتاب ويأمرهما بنسيانه - أنعما عيشاً ، إن المعاتبة تبعث التجني ، والتجني يبعث المخاصمة ، والمخاصمة تبعث العداوة ، ولا خير في شيء ثمرته العداوة .
- فقلت للشيخ : من أنت؟ قال : أنا بن تجربة الدهر ومن بلا تلؤنه .
- قلت للشيخ : ما أفادك الدهر ؟ قال : العلم به .
- قلت له : فماذا رأيت أحمد ؟ قال : أن يُبقي المرءُ أحوثةً بعده .
- قلت : فلم أبرح ذلك الماء (المكان) حتى هلك الشيخ وصليت عليه .
- وكتب رجل إلى صديقه يعاتبه : ما أشكوك إلا إليك ، ولا أستبطئك إلا لك ، ولا أستزيدك إلا بك ، فأنا منتظر واحدة من اثنتين : عتبي تكون منك ، أو عقيب الغنى عنك . . (وبهذا لم يظلمه إنما وضع نقاط صحبتها على المحك ، فإما دوائها وإما الاستغناء عنها) .
- وفي هذا المعنى قال ابن أبي فتن :
- إذا كنت تغضب من غير ذنب وتعتب من غير جرم عليا

طلبت رضاك ، فإن عَرَنِي عَدَدْتُكَ مِيتاً وَإِنْ كُنْتَ حَيّاً
قَنِعْتُ وَإِنْ كُنْتُ ذَا حَاجَةٍ فأصْبَحْتُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ شَيْئاً
فَلَا تَعْجَبَنَّ بِمَا فِي يَدَيْكَ فأكْثَرُ مِنْهُ الَّذِي فِي يَدَيَّ
(إن استعلى عليك من ظننته صاحباً ، فأهمله وكأنه لم يكن موجوداً أصلاً) .

وهذا آخر يبسط المعنى نفسه بأسلوب أشدّ مضاع من السابق :

" قد حميتُ جانبَ الأملِ فيكَ ، وقطعتُ الرجاءَ لك ، وقد أسلمني اليأسُ منك إلى العزاءِ عنكَ ن فإن نَزَعْتَ من الآن ، فصَفَحْ لا تثريبَ فيه ، وإن تماديتَ فهَجَرٌ لا وصلَ بعده .

(ولعلّي لست من هذين الرجلين فلقد رأيتهُ أنسى أعزّ من ظننته صديقاً حين تناساني ، ولم أعاتبه ، فلا يستحق ذلك العتاب) .

- وعاتب رجل صديقاً له عامله بغير ما يجب من الحب والودّ فقال:

عَدَلْتُ مِنَ الرَّحَابِ إِلَى الْمَضِيقِ وَزَرْتُ الْبَيْتَ مِنْ غَيْرِ الطَّرِيقِ
تَجُودُ بِفَضْلِ عَدْلِكَ لِلْأَقَاصِي وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْخِلِّ الشَّفِيقِ
لَقَدْ أَطْلَقْتُ لِي تُهْمًا أَرَاهَا سَتَحْمَلُنِي عَلَى مَضَضِ الْعُقُوقِ

- ويؤكد هذا قول الشاعر في المعنى ذاته :

ولا خير في قُرْبِي لغيرِكَ نَفْعُهَا ولا في صديق لا تزال تعاتبه

(ولماذا يُسمّى صديقاً من يبيعك ويتناساك وربما يفضلُ غيرك عليك أو يعتمدُ بعد الصداقة

تفاديك ؟) .

- وتقول العرب لمن عوتب فلم يُعْتَبْ " (استُرْضِي فلم يَرْضَ) .. تقول : " لك العُتْبَى بأن لا رضيتَ (وهذا على وجه الدعاء بأن لا رضيت أبداً) .

- وعاتب رجلٌ أخاً له تبين له بعد التجربة أنه لا يستحق الصداقة وأنه أخطأ في اختياره صديقاً له :

تَأْنِينَا إِفَاقَتَكَ مِنْ سُكْرِ غَفْلَتِكَ ، وَتَرْقُبُنَا انْتِبَاهَكَ مِنْ وَسَنِ رَقْدَتِكَ ، وَصَبْرُنَا عَلَى تَجَرَّعِ الْغَلْظِ
فِيكَ حَتَّى بَانَ لَنَا الْيَأْسُ مِنْ خَيْرِكَ ، وَكُشِفَ لَنَا الصَّبْرُ عَنْ وَجْهِ الْغَلْظِ فِيكَ ، فَهَا نَحْنُ قَدْ
عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ ، فِي تَعْدِيكَ لَطْوِيلِ حَقٍّ مِّنْ غَلْطِ فِي اخْتِيَارِكَ .

أنت والصديق

- في الجامع الصغير عن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " للمسلم على المسلم ستّ بالمعروف : يُسَلِّم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويُسَمِّتُهُ إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويَحْضُرُ جنازته إذا مات ، ويحب له ما يُحب لنفسه . " خصال رائعة جمعت مقومات الحب والود في المجتمع الإسلامي بكلمات نبوية بليغة .
 - ومن الكتاب الأدبيّ القيمّ " عيون الأخبار " - ولك أيها القارئ أن تراجع مصدر الأحاديث وتطلّع على صحتها سنداً وامتناً ، فنحن نقتبس من كتاب أدبي ليس غير ، وسوف أنأى عن الموضوعات منها بإذن الله تعالى - أن عائشة رضي الله عنها روت عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أَعِن أَخَاكَ ظالماً أو مظلوماً ، إن كان مظلوماً فخذ له بحقه ، وإن كان ظالماً فخذ له من نفسه " .
 - وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه " إذا آخَيْتَ أَخاً فلا تُمارِه (لا تجادله) ولا تُشَارِه (لا تغاضبه) ، ولا تسأل عنه (لا تسأل عن أخلاقه أحداً ممن لا تثق به) فعسى أن توافق عدواً فيخبرك بما ليس فيه ، فيفرّق بينكما " . أقول : إن كثرة الجدل والمغاضبة تفسد الود وتفرّق الأحاب ، وإدخال الغريب ذي الأغراض بين الخلان يشتت شملهم .
- وقد قال النمر بن تولب في هذا المعنى :

جزى الله عنا حمزة بن نوفل جزاء مُغِلٍّ بالأمانة كاذبٍ

بما سألت عني الوشاة ليكذبوا عليّ وقد واليئها في النوائب

والإغلال : الخيانة . ولا ينبغي خيانة من استشارك .

- وقال ابن المقفع : ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامّة بشرّك وتحيّتك ، ولعدوك عدلك ، ، وضنّ بدينك وعرضك عن كلّ أحد . .. إنها والله حكمة بالغة ، ونصيحة غالية من عميد الأدب ابن المقفع .

وكان يُقال : يُستحسن الصبر عن كلّ أحد إلا الصديق . .. وقال بعض الشعراء :

إذا ضيّقتَ أمراً ضاق جداً وإن هونتَ ما قد عزّ هانا

سأصبر عن صديقي إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا

وأنشد أعرابي :

أغمّض للصديق عن المساوي مخافة أن أعيش بلا صديق
فلا بد للحفاظ على الصديق من التغاضي عن بعض أخطائه ، ألم يقل الشاعر ابن بُرد :
فَعِشْ واحداً أو صلّ أخاك فإنه مقارن ذنب تارة ومجانِبُه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟!
وأنشد شاعر في المعنى نفسه :

إذا ما صديقي رابني سوء فعله ولم يك عما ساءني بمُفِيق
صبرتُ على أشياء منه تُريبنِي مخافة أن أبقى بغير صديق
وكان يُقال : مَنْ لك بأخيك كلّهُ ؟ والمعنى أن الصديق بشر يصيب ويخطئ ولن تجد
صديقاً مبرّاً من العيوب .

وأنشد الرياشي في المعنى نفسه :
أقبل أخاك ببعضه قد يُقبل المعروف نزرّاً
واقبل أخاك فإنه إن ساء عصراً سرّ عصراً
- قيل لخالد بن صفوان : أيّ إخوانك أحب إليك ؟ قال : الذي يغفر زلّي ، ويُقبل عِلّي ،
ويسدّ خلّي .

- وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجوز ، فقال : " إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حُسنَ
العهد من الإيمان " فعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفظ عهد من نحبهم ولو طال العهد
عليهم ، فهذا من المروءة والإيمان . وقال إبراهيم النخعي : إن المعرفة لتتفع عند الأسد الهصور
والكلب العقور ، فكيف عند الحسيب الكريم .

- لكنّ بعض الناس يُخطئون التصرف حين يسعون للاحتفاظ بصديق لا يستحق الصداقة ،
فيسعى بهم - شأن الشيطان الرجيم- إلى الخطأ نفسه ، فيزلون ، ولا خير في صديق
يقود إلى النار ، والعار والشنار .

هذا الشاعر عمر بن أبي ربيعة ينشد في مساعدة صديقه فيقول :

وخلّ كنتُ عينَ النصح منه إذا نظرتُ ومستمعاً سميعاً
أطافَ بغيّةٍ فنهيتُ عنها وقلتُ له أرى أمراً شنيعاً
أردتُ رشاده جهدي فلما أبى وعصى أتيناها جميعاً
ففعل ما فعل اليهود حين نهوا المخطئين العاصين ثم أكلوهم وشاربوهم ، فباءوا بالعقوبة
جميعاً .

وهذا شاعر غاوٍ يصرح بما صرّح به ابن أبي ربيعة دون خوف من الحق ولا وجل :

فإن يشرب أبو فروخ أشرب وإن كانت مُعْتَقَةً عنقاراً

وإن يأكل أبو فروخ آكل وإن كانت خنانيصاً صغاراً

والخنانيص صغار الخنازير ، يُغضب ربه ليُرْضي صديقه ، ولعله نسي أو تناسى قوله تعالى " ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً ؟؟ " ... والشعراء يتبعهم الغاؤون فأكثرهم يهيم في متاهات الضلال كما ذكرت آية الشعراء ، إلا من رحم الله تعالى. عصمنا الله من الزلل ، ووقانا من الخطل ، ورزقنا خير العمل ، وحسن خاتمة الأجل .

إيت القوم الظالمين

عدت قبل قليل من صلاة العشاء والتراويح ليوم الجمعة الرابع عشر من رمضان ١٤٣٠ وقد قرأ الإمام من أول سورة الشعراء ، فكان من أهم ما طرق سمعي وملاً قلبي وعقلي - والقرآن كله نور وضياء - قوله تعالى في الآيتين العاشرة وأختها من سورة الشعراء :

" وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، قَوْمٌ فَرَعَوْنَ ۖ أَلَا يَتَّقُونَ " إن في هاتين الآيتين الكريمتين بعض الأمور التربوية والدعوية ، أذكر من أهمها :

١- أن القرآن من عند الله تعالى ، وهو - سبحانه - يخبر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بما جرى مع النبيين قبله ومنهم موسى عليه السلام ، وما الظرف الدال على الزمن الماضي " إذ " إلا تنبيهاً ودعوة للإنصات والتفكير والتدبر ، والله تعالى يهون على نبيه الكريم ما يلقي من العنت والصد من قومه حين ينبئه أنه ليس بدعاً من الأنبياء والرسل الذين كذبتهم أقوامهم ، وصبروا ، فليصبر كما صبر أولو العزم منهم .

٢- ونسمع بأذن القلب والضمير نداء الله تعالى لنبيه الكريم موسى يكلفه بالتصدي للظلمة القساة الذين استعبدوا العباد ، وأكثروا في الأرض الفساد ، ولا شك أن الدعاة هم الصفوة المختارة التي أكرمها الله تعالى إذ اختارها لنشر النور والهدى في البشرية وقيادتها إلى السبيل القويم والصراط المستقيم . ومن كانت الهداية مهمته فهو أول الهداة وأسوة الإنسانية وما أعظمها من مكانة ، وما أكرمها من حظوة عند خالقها .

٣- إن كلمة " ربك " تدل على أن الذي أرسل موسى إلى فرعون ونصره هو من كلف الحبيب المصطفى بهداية الناس ، وسييسر له الدعوة وينصره على من خالفه ، ولسوف تعلو كلمة الله على يديه كما علت على يدي سلفه موسى عليه الصلاة والسلام . فالرب واحد والدعوة واحدة : لإله إلا الله ولا معبود سواه ، رضي من رضي وكره من كره .

٤- من سمات الداعية المؤمن الجرأة والشجاعة ، فهو جريء بما يحمل من اعتقاد قوي وإيمان ثابت ، وشجاع لأنه على الحق ومن كان على الحق فلا يخاف أهل الباطل مهما كثروا وكانت إمكاناتهم المادية فالله تعالى معه ، ومن كان الله معه رجحت كفته وانتصر إما بإحقاق الحق وإما بنيل الشهادة ، فالنصر

الحقيقي أن يرضى الله تعالى عنا ويكرمنا بالنجاة من النار والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

٥- يقول الله تعالى : " أن انت القوم الظالمين " وفعل " ايت " يعني الاختلاط والدعوة ، ولا تنجح الدعوة مهما كانت صافية قوية وصاحبها يطل على الناس من برجه العاجي ، ويتحاشى الاختلاط بهم على زعم " التمايز " عن القوم ، إن التمايز بالاعتقاد والالتزام بما تؤمن به فتعيش بين الناس جسماً وعقلاً وتتمايز عنهم روحاً وعملاً ، إنك حين تدعو القوم لا بد أن تعايشهم وتتحمس لهم ، وتتعرف رغباتهم ، وتلمس معاناتهم ، لتكون أقدر على معالجتهم من أوصابهم ، وأعلم بحالهم ، فتعرف من أين تأتيهم وتدخل قلوبهم ، أما أن تنفصل عنهم وتنقطع ، فقد جهلتهم وأخطأت السبيل القويم لدعوتهم فكان هذا مقدمة الفشل في الوصول إلى الغاية .

٦- ولم يقل الله تعالى إنت فرعون وملأه الظلمة ، إنما قدم صفتهم التي كرهها الله منهم واكتوى الناس بنارها ، إنها صفة الظلم ، فقدمها الله عز وجل ليُعرفوا بها ، وليُعرف السبب الذي بعث لأجله ذلك النبي الكريم موسى إليهم " إنت القوم الظالمين " إن الله تعالى لا يحب الظلم وأهله ، ونفى عن ذاته الجليلة هذه الصفة الكريهة المذمومة وأمر الناس أن يجتنبوا " فعن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال " يا عبادي ! إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً . فلا تظالموا . " وأشار تعالى إلى الظالمين حين قال بعد ذكر صفة الظلم " قوم فرعون " ، وما أصدق قول الشاعر إذ يقول :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم يرجع عقباه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين " .

٧- ولا يكون الابتعاد عن الظلم إلا بالعدل ولا يكون العدل إلا بالتقوى ولهذا كانت دعوة موسى عليه السلام لفرعون وملئه أن اتقوا الله " أَلَا يَتَّقُونَ " إن السلام والأمان في الدنيا يتحققان بالتقوى ، كما أن رضا الله والفوز بالجنة طريقهما التقوى ، والقرآن يفيض بالآيات الداعية إلى التقوى ، الباسطة ثمارها ومغانمها .. جعلنا الله من أهلها

" إيتوني به أستخلصه لنفسي "

- رأى الملك رؤيا عجيبة ، سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان ، وسبع سنبلات يابسات يأكلن سبع سنبلات خضر، فسأل أولى العلم عن تأويل ما رأى فاعتذروا قائلين " أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين " وما ينبغي لمن لا يدري أمراً أن يدلي بدلوه فيه . فكانوا صادقين فيما أجابوا ، وهذا دأب المستشار الأمين ، يقول ما يعرف ويسكت عما يجهل ، وكثيراً ما كان مالك بن أنس رحمه الله تعالى عالم المدينة يجيب عن سؤال أحدهم : لا أدري ، ويعقب قائلاً : نصف العلم لا أدري .
- وهنا يتذكر ساقى الملك الذي كان أحد اللذين استفتيا يوسف عليه السلام في السجن لحلم رآه أن يوسف قال له " اذكرني عند ربك " - الملك - فنسي الأمر سبع سنوات ، ثم تذكر الصديق يوسف ، فأخبر الملك بقصته وأنه يستطيع أن يفسر الرؤيا فأرسله الملك إلى يوسف عليه السلام يستفتيه في ذلك ، فيجيبه يوسف عليه السلام : إن سبع السنوات القادمة فيهنّ خير كثير ينبغي أن يُحتفظ بجُلّ خيرهنّ لسبع سنوات تليهنّ شديداً يأكلن الأخضر واليابس ، ثم يعود الخير في السنة الخامسة عشرة . وهنا يودّ الملك أن يتعرّف على المفسّر القابع في السجن ليجعله من بعض خدمه كما فعل بالساقى نفسه ، فقال " إيتوني به "
- فهل اغتتم الصديق يوسف عليه السلام هذه الدعوة ليخرج من السجن بعفو ناقص لا يعطيه حقه ولا يبرئه من الظلم الذي وقع عليه ؟ وليظلم في أعين الناس رجلاً حاول ان يعتدي على شرف من آواه في بيته وعامله معاملة الابن ؟! إنه إن فعل ذلك فقد أثبت التهمة عليه مدى الحياة ، ولن يستطيع بعد ذلك أن يقوم بواجب الدعوة بين أناس ينظرون إليه بريئة وشك ، وكيف يصدقونه فيما يدعوهم إليه وهو متهم بأخلاقه مشكوك بصدقه ؟! فلن يخرج من السجن إلا بريئاً يمشي بين الناس مرفوع الرأس طاهر الثوب يعلم الجميع أنه ظلم تلك السنوات الطويلة وأنه كان مثال الأخلاق الكريمة والسيرة العطرة ، فقال للساقى " ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ، إن ربي بكيدهنّ عليم " وحين تعترف النساء بنصاعة أخلاقه وكرامته شمانله ستضطّر امرأة العزيز - وقد رأت نفسها وحيدة - أن تقر بذنبها وتعترف بجريرتها ، فدعا الملك النسوة مشدداً عليهنّ أن يقلن الحقيقة " ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه " ولعل سائلاً يسأل : لماذا صدّق الملك دعوى يوسف بالبراءة - وهو لم يره بعدُ - فتنبّى موقفه واتهم النساء بمراودة يوسف ؟ والجواب : ما من رجل يرفض عفو الملك ويأبى الخروج من السجن دون تحقيق إلا إذا كان بريئاً من التهمة التي رُمي بها ، وكان صادقاً فيما يدّعيه ومطمئناً إلى قوّة موقفه .

- حين رأت النساء أن الملك يخاطبهنّ كمن يعرف الحقيقة أقررن بها ونفین التهمة عن يوسف عليه السلام " حاشا لله ، ما علمنا عليه من سوء " ، وهنا لم يكن لامرأة العزيز بد من أن تعترف بالحقيقة ، وتبرئ المتّهم المظلوم ، وتقرّ أنها المذنبة التي راودته عن نفسه " الآن حصص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين " فلما تناهى اعترافها إلى الصديق يوسف وهو لما يزل في سجنه قال بلهجة الواصل من نفسه " ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ، وإن الله لا يهدي كيد الخائنين " فيوسف عليه السلام الذي رباه الله تعالى على عینه لا يخون من رعه في بيته وأمنه على عرضه وشرفه .
- ويكبر يوسف عليه السلام بعين الملك ، فيقول " إيتوني به أستخلصه لنفسي " . لقد قال في المرة الأولى : " إيتوني به " ، فلما عرف قدر يوسف وعظم شأنه في نفسه زاد في قوله " أستخلصه لنفسي " لقد كان يريده واحداً من ضمن خدمه في المرة الأولى ، وأراده في المرة الثانية مستشاراً أميناً يعتمد عليه في كبار الأمور وجليلها ، وقربه إليه ، وقال له حين التقاه وكلمه فرأى فيه النباهة والصدق " إنك اليوم لدينا مكين أمين " إنه ذو مكانة لا تضاهيها مكانة ، مكين لأنه كريم الشمانل أمين .
- إن من أراد أن يعلو بقدره بين الناس مسموع الكلمة عظيم المكانة فليكن صادقاً مع نفسه ، حافظاً للأمانة لطيف المعشر ، متحبباً إلى الناس ... صلى الله على يوسف الكريم ابن الكريم يعقوب ابن الكريم إسحاق ابن الكريم إبراهيم . وعلى الحبيب المصطفى محمد وعلى الأنبياء جميعاً .

بعض ما قيل في الحاكم والسلطان من عيون الأخبار

- نحن الآن في روضة من رياض كتاب " عيون الأخبار " عنوانها " كتاب السلطان " نرى فيها حكم القدماء وتجاربهم في التعامل بين السلطان والرعية ، نتأمل العلاقة بين طرفي الحياة الإنسانية – الحاكم والمحكوم -

- قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى : قرأت في اليتيمة – يتيمة الدهر للثعالبي -
"مثلٌ قليلٌ مضارّ السلطان في جنب منفعه

١- مثلُ الغيث الذي هو سقيا الله وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها، وقد يتأذى به السفَر ويتداعى له البنيان وتكون فيه الصواعق وتدّر سيوله فيهلك الناس والدواب وتموج له البحار فتشتدّ البلية منه على أهله فلا يمنع الناس، إذا نظروا إلى آثار رحمة الله في الأرض التي أحيا ، والنبات الذي أخرج ، والرزق الذي بسط والرحمة التي نشر، أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها ويُلغوا ذكر خواصّ البلايا التي دخلت على خواصّ الخلق. (وأقول : قد تكون النعم التي يعيش بها الكثير ويتلذذون بها أدى عند بعضهم الآخر فليس في حياة البشر خير محض للجميع ، فما تراه إيجابياً هنا تجده غير ذلك هناك).

٢- ومثل الرياح التي يرسلها الله نشرًا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحاً للثمرات و أرواحاً للعباد ينتسمون منها ويتقلبون فيهم، وتجري بها مياههم، وتتقد بها نيرانهم وتسير بهم أفلاكهم. وقد تضرّ بكثير من الناس في برّهم وبحرهم ويخلص ذلك إلى أنفسهم وأموالهم فيشكوها منهم الشاكون ويتأذى بها المتأذون ولا يزيلها ذلك عن منزلتها التي جعلها الله بها وأمرها الذي سخرها له من قوام عبادته وتمام نعمته.

٣- ومثل الشتاء والصيف اللذين جعل الله حرّهما وبردهما صلاحاً للحرث والنسل ونتاجاً للحب والثمر، يجمعها البرد بإذن الله ويحملها ويخرجها الحرّ بإذن الله وينضجها مع سائر ما يعرف من منافعها، وقد يكون الأذى والضرّ في حرّهما وبردهما وسمائهما (جمع سموم وهي الريح الحارّة) وزمهيرهما وهما مع ذلك لا ينسبان إلا إلى الخير والصلاح.

٤- ومن ذلك الليل الذي جعله الله سكناً ولباساً وقد يستوحش له أخو الفقر، وينازع فيه ذو البلية والزبنة وتعدو فيه السباع وتنساب فيه الهوام ويغتتمه أهل السرقة والسلة (المتسللون)، ولا يزري صغير ضرره بكثير نفعه، ولا يلحق به ذماً ولا يضع عن الناس الحق في الشكر الله على ما من به عليهم منه.

٥- ومثل النهار الذي جعله الله ضياءً ونشوراً وقد يكون على الناس أذى الحر في قيظهم، وتصبحهم فيه الحروب والغارات ويكون فيه النصب والشخوص (القلق والهم) وكثير مما يشكوه الناس ويستريحون فيه إلى الليل وسكونه. ولو أن الدنيا كان شيء من سرائهم يعم عامة أهلهم بغير ضرر على بعضهم وكانت نعمائهم بغير كدر وميسورها من غير معسور كانت الدنيا إذاً هي الجنة التي لا يشوب مسرتها مكروه ولا فرحها ترح والتى ليس فيهم نصب ولا لغوب، (كل جسيم من أمر الدنيا يكون ضرره خاصة فهو نعمة عامة، وكل شيء منه يكون نفعه خاصاً فهو بلاء عام) "

- وكان يقال: "السلطان والدين أخوان لا يقوم أحدهما إلا بالآخر".

- قال ابن قتيبة: وقرأت في التاج لبعض الملوك: "هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار وألباب الملوك مشغولة بكل شيء يجل، وألباب السواق مشغولة بأيسر الشيء، فالجاهل منهم يعذر نفسه بدعة ما هو عليه من الرسالة (الرخاء) ولا يعذر سلطانه مع شدة ما هو فيه من المؤونة، ومن هناك يعزر الله سلطانه ويرشده وينصره". أقول: رحم الله ابن قتيبة، كان يحسن الظن بالسلطين والملوك، ولو علم ما نحن فيه من بلاء الحكام وجورهم على شعوبهم، وخنوعهم للعدو وسفاهة الغالب منهم، وإماعتهم، وبعدهم عن الحق لما قال ما قال.

- سمع زياد ابن أبيه رجلاً يسب الزمان فقال: "لو كان يدري ما الزمان لعاقبته، إنما الزمان هو السلطان. وكانت الحكماء تقول: "عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان"

- وروى الهيثم عن ابن عياش عن الشعبي قال: "أقبل معاوية ذات يوم على بني هاشم فقال: يا بني هاشم، ألا تحدثوني عن ادعائكم الخلافة دون قريش بم تكون لكم، أبالرضا بكم أم بالاجتماع عليكم دون القرابة؟ أم بالقرابة دون الجماعة أم بهما جميعاً؟ فإن كان هذا الأمر بالرضا والجماعة دون القرابة فلا أرى القرابة أثبتت حقاً ولا أسست ملكاً، وإن كان بالقرابة دون الجماعة والرضا فما منع العباس عم النبي ووارثه وساقى الحجيج وضامن الأيتام أن يطلبها وقد ضمن له أبو سفيان بني عبد مناف؟ وإن كانت الخلافة بالرضا والجماعة والقرابة جميعاً فإن القرابة خصلة من خصال الإمامة لا تكون الإمامة بها وحدها وأنتم تدعونها بهم وحدها، ولكننا نقول: أحق قريش بهم من بسط الناس أيديهم إليه بالبيعة عليهم ونقلوا أقدامهم إليه الرغبة وطارت إليه أهواؤهم للثقة وقاتل عنها بحقها فأدركها من وجههم. إن أمركم لأمر تضيق به الصدور، إذا سنلتم عمن اجتمع عليه من غيركم قلتم حق. فإن كانوا اجتمعوا على حق فقد أخرجكم الحق من دعواكم. انظروا: فإن كان القوم أخذوا حقكم فاطلبوهم، وإن كانوا أخذوا حقهم فسلموا إليهم، فإنه لا ينفعكم أن تروا لأنفسكم ما لا يراه الناس لكم. فقال ابن عباس: ندعي هذا الأمر بحق من لولا حقه لم تقعد مقعدك هذا، ونقول كان ترك الناس أن يرضوا بنا ويجتمعوا علينا حقاً ضيعوه وحظاً حرموه، وقد اجتمعوا على ذي فضل لم يخطيء الورد والصدر، ولا ينقص فضل ذي فضل غيره عليه. قال الله عز وجل: "ويؤت كل ذي فضل فضله"، فأما الذي منعنا من طلب هذا الأمر بعد رسول الله فعهد منه إلينا قبلنا فيه قوله ودنا بتأويله، ولو أمرنا أن نأخذ على الوجه الذي نهم نا عنه لأخذناه أو أعذرنا فيه، ولا يعاب أحد على ترك حقه إنما المعيب من يطلب ما ليس له، وكل صواب نافع

، وليس كل خطأ ضاراً، انتهت القضية إلى داود وسليمان فلم يُفَهِّمَهَا داود وفُهِمَهَا سليمان ولم يضرَّ داود. فأما القرابة فقد نفعت المشرك وهي للمؤمن أنفع، قال رسول الله: "أنت عمي وصنو أبي ومن أبغض العباس فقد أبغضني، وهجرتك آخر الهجرة كما أن نبوتي آخر النبوة وقال لأبي طالب عند موته: "يا عم قل لا إله إلا الله أشفع لك بها غداً ، وليس ذاك لأحد من الناس. (والمقصود بذلك أنه حضره الموت وهو في الغرغرة) قال الله تعالى: "وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً".

- وقال كسرى لشيخ جالس عنده : "لا تنزل ببلد ليس فيه خمسة أشياء: سلطان قاهر، وقاض عادل، وسوق قائمة، وطبيب عالم، ونهر جارٍ". أقول : كان قول كسرى حكمة ، فما من مكان وجد فيه هذه الأمور الخمسة إلا كان ممرعاً وكانت الحياة فيه هنية للعامة

- وسأل أبو هريرة رضي الله عنه العجاج : ممن أنت؟ قال: قلت من أهل العراق. قال: يوشك أن يأتيك بقعان الشام (خدمهم وعبيدهم) ، فيأخذوا صدقتك فإذا أتوك فتلقهم بها ، فإذا دخلوها فكن في أقاصيهم وخلّ عنهم وعنهما. وإياك أن تسبهم ، فإنك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك ، وإن صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة"، وفي رواية أخرى أنه قال: "إذا أتاك المصدق (من يجمع الضرائب) فقل: خذ الحق ودع الباطل، فإن أبي فلا تمنعه إذا أقبل ، ولا تلغنه إذا أدبر فتكون عاصياً خفّ عن ظالم".

- وكان يقال: "طاعة السلطان على أربعة أوجه: على الرغبة، والرغبة، والمحبة، والديانة".

- وقال ابن قتيبة : وقرأت في بعض كتب العجم كتباً لأردشير بن بابك إلى الرعية: "من أردشير الموبذ ذي البهاء ملك الملوك ووارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين، والأساورة الذين هم حفظة البيضة، والكتّاب الذين هم زينة المملكة، وذوي الحرث الذين هم عمرة البلاد. السلام عليكم، فإننا بحمد الله صالحون وقد وضعنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا إتواتها الموظفة عليهم. ونحن مع ذلك كاتبون إليكم بوصية: لا تستشعروا الحقد فيدهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشمكم القحط، وتزوجوا في القرابين فإنه أسن للرحم وأثبت للنسب، ولا تعدوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تبقى على أحد ولا ترفضوها مع ذلك فإن الآخرة لا تنال إلا بها". أقول : هذا دليل افهم والحكمة والتجربة، إلا أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد نصح بالزواج من أباعد النساء كي يُحافظ على النسل ، فلا يضوى ، وقد أثبت العلم الطبي صحة ما ذكره الفاروق رضي الله عنه .

- وكتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر كتاباً يقول فيه : "أملك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها، فإن طلبك ذلك منهم باحسانك هو أدوم بقاء منه باعتسافك، واعلم أنك إنما تملك الأبدان فتخطهم إلى القلوب بالمعروف، واعلم أن الرعية إذا قدرت على أن تقول، قدرت على أن تفعل، فاجهد ألا تقول تسلم من أن تفعل".

- وقال بعض ملوك العجم في خطبة له: "إني إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الاعمال لا عن السرائر". ونحوه قول العجم: "أسوسُ الملوك من قاد أبدان الرعية إلى طاعته بقلوبها". وقالوا: " لا ينبغي للوالي أن يرغب في الكرامة التي ينالها من العامة كرهاً ولكن في التي يستحقها بحسن الأثر وصواب الرأي والتدبير".

- وكان أنوشروان إذا ولى رجلاً أمرَ الكاتب أن يدع في العهد موضع أربعة أسطر ليوّقع فيه بخطه فإذا أتى بالعهد وُقِعَ فيه: " سُسْ خيار الناس بالمحبة ، وامزج للعامة الرغبة بالرهبة ، وسُسْ سفلة الناس بالإخافة".

- قال المدائني: " قدم قادم على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية: هل من مُغَرِّبَةٍ خبر؟ قال: نعم، نزلت بماء من مياه الأعراب فبينما أنا عليه إذ أورد أعرابي إبله ، فلما شربتُ ضرب على جنوبها وقال عليك زياداً. فقلت له: ما أردت بهذا؟ قال: هي سدى، ما قام لي بها راع مذ ولي زياد. فسر ذلك معاوية وكتب به إلى زياد". أقول :ولقد قال الأقدمون : إن العدل أساس الملك ، وهذا كان شأن زياد فقد جمع بين اللين والشدّة والعدل فارتاح الناس .
- قال عبد الملك بن مروان: "أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كلاً على كل".
- وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: "إن هذا الأمر (سياسة الأمة) لا يصلح له إلا اللّين في غير ضعف والقوي في غير عنف".
- وقال عمر بن عبد العزيز: "إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل فأخاف أن لا تحتمله قلوبهم فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن فرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا".
- قال معاوية: "لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف ذاك؟ قال: كنت إذا مدّوها خلّيتها وإذا خلّوها مددتها". هكذا ينبغي أن يكون الحكام ، وقد غابت عن الكثير منهم فكانوا كالذئاب فظاظه ، وكالثعالب مراوغة .
- ونحو هذا قول الشّعبى فيه: "كان معاوية كالجمال الطّب، إذا سكّنت عنه تقدّم وإذا ردّ تأخّر) والجمال الطّب الحاذق بالمشي وهو الذي لا يضع قوائمه إلا حيث يُبصر (وقول عمر فيه: "احذروا آدم قریش وابن كريمها ، من لا ينام إلا على الرضا ويضحك في الغضب ، ويأخذ ما فوقه من تحته". وأغلظ له رجل فحلم عنه ، فقليل له: أتحمّل عن هذا؟ فقال: "إني لا أحول بين الناس وبين أسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا".
- كان يقال: "لا سلطان إلا برجال ولا رجال إلا بمال ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل وحسن سياسة".
- قال زياد: "أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لا تزالون سمناً ما سمّنوا".
- وكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يأمره أن يكتب إليه بسيرته ، فكتب إليه: "إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدّيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرّب الحازم في أمره، وقلّدت الخراج الموفّر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً يعطيه حظاً من نظري ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى النّطف (المريب) المسيء ، والثواب إلى المحسن البريء فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب".
- وكان يقول لأهل الشام: "إنما أنا لكم كالظّليم الرائح عن فراخه: ينفي عنها القذر ويباعد عنها الحجر، ويكنّها من المطر ، ويحميها من الضّباب ، ويحرسها من الذّئاب. يا أهل الشام نحن الجنة والرداء ، وأنتم العدة والجذء".
- فخر سلّيم مولى زياد بزياد عند معاوية فقال معاوية: "اسكت ما أدرك صاحبك شيئاً قطّ بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني".
- وسأل الوليد أباه عبد الملك : يا أبت ما السياسة؟ قال: "هيبة الخاصّة مع صدق مودّتها ، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصّنائع".
- وفي كتب العجم: "قلوب الرعية خزائن ملوكهم فما أودعتهم من شيء فلتعلم أنه فيها".

- ووصف بعض الملوك سياسته فقال: "لم أهزل في وعد ولا وعيد ، ولا أمر ولا نهى ، ولا عاقبت للغضب واستكفيت على الجزاء ، وأثبتت على العناء لا الهوى ، وأودعت القلوب هيبه لم يشبها مقت ، ووداً لم تشبه جرأة ، وعممت بالقوت ومنعت الفضول".

- قال أبرويز لابنه شيرويه وهو في حبسه: "لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيقن عليهم فيضجوا منك، أعطهم عطاء قصداً ن وامنهم منعاً جميلاً ، ووسع عليهم في الرجاء ، ولا توسع عليهم في العطاء".

- ونحوه قول المنصور في مجلسه لقواده: صدق الأعرابي حيث يقول: أجمع كلبك يتبعك. فقام أبو العباس الطوسي فقال: يا أمير المؤمنين أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك.

- وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: "أما بعد، فإن للناس نفرة عن سلطانهم فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمية مجهولة وضغائن محمولة، أقم الحدود ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله، والآخر للدينا فأتّر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى، وأخيفوا الفساق وأجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وياشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً، وقد بلغني أنه قد فشا لك ولأهل بيتك هبة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلهم ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواحد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن ، وإنما حثفها في السمن، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من شقي الناس به، والسلام". فلو كان حكام الأمة كما قال الفاروق عمر لكنا خير الناس ، ولكن صار الحكم مغماً وتركه مغماً

- كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر بن الخطاب في أن يلين لهم ، فإنه قد أخافهم حتى إنه قد أخاف الأبقار في خدورهم. فقال عمر: إني لا أجد لهم إلا ذلك، إنهم لو يعلمون ما لهم عندي (من الحب والرحمة) لأخذوا ثوبي من عاتقي".

- قال: وتقدمت إليه امرأة فقالت: "يا أبا عمر حفص، الله لك. فقال: ما لك أعقرت؟ أي دهشت، فقالت: صلت فرقتك. وهي تريد (فرقت صلتك) تريد أنها نظرت إليه فخافته قال أشجع السلمي يذكر رأيه في صفة السلطان :

لا يصلح السلطان إلا شدة تغشى البرء بفضل ذنب المجرم

ومن الولاة مُقَحَّم لا يُتَقَى والسيف تقطر شفرتاه من الدم

أقول : هذا الذي أوصلنا إلى الذل والخوف ، فالبريء يؤخذ بجريرة المذنب ، وطعت القوة على الحق واختلط الجابل بالنابل .

- كان يقال: "شر الأمراء أبعدهم من القرّاء، وشر القرّاء أقربهم من الأمراء".

والمقصود : بنس العلماء على أبواب الأمراء ، ونعم الأمراء على أبواب العلماء .

- كتب عامل لعمر بن عبد العزيز على حمص إلى عمر: "إن مدينة حمص قد تهدم حصنها ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصلاحه فكتب إليه عمر: "أما بعد، فحصنهم بالعدل، والسلام".

- وأخيراً ذكر أعرابي أميراً فقال: "كان إذا ولي لم يطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم، فالمحسن راج والمسيء خائف".

حُسن الخُلُق ومداراة الناس

- رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : أربُع خلال إن أُعطيَتَهَن فلا يضرُك ما عُدِلَ به عنك من الدنيا : ١- حُسن خُليقة ، ٢- وعفاف طُعْمَةٍ ، ٣- وصدقُ حديثٍ ، ٤- وحفظ أمانة .
- ولعمري مَن حاز هذا فقد حاز الدنيا والآخرة كلتيهما .
- وجاء رجل إلى وهب بن منبّه ، فقال : إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه (كثرت أخطاؤهم وحادوا عن الحق) وقد حدثت نفسي أن لا أخالطهم . فقال له وهب : لا تفعل ؛ فإنه لا بدّ للناس منك ، ولا بدّ لك منهم ، لهم إليك حوائجٌ ، ولك إليهم حوائجٌ ، ولكنْ كن فيهم أصمّ سميعاً (تسمع وتتناسى ما سمعت) وأعمى بصيراً (ترى أخطاءهم وتتغافل عنها) وسكوتاً نطوقاً (تتكلم في الوقت المناسب ما ينفع) .
- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خالطوا الناس وزايلوهم .. (وهذا دأب الدعاة المصلحين ، فلا بدّ من مخالطة الناس لتدعوهم إلى سبيل الحق وتدلهم على طريق السلامة ، وتذكّرهم بالله ، مع الترفع عن الخوض فيما يسيء ويؤذي)
- وهذا يؤيده قول أبي الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكثير في وجوه أقوام (نضحك) وقلوبنا تقلبهم (تبغضهم) . وقال رجل لأبيه وقد رآه يتلطّف لرجل غليظ : لِمَ تجلس إلى فلان وقد عرفتَ عداوتَه؟ قال : : أخبي ناراً ، وأقدحْ عن ودّ .

وقال الشاعر المهاجر بن عبد الله الكلابي في هذا المعنى :

وإنّي لأُقصي المرءَ من غيرِ بغضةٍ وأدني أخا البغضاء مني على عمدٍ

ليُحدثَ ودّاً بعدَ بغضاءٍ ، أو أرى له مصرعاً يُردي به الله من يُردي

وقال عِقال بن شَبّة : كنت رديف أبي فلقية جرير ، فحياه أبي وأطفه ، فلما مضى قلتُ

لأبي : أبعد ما قال لنا ما قال ؟! . قال : يا بني : أفأوسعُ جُرحي ؟ (يتحاشى سلاطة

لسانه)

وقال ابن الحنفية : قد يُدفعُ باحتمال المكروه ما هو أعظم منه .

وقال الحسن البصري : مُدَاراة الناس نصفُ العقل .

- وفي المأثور " أوّل ما يوضع في الميزان الخُلُقُ الحَسَنُ . " وقال " حُسْنُ الخُلُقِ وحُسْنُ الجوار يَعْمُرَانِ الديار ، وَيَزِيدَانِ فِي الأعمار " وقال " مَنْ حَسَنَ اللهُ خُلُقَهُ وَخُلِقَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " .

- وقال ابن قتيبة الدينوري : قرأتُ في كتب العجم : حُسْنُ الخُلُقِ خَيْرُ قرين ، والأدبُ خَيْرُ ميراث ، والتوفيقُ خَيْرُ قائد .

وقال : قرأتُ في كتاب للهند : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْساً بَلَّغَتْهُ وَأَنْسَتَهُ : ١- كَفَّ الأذى ، ٢-

وحُسْنُ الخُلُقِ ، ٣- ومجانبةُ الرِّيبِ ، ٤- والنبلُ في العمل ، ٥- وحُسْنُ الأدبِ .

- وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقاً وأصبحها وجوهاً وأشدّها حياءً ، إنْ حَدَّثُوكَ لَمْ يَكْذِبُوكَ ، وإنْ حَدَّثْتَهُمْ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ لَمْ يُكَذِّبُوكَ : أبو بكرٍ الصديقُ ، وأبو عبيدة بنُ الجراح ، وعثمانُ بن عفان رضي الله عنهم وأرضاهم .

قال الشاعر :

فتى إذا نبّهته لم يغضبِ أبيضُ بسامٍ وإن لم يعجبِ

موكّلُ النفس بحفظ الغيبِ أقصى رفيقيه له كالأقربِ

وقال يزيد بن الطثرية :

وأبيضٌ مثلُ السيفِ خادمٌ رَفَقَةٌ أشمٌ ترى سرباً له قد تقدّدا

كريمٌ على علّاته ، لو تسبّهُ لَفَدَكَ رِسْلاً ، لا تراه مُرَبِّداً

يجيب بلّبيه إذا ما دَعَوْتَهُ ويحسب ما يُدعى له الدهرَ أرشداً

فمن سمّاه التلبيةً ونسيانُ أذى الآخرين مع كرم النفس وسماحة القلب جدير أن

يكون الصديق الذي نعصّ عليه بالنواجذ

- ومدح ابن شهابٍ شاعرٌ ، فأعطاه ، وقال : من ابتغى الخيرَ اتقى الشرَّ .

فمن أكرمته اتقاء شرّه وتخلّصاً من أذاه شيطان رجيمٍ ، ومارد خبيثٍ .

(... فغفر له ...)

- رأى موسى عليه السلام قبطياً وإسرائيلياً يقتتلان حين دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فاستغاثه الإسرائيلي - وكان أقباط مصر إذ ذاك يستذلّون اليهود - فما كان من موسى عليه السلام - وهو شاب قويّ - إلا أن وكز القبطي فمات على فوره ، ولم يكن موسى عليه السلام يريد قتله ، لكنّ وكزته القوية كانت السبب في انتهاء أجله ،
- شعر موسى بالحزن والأسى لأمر لم يكن يقصده ، إنه أراد أن يمنع أذى القبطي المعتدي عن الإسرائيلي ليس غير، فوجد نفسه يقتله ، فأقر أن هذا التسرع من عمل الشيطان عدوّ البشرية ، فهو يهيج في الإنسان غضبه فيفقد السيطرة على نفسه فيرتكب أخطاءه " قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدوّ مضل مبين " فاستغفر ربّه نادماً من فعلته العفوية هذه : " قال ربي اغفر لي " قالها مخلصاً في دعائه واسفه ، وتوجه إليه سبحانه أن يقلّ عثرته ويغفر ذنبه فجاءه الفضل من ربه سريعاً " فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم " .
- إن صاحب القلب المتصل بالله إن يخطئ فيتنبّ يقبل الله توبته ويقلّ عثرته ، ويستشعر موسى فضل الله عليه فيعاهده تعالى أن لا يكون ظهيراً للمجرمين ، وأن يكون معيناً للمظلومين ، " قال ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين " .
- عدت إلى التفاسير أستجلي الطريقة التي علم فيها موسى عليه السلام أن الله تعالى قد غفر له ، فلم تسعيني هذه التفاسير، وبعضها أخطأ حين جعله نبياً وهو شاب مع أن النبوة والرسالة جاءتة وهو عائد من مدين مع أهله إلى مصر ، فكيف علم موسى قبل أن يصير نبياً يوحى إليه أن الله تعالى قد غفر له ؟ ! .
- لقد كان موسى وهو فتى ثم شاب ثم رجل يعلم أنه سيكون نبياً رسولاً وأن الله تعالى رباه على عينه ، واصطفاه لنفسه " ولتصنع على عيني " واصطفيتك لنفسي " . وقد يتساءل أحدهم كيف يعلم ولم يصِر نبياً بعد ؟ فالجواب أن أمه كانت تعلم منذ ولادته أنه سيكون رسولاً وقبل أن ترضعه الرضعة الأولى إذ أوحى الله إليها ذلك الأمر فيما نقرأه في بداية سورة القصص : " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين " فقد وعدّها سبحانه أن يعيد رضيعتها إليها وأخبرها أن ابنها سيكون ذا شأن في المستقبل ، إنه سوف يكون رسولاً .

أخبرنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن في الأمم قبلنا رجالاً صالحين كانت الملائكة تحدثهم وتسدد خطاهم وتوائسهم أما في أمتنا فليس فيها هذا الصنف . والسبب في ذلك أن الإسلام دين كامل أتمه الله علينا " اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي رضى لكم الإسلام ديناً " فلا مجال مطلقاً لزيادة المتخربين ، وكذب المدعين ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما ترويه السيدة عائشة رضى الله عنها " قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يك في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب " صحيح الجامع للألباني الصفحة أو الرقم: ٤٣٧٧ وعلى هذا فلا نقبل دجالين يقولون : حدثني قلبي عن ربي ، ويعتبر نفسه موصولاً بالله يتلقى الوحي عنه بقلبه الطاهر !!! ويتقول على الله الأقاويل ، فيفتن الناس ويدلس عليهم دينهم .

- ومن الأحاديث التي رأينا الرجل ممن قبلنا يسمع الملائكة تتحدث ما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رجل بفلاة من الأرض ، فسمع صوتاً في سحابة : اسق حديقة فلان . ففتح ذلك السحاب . فأفرغ ماءه في حرة . فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله . فتنبع الماء . فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته . فقال له : يا عبدالله ! ما اسمك ؟ قال : فلان . للاسم الذي سمع في السحابة . فقال له : يا عبدالله ! لم تسألني عن اسمي ؟ فقال : إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان . لاسمك . فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذ قلت هذا ، فبني أنظر إلى ما يخرج منها ، فأصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثاً ، وأرد فيها ثلثه " رواه مسلم . فعرف الرجل سبب إكرام الله تعالى لهذا المزارع المؤمن الذي يتصدق بثلث ماله على الفقراء ، ومن الأحاديث التي تظهر الملائكة تكلم المسلم فيما قبلنا ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " زار رجل أخاه في قرية ، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته ، قال : أين تريد ؟ قال : أخاً لي في هذه القرية ، فقال : هل له عليك من نعمة تربها ؟ قال : لا ، إني أحبه في الله قال : فإني رسول الله إليك ؛ إن الله أحبك كما أحببته "

- أما موسى عليه السلام فقد يكون أفضل المحدثين الذين كانت الملائكة تكلمهم وتسدد خطاهم ، سيما أن الله تعالى هيأه ليكون من الرسل أولي العزم . فعلم أن الله تعالى غفر له لحديث الملائكة إياه صلى الله عليه وسلم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

- أما الحقيقة الأقوى فقد قرّرت الآيه الكريمة (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين) - سورة القصص- والحكم كما قال المفسرون: النبوة ، فقد جعله الله تعالى حين اشتدّ عوده نبياً ، وذلك بداية الشباب وعنفوانه، ولا ننس أن يوسف عليه السلام صار نبياً في بداية الصبا وقبل أن يستوي، وتقرأ الآية نفسها في سورة يوسف فلا تجد فيها: (استوى)، كما أن يحيى عليه السلام آتاه الله تعالى الحكم (النبوة) صبيّاً، وآتيناه الحكم صبيّاً -سورة مريم-. فهو نبي قبل هروبه إلى مدين ، ورسول حين كلمه الله تعالى في طريقه عائداً إلى مصر ، والله أعلم.

في الرجال عامة

- قال الإمام الحسن البصري : الرجال ثلاثة ، فرجلٌ رجلٌ ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل . فأما الرجل الرجل ، فلبيب عاقل وذكي أريب يستشير العقلاء في أموره ثم يتخذ قراره .
 - وأما الرجل نصف الرجل ، فلبيب عاقل وذكي أريب إلا أنه لا يستشير ويقضي ما يراه فقط .
 - ورجل لا رجل ، فالأحمق لا يدري ما يريد ولا يستشير أحداً في أموره ثم يمضي بما يحضره .
 - إن أول من عزى وهناً في مقام واحد فعتاء بن أبي صيفي الثقفي عزى يزيد بن معاوية في أبيه ، وهنأه بالخلافة ، ففتح للناس باب الكلام ، فقال : أصبحت رزئت خليفة وأعطيت خلافة الله ، قضى معاوية نحبه ، فغفر الله ذنبه ، ووليت الرئاسة ، وكنت أحق بالسياسة ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واشكر الله على أعظم العطية ، وعظم الله في أمير المؤمنين أجرك ، وأحسن على الخلافة عونك .
 - ودخل رجل على صديقه يهنئه بمولوده ، فقال : ليهنك الفارس . فقال : لعنه يكون بغتلاً ، ولكن قل : شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب ، وبلغ أشده ، ورزقت برّه . وقال مجاهد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لمتزوج قال : " على اليمن والسعادة والطير الصالح ، والرزق الواسع ، والمودة عند الرحمن " .
 - وقال الحجاج لأيوب بن القرية : اخطب عليّ هند بنت أسماء ، ولا تزد على ثلاث كلمات ، فأتاهم فقال : أتيتكم من عند من تعلمون ، والأمير معطيكم ما تسألون ، أفثكنحون أم تردون ؟ قالوا : بل أنكحنا وأنعمنا . فرجع ابن القرية إلى الحجاج فقال : أقر الله عينك ، وجمع شملك ، وأنبت ريعك؛ على الثبات والنبات ، والغنى حتى الممات ، جعلها الله ولوداً ودوداً ، وجمع بينكما على البركة والخير .
 - وقال ابن الرقاع لمتزوج :
- قمرُ السماء وشمسُها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ما وارت الأستار مثلهما فيمن رأيناه ومن سَمعا
دام السرور له بها ولها وتهناً طول الحياة معا
- وتحدث بعضهم عن منافق فقال : ذاك رجل ليس له صديق في السر ولا عدو في العلن . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

وإن من الخلان من تشحط النوى به وهو داع للوصال أمين!

ومنهم صديق العين أما لقاؤه فحلو وأما غيبه فظنون

وقال في معنى النفاق مرة بن محكان :

ترى بيننا خُلُقاً ظاهراً وصدراً عدواً ووجهاً طليقاً

- ومن صفات المنافقين أن عينة بن حصين أقبل إلى المدينة قبل إسلامه ، فلقبه ركب خارجون منها ، فقال : أخبروني عن هذا الرجل (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) ، فقالوا : الناس فيه ثلاثة رجال ، فرجل أسلم معه فهو يقاتل قريشاً وأفناء العرب ، ورجل لم يسلم فهو يقاتله ، ورجل يظهر الإسلام إذا لقي أصحابه ، ويظهر لقريش أنه معهم إذا لقيهم . فقال : ما يسمى هؤلاء ؟ فقالوا : المنافقون ؛ فقال : اشهدوا أنني منهم ، فما فيمن وصفتم أحزم من هؤلاء ! .

- والحذر لا يأمن حتى أصدقاؤه ، يقول رجل في ذلك : اللهم اكفني بوائق الثقات ، واحفظني من الصديق . وكتب رجل على باب داره : جزى الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً ، وأما أصدقاؤنا فلا جزوا على ذلك ، فإننا لم نؤت قط إلا منهم .

- وهذا ابراهيم بن العباس يكتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات يشكوه إلى نفسه ويظهر له ألمه منه حين انقلب عليه أو هكذا ظن :

وكنت أخي بإخاء الزمان فلما نبا صرت حرباً عواناً

وقد كنت أشكو إليك الزمان ن فأصبحت فيك أذم الزمانا

وكننت أعدك للنائبات فهأنأ أطلب منك الأمانا

وفي المعنى نفسه يقول محمد بن المهدي :

كان صديقي وكان خالصتي أيام نجري مجاري السَّوقِ

حتى إذا راح والملوك معاً عدّ أطراحي من صالح الخلق

خليت ثوب الفراق في يده وقلت هذا الوداع فانطلق

لبسته لبسة الجديد على السُّقَر وفارقت فرقة الخلق

- ونجد بعضهم يرى فقيراً يستفيد منه مالاً وجاهاً فيظهر له الود والصدقة ويظن أن هذا ما إن يصبح ذا مال وجاه حتى ينقلب عليه ويقطعه فيتمنى أن يظل فقيراً كي لا ينتقل عن هذا الود المصطنع ، وهذا الشاعر كما يبدو ضيق النفس لا يحب الخير للناس بل يحبه لنفسه وتراه أنانياً :

إذا رأيت امرأ في حال عسرته مواصلاً لك ما في ودّه خلل

فلا تمنّ له أن يستفيد غنىً فإنّه بانتقال الحال ينتقل

- وسيدنا علي رضي الله عنه يكشف نفسيات كثير من الناس الذين يظهرون لك الود ما دمت عنهم غنياً فإذا احتجتهم فهم أشحاء بخلاء فيقول :

ولا خير في ودّ امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل

جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله وعند احتمال الفقر عنك بخيل

فما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل

وعبد الله بن معاوية بن جعفر يكتشف خلافة صديق له فيقاطعه قائلاً :

رأيت فضيلاً كان شيئاً ملففاً فكشفه التمحيص حتى بدا ليا
فأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فإن عرّضت أيقنت أن لا أخا ليا
فلا زاد ما بيني وبينك بعدما بلوتك في الحاجات إلا تمادياً
فلمست براء عيب ذي الودّ كلّه ولا بعض ما فيه إذا كنت راضياً
فغيب الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا
كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدّ تغانياً

- وصارح أحدهم صاحباً له شك في أمرصحبته وصدق إخلاصه فقال : أما بعد فقد عاقتني الشك فيك
عن عزيمة الرأي في أمرك ، ابتدأتني بلطف عن غير حرمة ، ثم أعقبتني جفاء من غير ذنب ،
فأطمعني أولك في إخوانك ، وآيسني آخرك من وفائك ، فلا أنا في غير الوفاء مجمّع لك أطراحاً ، ولا أنا
في غد وانتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الرأي
فيك ، فاقمنا على انتلاف ، أو افترقنا على اختلاف .

- وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في أطراح ودّ من ليس له ودّ :

ولا خير في الودّ ممن لا تزال له مستشعراً أبداً من خيفة وجلاً
إذا تغيب لم تبرح تسيء به ظناً وتسأل عما قال أو فعلا

- وبهذا يصرح المثقب العبديّ فلا حاجة للنفاق ، فإما الصدق والإخلاص وإما فالانفصال والفراق أسلم
وأفضل :

فإما أن تكون أخي بصدق فأعرف منك غثي من ثميني
وإلا فاطرحتني واتخذني عدواً أتقيك وتتقيني

- وقالت أعرابية لولدها : يا بني إياك وصحبة من مودّته بشره فإنه بمنزلة الريح .
وكان يُقال : الإخوان ثلاثة : أخ يُخلص لك ودّه ، ويبلغ في محبتك جهده . وأخ ذو نيّة
يقتصر بك على حسن نيّته دون رفده ومعونته ، وأخ يُلهوق (يتزيّن بما ليس فيه) لك
لسانه ، ويتشاغل عنك بشأنه ، ويوسعك من كذبه وأيمانه .

وما أروع قول الشاعر :

لعمرك ما ودّ اللسان بنافع إذا لم يكن أصل المودة في القلب

- ونجد العباس بن الأحنف الشاعر يبدع حين يقول :

أشكو الذين أذاقوني مودّتهم حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتهضاً بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا

وأنشد الأعرابي :

لحا الله من لا ينفع الودّ عنده ومَن حبُّه إن مَدَّ غيرُ متين
ومَن هو إن يُحدِّث له الغير نظرة يُقطع بها أسباب كل قرين
وقال غيره في المعنى فأبدع :

ولا خير في ود إذا لم يكن له على طول مرّ الحادثات بقاءً

فالود القائم على المصالح يتصل باتصالها وينقطع بانقطاعها لا فائدة تُرجى منه .

- وقال علي رضي الله عنه كلاماً يوزن بميزان الذهب والجواهر : لا تواخِ الفاجر ، فإنه يزيّن لك فعله ، ويحب لو أنك مثله ، ويزيّن لك أسوأ خصاله ، ومدخله عليك ومخرجُه من عندك شَيْنٌ وعارٌ ، ولا الأحق ، فإنه يجتهد بنفسه لك ولا ينفعك ، وربما أراد أن ينفعك فيضرك ، فسكوته خير من نطقه ، وبُعده خير من قربه ، وموته خير من حياته ، ولا الكذاب ، فإنه لا ينفعك معه عيش ، ينقل حديثك ، وينقل الحديث إليك ، حتى إنه يُحدِّث بالصدق فما يُصدّق .

- قال أبو قبيل في هذا المعنى : أسرتُ في بلاد الروم فوجدت على ركن من أركانها :

ولا تصحبْ أخا الجهل *** وإياك وإيَّاهُ

فكم من جاهل أردى *** حليماً حين آخاهُ

يُقاسُ المرءُ بالمرء *** إذا ما هو ماشاهُ

وللشيء على الشيء *** مقاييس وأشباهُ

وللقلب على القلب *** دليلٌ حين يلقاهُ

- واخيراً أنشد عدي بن زيد حكمة رائعة توضح من ينبغي أن نصاحبه لأنه مرآتنا والدليل علينا :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

في الغيبة والعيوب (٢)

قال ابن قتيبة في " عيون الأخبار " بتصرف :

- إن أسماء بنت يزيد أخبرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أخبركم بشراركم؟ " قالوا : بلى . قال : " من شراركم المشاءون ، بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون البراء العنت " فمن نم وأفسد وأرجف بين الناس من أشر ما خلق الله تعالى .

- وقال النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر : يا أيها الناس خذوا على أيدي سفهائكم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن قوماً ركبوا البحر في سفينة ، واقتسموها ، فأصاب كل واحد منهم مكان (١) ، فأخذ رجل منهم الفأس فنقر مكانه ، فقالوا : ما تصنع؟! فقال : مكاني أصنع به ما شئت ، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإن تركوه غرقوا وغرق .

(١) هكذا ضُبِطَتْ والأولى : (فأصاب كل واحد منهم مكاناً) .

- وقال أبو الدرداء رضي الله عنه (يستبعد أن ينجو يوماً من السنة الناس) : ليس من يوم أصبح فيه لا يرميني الناس بداهية إلا كان نعمة من الله علي . وقال حسان رضي الله عنه بهذا المعنى :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

- قال مسعر : ما نصحت أحداً قط إلا وجدته يفتش عن عيوبي (وكأن الناس لا يحبون الناصحين) .

- قال بعضهم : من عاب سقلاً فقد رفعه ، ومن عاب شريفاً فقد وضع نفسه .

- وقال الفاروق عمر رضي الله عنه : (أحبُّ الناس إليّ من أهدى إليّ عيوبي) أقول : ومن يرقى مرقاك يا أمير المؤمنين؟! .

- وقال الفضيل بن عياض : حسناتك من عدوك أكثر منها من صديقك ، لأن عدوك إذا ذُكرت عنده يغتابك ، وإنما يدفع المسكين إليك حسناته . أقول : ومن ينجو من ذلك إلا من رحم ربك؟! .

- ومَرَّ ابن سيرين بقوم ، فقام إليه رجل فقال : يا أبا بكر إنا قد نلنا منك فحللنا . فقال : إني لا أجل لك ما حرم الله عليك ، فأما ما كان لي فهو لك . أقول : جواب لطيف وفهم للحلال والحرام دقيق .

- وجاء رجل إلى ابن سيرين ، فقال : بلغني أنك نلت مني . فقال ابن سيرين : نفسي أعزّ عليّ من ذلك . رحم الله ابن سيرين ما أكرمه!

- وقال بلال بن سعد : أَخْ لك كلما لَقِيكَ أخبرك بعيب فيك خير لك من أخ لك كلما لَقِيكَ وضع في كفك ديناراً .
أقول : هذه هي الأخوة الحقّة .

- قال سيد التابعين الحسن البصري رحمه الله تعالى " لا غيبة إلا لثلاثة ؛ فاسق مجاهر بالفسق ، وذئب بدعة ، وإمام جائر وكان يُقال : من اغتاب خرق ، ومن استغفر رتق .

- وفي بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا عاب أحدكم أخاه فليستغفر الله " نقول : نستغفر الله دائماً وأبداً .

- قال محمد بن كعب : إذا أراد الله خيراً بعد زهد في الدنيا ، وفقهه في الدين ، وبصره بعيوبه . فقال الفضيل بع عياض حين وصلته هذه الحكمة : وربما قال الرجل : لا إله إلا الله أو سبحان الله ، فأخشى عليه النار ، قيل : وكيف ذاك؟! قال : يُغتاب بين يديه ، ويُعجب ذلك ، فيقول : لا إله إلا الله . وليس هذا موضعه ، إنما موضع هذا أن ينصح له في نفسه ويقول له : اتق الله . أقول : هذا هو الفقه في الدين .

- وفي الحديث المرفوع أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعلتا تغتابان الناس ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : " صامتا عما أحل لهما ، وأفطرتا على ما حرم عليهما " وقال حماد بن سلمة : ما كنت تقوله للرجل وهو حاضر فقلت من خلفه فليس بغيبة

- عاب رجل رجلاً عند بعض الأشراف ، فقال له : قد استدللّت على كثرة عيوبك بما تُكثر من عيب الناس لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها . وقال بعض الشعراء في هذا المعنى :

وأجزأ من رأيتُ بظهر غيبٍ على عيب الرجال ذوو العيوب

وأنشد ابن الأعرابي يؤكد هذا المعنى :

اسكت ، ولا تنطق فأنّت خياب كلُّك ذو عيب وأنت عياب

- وكان أحدهم يفتاب الناس ولا يصبر ، ثم ترك الغيبة ، ف قيل له : أتركتها ؟ قال : نعم ، على أني أحب أن أسمعها . فهو حقيقة لم يترك الغيبة لأنه يود أن يسمعها ، وإنما الأعمال بالنيات .

- وذكر الغزالي في إحيائه حديثاً " إن الغيبة أشد من الزنا " قيل : كيف ذلك؟! قال : " لأن الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وصاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر له صاحبها " .

- مرّ رجل بجارين له ومعه ربيّة ، فقال أحدهما : أفهمت ما معه من الربيّة ؟ فقال الآخر : غلامي حرّ لوجه الله شكراً له إذ لم يُعرّفني من الشرّ ما عرّفك . وهذا من روائع التقوى .

- دار بين سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما كلام ، فذهب رجل ليقع في خالد عند سعد ، فقال له سعد : مه ؛ إن ما بيننا لم يبلغ ديننا ، ولهذه التقوى استحق أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة .

قيل لبزرجمهره : هل من أحد ليس فيه عيب؟ قال : لا ؛ إن الذي لا عيب فيه ينبغي أن لا يموت . أقول صدق الحكيم والله فالله سبحانه الكامل وحده كمالاً مطلقاً . وفي هذا قال الشاعر :

ليس فيما بدا لنا منك عيبٌ عابه الناس غير أنّك فان

أنت خير المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان

- وأوصى رجل على فراش الموت زوجته أن تنكح بعده رجلاً شريفاً لا صاحب غيبة وفساد ، فقال :

وإما هلكتُ فلا تنكحي ظلّوم العشيرة حسّادها

يرى مجده ثلّب أعراضها لديه ويُبغض من سادها

في النساء عامّة

- روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " تتكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك ، " ثم قال : " ما أفاد رجلٌ بعد الإسلام خيراً من امرأة ذات دين ، تسره إذا نظر إليها ، وتطيعه إذا أمرها ، وتحفظه في مفسها وماله إذا غاب عنها " .
 - وقال الأصمعي : أخبرنا شيخ من بني العنبر قال : كان يُقال : النساء ثلاث : فهيتة ليتة عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش ولا تعين العيش على أهلها ، وأخرى وعاء للولد ، وأخرى غلّ قملٍ يضعه الله في عنق من يشاء ، ويفكه عمّن يشاء . والرجال ثلاثة : فهين لين عفيف مسلم يُصدر الأمور مصادرها ، وآخر ينتهي إلى رأي ذي اللب والمقدرة فيأخذ بأمره وينتهي إلى قوله ، وآخر حائر بائر لا ياتمر لرشد ولا يُطيع مُرشدًا .
 - وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال : خير نساءكم العفيفة في فرجها ، الغلّمة لزوجها .
 - وقال عروة بن الزبير : ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكح صدق ، ولا وضع نفسه بعد الكفر بمثل منكح سوء .
 - وقال شاعر من بني أسد :
وأول خبث الماء خُبثُ ترابه وأول خبث القوم خُبثُ المناكح
 - وقال الأصمعي : قال ابن الزبير : لا يمنعكم من تروج امرأة قصيرة قِصرُها ، فإن الطويلة تلد القصير ، والقصيرة تلد الطويل ، وإياكم والمذكّرة (المتشبهة بالذكور) فإنها لا تُنجب .
 - وقال أبو عمرو بن العلاء : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها . قيل له : كيف ذاك؟ . قال : أنظر إلى أبيها وأُمها ، فإنها تجرّ بأحدهما .
- وفي هذا المعنى يقول الشاعر :
- إذا كنتَ تبغي أيمًا بجهالة من الناس فانظر من أبوها وخالها
فإنهما منها كما هي منهما كقَدِّكَ نعلًا إن أريدَ مثالُها
- وقال عمر رضي الله عنه : يا بني السائب : إنكم قد أضويتم (أولادكم ضعاف) فانكحوا في النزائع (الغريبات)

- وقال الأصمعي : قال رجل : بنات العمّ أصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رعوس الأبطال كابن الأعجميّة .
- كان أوفى بن دلهم يقول : النساء أربع : فمنهنّ " مَعْمَع " لها شينها أجمع (المستبدة بمالها عن زوجها لا تساعد) ومنهنّ تبع تضر ولا تنفع ، ومنهنّ صدّع تفرّق ولا تجمع ، ومنهنّ غيث همع إذا وقع ببلد أمرع . وبعضه زاد : القرثع (الجريئة البذيئة الفاحشة .
- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ثلاث من الفواق (الدواهي) : جارٌ مُقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة نشرها ، وامرأة إن دخلت لسنّتك وإن غبت عنها لم تأمنها ، وسلطان إن أحسنت لم يحمدك وإن أسأت قتلك .
- قال خالد بن صفوان : من تزوج امرأة فليتزوّجها عزيزة في قومها ذليلة في نفسها ، أدبها الغنى وأذلّها الفقر ، حصاناً من جاراها ماجنة على زوجها . وفي هذا المعنى يقول الفرزدق :
يأئسنّ عند بعولهنّ إذا خلّوا وإذا هم خرجوا فهنّ خفارٌ
- وقال رجل يصف من يريد الزواج بها : ابغني امرأة لا تؤهل داراً (قليلة الضيفان) ولا تؤنس جاراً (قليلة الدخول على جاراتها) ولا تنفث ناراً (لا تيمّ ولا تغتاب) .
- وقال الأصمعي قال رجل لابن عمه : اطلب لي امرأة بيضاء ، مديدة فرعاء (الطويلة) ، جعدة (قوية الجسم متناسقة) ، تقوم فلا يُصيب قميصها منها إلا مُشاشة منكبيها (رؤوس العظام) وحلمتي ثدييها ورانفتي (أسفل) أليتيها ورُضاف ركبتها (جلدة الركبة) ، إذا استلقّت فرميت تحتها بالأترجة العظيمة نفذت من الجانب الآخر . (وهذا لا يكون إلا لذات الخصر النحيف والعجز الكبيرة) . قال ابن عمه له : وأنى بمثل هذا إلا في الجنان؟! .
- وعن خالد الحذاء قال : خطبت امرأة من بني أسد فجئت لأنظر إليها وبينني وبينها رواقٌ يشفّ ، فدعت بجفنة مملوءة ثريداً ، مكللة باللحم ، فأثت عن آخرها ، وأتت بإناء مملوء لبناً فشربته حتى كفأته على وجهها ، ثم قالت : يا جارية ارفعي السجف ، فإذا هي جالسة على جلد أسد ، وإذا شابة جميلة ؛ فقالت : يا عبد الله ؛ أنا لبوة من بني أسد ، وهذا مطعمي ومشربي ، فإن أحببت أن تتقدّم فافعل . فقلت : أستخير الله وأنظر ، فخرجت ولم أعد .
- تزوّج علي بن الحسين أم ولد لبعض الأنصار ، فلامه عبد الملك لذلك ، فكتب إليه : إن الله قد رفع بالإسلام الخسيصة وأنمّ النقيصة ، وأكرم به من اللؤم ، فلا عار على مسلم . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوّج أمته (مارية القبطية رضي الله عنها) وامرأة عبده (زينب بنت جحش رضي الله عنها) . فقال عبد الملك : إن علي بن الحسين يتشرّف من حيث يتّضع الناس . وقال الأصمعي : كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر ، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً ، فرغب الناس في السراري . وقال رجل من أهل المدينة :

لا تشتمنّ امرأة في أن تكون له أمّ من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات الناس أوعيةٌ مستودعاتٌ وللأحساب آباءٌ
ورب واضحة ليست بمنجبة وربما أنجبت للفحل سوداء

وقال عمر بن الوليد للوليد بن يزيد : إنك لمعجب بالإماء . قال : وكيف لا أعجب بهنّ

وهنّ يأتين بمثلك ؟!

- وبلغنا أن حكيمًا قال لرجل شاوره في التزوُّج : افعل ، وإياك والجمال الفائق ، فإنه مرعىً أنيق . فقال : مانهيتني إلا عما أطلب . قال : أما سمعت قول القائل :

ولن تصادف مرعىً ممرعاً أبداً إلا وجدتَ به آثارَ منتجع

وأقول : ليس هذا صحيحاً دائماً إلا إذا اعتبرنا نظر الناس إلى جمالهنّ مرعىً

- ويُروى عن أبي ادرءاء رضي الله عنه أنه قال : خير نساءكم التي تدخل قَيْساً (خطا متزنة متساوية فيها هدوء واتزان) وتخرج مَيْساً (تبختراً وتثنيّاً) وتملأ بيتها أَقِطاً (جبن من اللبن الحامض) وحَيْساً (الطعام من التمر والسمن والأقط) . وشر نساءكم السلفعة (البذيئة الفحاشة قليلة الحياء ، الجريئة على الرجال) التي تسمع لأضرارها قرقعة ، ولا تزال جاراتها مفرّعة .
- وقال معاوية لعقيل : أي النساء أشهى ؟ قال : المواتية لما تهوى . قال : فأَي النساء أسوأ ؟ قال : المجانبية لما ترضى . قال معاوية : هذا والله النقد العاجل . قال عقيل : بالميزان العادل .

في بيت الله

-: انتقلت إلى سكن جديد في حي آخر غربي المدينة ، بعد أن شعرت أنني في الحي السابق تجذرت علاقاتي بالناس في اجتماعياً وأنساً ، فما كنت أشعر بالغربة – وأنا الغريب بينهم المهاجر إليهم ، فقد كنت أتخولهم بما فضل الله علي من حديث في أمور الدين في المساجد بعد الصلوات وفي المناسبات الدينية والاجتماعية وفي شهر الصوم الفضيل وأستمع إلى دروس بعضهم ومحاضراتهم فأفيد علماً وأدباً . والإنسان بين متعلم ومعلم ومستمع ، وهكذا يزداد المسلم خيراً في هذه الدنيا إلى أن يلقي ربه .

- انتقلت إلى الحي الجديد ، فكان أول ما بحثت عنه المساجد القريبة والبعيدة في هذا الحي ، فهي الرئة التي أتنفس فيها ، والرياض التي آنس إليها ، وفيها أتعرف إلى إخوة جدد أرتبط بهم برباط الإيمان وعرى الدين القويم . فلم ألبث أسابيع قليلة حتى تعرفت إلى إخوة ذوي فضل وأدب وعلم . والإنسان اجتماعي بطبعه يميل إلى لقاء من يشعر أنهم أهل خير وتقوى ، ولا نزكي على الله أحداً . إلا أن ذوي الكرامات على وجهها علامات ، هكذا تعلمنا من أساتذتنا ومربينا ...

- في فجر هذا اليوم أسرع إلى المسجد القريب ، فصليت السنة ، وتحية المسجد ، ولم أبدأ بقراءة المأثورات حتى سمعت دعاء خافتاً من رجل على يميني ، فنظرت إليه من طرف خفي ، فإذا هو رجل في الأربعين من عمره أو يزيد قليلاً يسأل الله تعالى بلهجته العامية المحببة أن يغفر له ويرزقه ، ويحفظه في دينه وصحته وأسرته والمسلمين . وسررت أن دعاءه لم يكن كله خاصاً به ، إنما كان عاماً في أكثره . فأصخت السمع إليه وهو يردد كل دعاء مرتين أو ثلاث مرات ، فيدعو لجاره ولأخيه ولأخته ، وللمسلمين في أصقاع الأرض .

- نظرت إليه مبتسماً ، فرد بابتسامة أكثر لطفاً وأوسع بشاشة ، ومد يده مصافحاً فسلم عليّ ودعا لي فأثلج صدري وجذبني إليه بأناة سلامه وحلو نبرته . ثم عاد إلى ما كان عليه من التبتل والدعاء

- قلت في نفسي : يا الله ؛ ما الذي دعا هذا الرجل إلى أن يدعو للمسلمين في بقاع الأرض ويسترسل في الرجاء أن يحفظ المسلمين من كل سوء ، وأن يزيدهم من خيره وبركاته ؟! إنه الشعور بالأخوة الإيمانية والصلة الوشيجة التي تربطه بمن يراهم إخوته في العقيدة ورابطة الروح والمصير .. إنه منهم وهم منه ، بل هو غصن رطيب في شجرة الإسلام الباسقة ، وارفة الظلال ، التي تظلل الجميع بفيئها ، وتحنو عليهم بدوحها ، وتغذوهم بثمارها .

ما أجمل الصلة الإيمانية التي تارز إليها قلوب المؤمنين ، فتقوى لحمتها ، وتتشابك جذورها وأغصانها ، فإذا هي هدف واحد واتجاه واحد يصعد بقلوب المؤمنين إلى بارئها ، فتلتقي في رحابه سبحانه . ورأيت نفسي أردد قصيدة قلتها قبل سنوات في أخي وحبيبي المسلم في الهند والسند وأندونيسيا واليابان وأوروبا وأمريكا وأفريقيا .. إن أخي المسلم جزء من نفسي وشريك في هدفي ، وعضدي في أملي وغايتي .

أحن إليك أخي المسلما
وأرجو من الله في كل آن
فأنت حبيبي وأنت صديقي
وفيك الأخوة تثمر نوراً
مصيري مصيرك حلواً ومرّاً
قضى الله أن الرباط العظيم
يشد الأواصر بين العباد
وينشئ جيلاً قوياً عزيزاً
ويقتلع الكفر من جحره
أراك على البعد مهما نأيت
وأشقى إذا شمت فيك هواناً
وترتاح نفسي إذا عشت حراً
وأنت الشفاء لجرحي السقيم

وأسأل ربي أن تسلمنا
ومن كل قلبي أن تنعما
وأنت نصيري أن أظلمنا
وفيك الوداد كغيث همى
كلانا إلى المكرّمات انتمى
رباط العقيدة ، ما أكرما
ويحيي القلوب بشرع السما
يطاول في العزة الأنجما
وفي الله يبذل غالي الدّما
بهذي الحياة لي التّوأما
حماك الإله وما أرغما
وتسعدُ روعي أن تغنما
وكنّت له دائماً بلسما

قول في المحبة

- وكتب رجل إلى صديق له : الله يعلم أنني أحبك لنفسك فوق محبتي إياك لنفسي ، ولو أنني خُيرت بين أمرين ؛ أحدهما لي عليك والآخر لك علي لآثرت المروعة وحُسن الأحدث بايثار حظك على حظي ، وإنني أحب وأبغض لك ، وأوالي وأعادي فيك .

لعلنا في أغلب أيام رمضان الكريم – أيها الأحباب نعيش مع كنز من كنوز العربية التي غفل عنها كثير من الأدباء بلغة العامة ، إنه كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ، من أمهات الكتب ، فيه من الأدب والعلم والفكر ما يصلح أن يكون مدرسة وحده ،

ها نحن اليوم في الروضة الثالثة من هذا الكتاب ، نجول بين أزهار (المحبة) فنقتطف منها ما يُزين مجالسنا ، ويضيء حياتنا .

- كتب رجل إلى صاحبه : أحِنّ إلى عهد أيامك التي حَسُنَتْ بك كأنها أعياد ، وقَصُرَتْ بك كأنها ساعات ، إن الشوق إليك يفوق الصفات ، ومما جدد الشوق إليك تصاقب الدار ، (قربها) وقرب الجوار ، تمم الله لنا النعمة المتجددة فيك بالنظر إلى الغرة المباركة التي لا وحشة معها ولا أنس بعدها .
- وقال حكيم : ثلاث يُصنّفن لك ودّ أخيك : فالأولى : أن تبدأه بالسلام إذا لقيته ، والثانية : أن توسع له في المجلس ، والثالثة : أن تدعوه بأحبّ أسمائه إليه .
- وقال الحكيم نفسه : ثلاث يكرهك الناس لها : فالأولى : أن تعيب على الناس صفات هي فيك ، والثانية : أن ترى في الناس عيوباً هي فيك أكبر ، لا تراها ، والثالثة : أن تؤذي جليسك فيما لا يعنيك .
- وعن المقدم بن معدي كرب – وكان أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتدّ وقومُه عن الإسلام ، فقاتلهم المسلمون بقيادة خالد رضي الله عنه وأعادهم إلى الإسلام ، ومن كان مثله انتفتت الصلحة عنه – قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا أحب أحدكم أخاه فليُعَلِّمه أنه يحبه " كي لا يكون الحب من طرف واحد ، ولتتألف قلوب المسلمين .
- وكان يُقال : لا يكن حبك كَلْفاً ولا بغضك تَلْفاً (لا تسرف في حبك وبغضك) . ونحوه قول الحسن البصري رحمه الله تعالى : أحبوا هَوْناً ، فإن أقواماً أفرطوا في حب قوم فهلكوا . ومثل ذلك أثر عن الشافعي رحمه الله تعالى : أحبّ حبيبك هَوْناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هَوْناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما .

- أما الصحابي الجليل " عَكاشة بن محصن " الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم في معركة بدر قضيباً يحارب به حين انكسر سيفه ، فلما هَزَّ القضيب انقلب بإذن الله سيفاً أبيض طويلاً حارب به في كل غزواته إلى أن قُتل في معركة الردة في بني أسد ، قتله طليحة الأسدي المتنبئ ، ثم عاد طليحة إلى الأسلام وحَسَن إسلامه - هذا الصحابي الجليل بشره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ممن يدخل الجنة دون حساب ولا عقاب - كان عمر رضي الله عنه يحب عَكاشة كثيراً ، فلما التقى عمر الفاروق بقاتله قال له : قَتَلْتُ عَكاشة بن محصن؟! لا يُحبك قلبي . فقال طليحة : فمعاشرة جميلة - يا أمير المؤمنين - فإن الناس يتعاضرون على البغضاء.

وقال بعضهم لرجل : إني أبغضك . فقال : إنما يجزِع من فقد الحب المرأة ، ولكن عدل وإنصاف .

- وقال عمر رضي الله عنه لرجل يريد طلاق زوجته : لِمَ تطلِّقها ؟ قال : لا أحبها . قال : أو كل البيوت بنيت على الحب؟! فأين الرعاية والتدبُّم (أن لا يقوم بعمل يذمه الناس عليه) .

- وكتب أحدهم إلى صاحبه يبيِّنه شوقه : لساني رطب بذكرك ، ومكانك في قلبي معمور بمحبتك . ومثل قوله أنشد الشاعر معقل :

لَعَمري لئن قرَّرتُ بقربك أعينُ لقد سَخِنتُ بالبين منك عيونُ
فسِرِّ وأقمِ ، وقِفْ عليك مَوْتِي مكانك في قلبي عليك مصونُ
وذكر أعرابي رجلاً ، فقال : والله لكأن القلوب والألسن رِيضَتْ له ، فما تُعَقِّد إلا على وُدِّه ولا تنطق إلا بحمده .

- وقال رجل لابن حوشب : إني أحبك . فقال : وَلِمَ لا تحبِّي ؛ وأنا أخوك في كتاب الله ووزيرك على دين الله ، ومؤنتي على غيرك ! ولعل الإنسان - لشحِّه - يمل من سؤال الناس ويستثقل صحبتهم . فنبه ابن حوشب صاحبه أن الحب قد يضعف ، بل يضمحل إذا كان فيه طلب المال والمونة .

- وينسب إلى رابعة العدوية - وهو بعيد - قولها في الحب الإلهي :

أحبك حبيْن ، لي واحد وحب ، لأنك أهل لذاكَ
فأما الذي أنت أهل له فحُسنُ فضلتَ به من سواكَ
وأما الذي في ضمير الحشا فلست أرى الحُسنَ حتى أراكا
وليس لي المن في واحد ولكن لك المن في ذا وذاكا

- ومن أحب ، فأمعن في الحب لم ير من حبيبه إلا المحاسن ، ألم يقل المسيب بن علس :

وعين السُّخْطِ تُبصر كل عيب وعين أخي الرضا عن ذاك تُعمي

ومثله لعبد الله بن معاوية :

فلست براءٍ عيب ذي الودِّ كلِّه ولا بعض ما فيه إذا كنت راضياً
وعين الرضا عن كل عيب كليلَّة ولكن عين السُّخْطِ تُبدي المساويا

ومن هذا الباب قال اليزيدي : رأيت الخليل بن أحمد قاعداً على طنفسة ، فأوسع لي ،
فكرهت التضيق عليه ، فقال : إنه لا يضيق سمّ الخياط على متحابين ، ولا تسع
الدنيا متباغضين

- وقال شريح القاضي لزوجته يوضح لها ما ينبغي أن تفعله لتحافظ على حبه :
خُذِي العَفْوَ مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتني حين أغضبُ
فإني رأيتُ الحب في الصدر والأذى إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ
- وقال أعرابي : إذا ثبتت الأصول في القلوب نطقت الألسن بالفروع ، ولا يظهر الودّ السليم إلا من
القلب السليم . وعلى هذا قال أبو زبيد للوليد بن عُقبة :
مَنْ يَخْنُك الصِّفاءُ أو يَتَبَدَّلْ أو يَزُلْ مثلما تزول الظلالُ
فاعْلَمْ أَنِّي أخوك أخو العهد حياتي حتى تزولَ الجبالُ
ليس بخلٌ عليك مني بمالٍ أبداً ما استقلَّ سيفاً حمالُ
فلك النصرُ باللسان وبالـ_____كف إذا كان لليدين مصالُ
كل شيء يحتال في الرجال غير أن ليس للمنايا احتيالُ
- وقال عبد الله بن الزبير ذات يوم : والله لو دِدْتُ أن لي بكل عشرة من أهل العراق رجلاً من أهل الشام (
صَرَفَ الدينار بالدرهم) . فقال أحد العراقيين : مَتَلْنَا وَمَتَلَّكَ كما قال الأعشى :
عَلَّقْتُهَا عَرَضاً وَعَلَّقْتُ رجلاً غيري وعَلَّقَ أخرى غيرَها الرجلُ
أحبك أهلُ العراق ، وأحببت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبدَ الملك بن مروان .

لا تقصص رؤياك على إخوتك

بدأ الإمام صلاة التراويح بسورة يوسف عليه السلام ، وكان صوته مريحاً ، فلم يكن صوته جميلاً ولا قبيحاً لكن تلاوته كانت جيدة وقراءته هادئة ، لهذا قلت إن صوته كان مريحاً ومما يزيد في راحة النفس أن مكبر الصوت يملأ المسجد دون جلبلة أو وضوء .

قلت في نفسي وأنا أدخل المسجد : لعل الله يرزقني فكرة أدندن حولها في خواطري الرمضانية إذ لم أكن قررت الفكرة التي أدور حولها ليوم الغد . فلما قرأ الإمام قوله تعالى " يا بني ؛ لا تقصص رؤياك على إخوتك " قلت في نفسي - فقد كنا في الصلاة ولا يجوز الكلام فيها بغير الصلاة - جاءت الخاطرة فلا بد من إنضاجها . ولعل القارئ يشاركني اليوم الحديث عنها ، ويقدر زناد فكره فيها ، فهلم إلى ما يفتح الله بها علينا من خير نحن نحتاجه جميعاً :

١- لا بد من صدر حنون ذي خبرة في الحياة يسدد خطوي ويشاركني همومي - إن صح أنها هموم - أو يشاركني خواطري وتفكيري حين ألجأ إليه أستعين بمشورته وخبرته . وسيدنا يعقوب عليه السلام أيده الله بالحكمة وسداد الرأي وفهم الحياة ، فقد عركها وذاق حلوها ومرّها ، وهو نبي ابن نبي وحفيد أبي الأنبياء ، والله سبحانه وتعالى يلهمه الصواب ، ويسدده بالوحي ، ثم إنه الأب الحاني والصدر المشفق ، والوالد المحب ، فنعيم المستشار هو لولده يوسف عليهما السلام .

٢- لا بد من الحذر والحيطه في كل الأمور ، ولا ينبغي للسر أن يتجاوز صدر صاحبه إلا إلى الأمين ، وإلا شاع وعرفه القاصي والداني ، كما أن لكل منا خصوصية يحتفظ بها ، ويخفيها عن الآخرين ولو كانوا من المقربين . والأب يهمس في أذن ولده " يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك " .

٣- ولكن الأخ - عادة - محب ويود لأخيه الخير والسعادة والهناء ، فلماذا يحذر الأب ابنه من إخوته؟! لا شك أن الأمر خطير إن عرفه إخوته فسوف يحسدونه ، ويكيدون له . إن هذه الرؤيا بشاره بالنبوة التي تهفو لها نفوس الإخوة جميعاً فأبوهم نبي ، ولا بد أن يرثه في النبوة واحد أو اثنان أو أكثر ، والجميع يحرصون على ذلك ، وليس الكل أهلاً لهذه المكانة العظيمة . وسيزداد الكره ليوسف حين تتجاوزهم هذه المكانة - وهم الكبار - إلى يوسف الفتى الصغير ، لا شك أن الله يختار من يشاء ويصطفى من يريد لدعوته ، ولكن هل يعي الجميع هذا الأمر ويرضونه ؟ أم تراهم يكيدون ليوسف ويأتمرون به إيذاء وإقصاء؟ هكذا فكر بعضهم ثم نفّذهم جميعهم ، والله - سبحانه - يفعل ما يشاء .

٤- " لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً " ونلاحظ فعل الكيد يتبعه المفعول المطلق ليصف نفسية إخوة يوسف وما فيها من الحسد والبغضاء لمن يعتبرونه سلبهم أمراً يظنونهم من حقهم " الله أعلم حيث يجعل رسالته " والإيمان الناقص إذا خالطه حقد وحسد دفع بصاحبه إلى التصرف المشين

والحمق البين . ، والأب يعرف أبناءه وشدة مكرهم ، ويعلم أيضاً أن الله يحفظ عباده الصالحين ، إلا أنه لا بد من الحذر وأخذ الحيطة على مبدأ " اعقلها وتوكل " فالتوكل وحده نقص واضح ، والعقل دون توكل أكثر نقصاناً .

٥- ومن الذي يدفعهم إلى الكيد الشديد لأخيهم ؟ إنه الذي أقسم أن يغوي الناس أجمعين إلا من عصمه الله وحفظه ، إنه الشيطان الذي أقسم بالله ليحتكن ذرية آدم وليضلنهم وليزرعن البغضاء في قلوبهم فهو عدوهم الأول في هذه الحياة " إن الشيطان للإنسان عدو مبين " إنه من أخرج أباهم من الجنة وحمل على عاتقه أن يأخذ من استطاع منهم إلى النار .

٦- وهل يقدر الشيطان أن يفعل ذلك مع أبناء الأنبياء ؟! وقد ربى يعقوب أبناءه على الإسلام والإيمان ؟ ألم يوص هذا الأب أبناءه أن يكونوا مسلمين ويحيوا مؤمنين ويموتوا على ذلك " ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " ألم يعاهدوه وهو على فراش الموت أن يعبدوا الله وحده " أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون " بلى لقد عاهدوه بعد أن تعلموا الدرس واعترفوا بخطئهم أمام يوسف في مصر واعتذروا له وأنهم كانوا خاطئين وسألوا أباهم أن يستغفر لهم ذنوبهم .

٧- وليس شرطاً أن يكون أبناء الأنبياء والصالحين مثلهم فالهداية من الله ، فهذا قابيل قتل أخاه هابيل حسداً ، وهذا ابن نوح يدعو أبوه عليه السلام أن يؤمن ويركب معه سفينة النجاة ، فأبى واستكبر وقال بلهجة الجاحد المعاند : " سأوي إلى جبل يعصمني من الماء " وتنكب طريق الهداية فكان من المغرقين أهل النار .

٨- والحياة علمتنا أن الإخوة قد يكون بعضهم أشد عداوة لبعض من الآخرين ، فكم من بيوت همت وكم من دماء للإخوة أريقت بأيدي إخوانهم لمال أو أرض أو امرأة أو منصب أو جاه .

فلا بد أيها الأحباب من الحذر والحيطة ، ولا بد أن يحفظ الإنسان سره ، ولا بد أولاً وأخيراً أن يسأل الله تعالى العون والهداية " فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين "

لمن كان له قلب

ديننا الإسلامي دين عقل وفكر ، يخاطب الإنسان بمنطقية ، فيضع النقاط على الحروف ، ويطرح الفكرة عليه (الإنسان) بما لا يدع مجالاً للإنكار – هذا عند أولي الفهم وأصحاب العقول – فالأفكار المعروضة متصل بعضها ببعض ، ويؤدي أولها إلى ثانيها بإحكام ، وثانيها إلى ثالثها بطوعية وسلاسة ، وهكذا ، فيعرضها الباحث عن الحقيقة على قلبه وعقله ، فيراها منطقية محكمة العرض ، متناسقةً بينما نجد الأديان الأخرى تعيش في مسرح الغيبيات وزوارب التناقضات .

مثال هذه المنطقية هذه الآية الكريمة في سورة البقرة :

" كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (٢٨) فذكر القرآن الكريم أحوالاً خمسة مر الإنسان ببعضها أو مر غيره بإحداها إذ سبقه إليها ، وستمر البشرية بالأحوال كلها : ١- وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا

٢- فَأَحْيَاكُمْ

٣- ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

٤- ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

٥- ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

١- فقبل مجيئنا إلى هذه الدنيا أين كان اليشر ؟ أكانوا في مكان غير هذا المكان وحياة غير هذه الحياة ؟ أم كانوا في طور العدم ؟ ولن يدعي أحد أنه كان حياً قبل أن يولد إلا إذا كان مختل العقل أو معانداً للحق ، وهذا العدم فناءً وموتٌ ، ولن ينكر هذا العدم والفناء أحدٌ أكان مشركاً أم ملحداً .

٢- ونحن في هذه الدنيا نتحرك ونأكل ونشرب ونلبس ونسافر ويحارب بعضنا بعضاً ، ويفرض القوي على الضعيف ما يريد ، أكان حقاً أم باطلاً . ونصح ونمرض وترى البناء والهدم ، وتسمع الخبر وتراه عياناً .. أفنحن في هذه الدنيا أحياء أم أموات ؟ ولن يشك أحد ، مشركاً كان أم ملحداً طوباوياً أم عاقلاً أننا في طور الحياة ، وأنه في كلتا الحالتين لا يملك لنفسه شيئاً .

وفي الحالتين الأولى والثانية خطبنا بالفعل الماضي " كنتم ، فأحياكم " فالحالتان حصلتا ، مرت الأولى ، ونحن في الثانية .

٣- وفي الحالة الثالثة نجد الموت الثاني ، أليس العدم الأول موتاً ، فالفناء الثاني الذي سبقنا إليه الأولون من آباء وأجداد وإخوان نراهم يسارعون إليه وندفنهم بأيدينا فناءً ثانٍ لا بد منه ، وهذه أيضاً لا ينكرها أحد أكان مشركاً أم ملحداً فهو يرى الناس تموت أفراداً وجماعات في الأرض والبحر والسماء

، وسنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً . وذكر القرآن هذه الحالة بالفعل المضارع " يميّتكم " لأن هذه الحالة الثالثة ستكون في المستقبل المنظور للمخاطب الذي يرى الناس ينتقلون إلى دار الفناء - البرزخ - وهو ما يزال حياً ، فهي لمن ذاق طعم الموت صارت ماضياً ، وله - من ظل حياً - أن ينتظر ، فاستعمل الفعل المضارع .

٤- أما الحالة الرابعة " يحييكم " فهي بيت القصيد الأول التي لا يصدقها إلا ذو القلب الحي والفهم الصحيح الذي عاين الحالات الثلاث الأولى وآمن بأن الله تعالى الذي صدق في الحالات الثلاث السابقات هو الذي أخبرنا عن الحالتين الرابعة والخامسة ، والله سبحانه وتعالى - ابتداءً - صادق الوعد ، ومن رأى بعيني قلبه ووجهه صدق الله تعالى ليؤمننّ بحتمية الأخيرتين ، وهو سبحانه قادر على إعادة الخلق والحياة ، وهي أهون عليه سبحانه - وكل شيء هين عليه - فسيحيينا ، ولكن لماذا يحيينا ؟

٥- الجواب على هذا السؤال واضح في الحالة الخامسة - بيت القصيد الثاني والأهم - الصادقة كأخواتها ، " إليه ترجعون " نسأل الله تعالى أن يجعل خير أيامنا يوم العرض عليه ، فتعرض الأعمال على المسلمين عرضاً ، ثم يغفر الله تعالى لعباده تقصيرهم - إن شاء - ، فقد كانوا يستغفرونه ، ويسألونه في كل حالاتهم العفو والغفران ، إنه غفار الذنوب ، ستار العيوب ، الرحيم بعباده . أما من نوقش الحساب فقد هلك - نعوذ بالله من سوء العاقبة .

ومن الملاحظ أن كلمة " أحياكم " سُبقت بفاء الترتيب والتعقيب لأن الله تعالى خلقنا ، ويخاطبنا ، فناسبت الفاء هذه الحالة ، وأن الكلمات " يميّتكم ، يحييكم ، إليه تُرجعون " بينها زمان قد يطول ، فاستعمل حرف العطف " ثم " للترتيب والتراخي .

فالعاقل من يتفكر ويتدبر ... اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيفهمونه بقلوبهم كأنهم يرونه رأي العين ، ويتبعونه .

شمائل سيد الخلق

- ١ . (أفصح خلق الله) فهو صلى الله عليه وسلم من قرّيش وربّي في بني سعد وقال : " أنا أعرب العرب ولا فخر " يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه - جوانب فمه .
- ٢ . (وأعذبهم كلاماً ، وأحلاهم منطقاً) وتأتي العذوبة والحلاوة من جمال الصوت وحسن الأداء وعدم التكلف وكون الكلام خارجاً من القلب ، وقد قالوا " ما خرج من القلب دخل القلب وما خرج من اللسان لم يتعدّ الأذان " حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب ويسبي الأرواح ، ويشهد له بذلك المحب والشاني.
- ٣ . (وأسرعهم أداء) فما كان صلى الله عليه وسلم يتلّكأ في حديثه أو يتأتى بل كان الحديث ينساب من فمه كأنما يقرأ من كتاب .
- ٤ . (يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس إليه) فقد كان صلى الله عليه وسلم يعيد الكلام ثلاثاً ليُعقل عنه وما كان يسرد الحديث كسردينا له ، لو أراد العاد أن يعده لعدّه .
- ٥ . (يتكلم بجوامع الكلم) فكلامه صلى الله عليه وسلم فصل لفصول في المعنى البسيط ، ولا تقصير في المعنى الجليل - وهذا يسمى مراعاة مقتضى الحال ، وكان يكلم المرء بما يفهم منه .
- ٦ . (وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه) فالسكوت تفكر وتدبر ، والكلام فيما ينبغي حكم وعظات وعبر .
- ٧ . (ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صحاباً) وهذا دليل عظمة المرء وشدة تقواه ، ولا ريب أن رسول الله سيد المتقين . وكان إذا كره الشيء عَرَفَ في وجهه صلى الله عليه وسلم .

ضحكه صلى الله عليه وسلم

وكان جل ضحكه التبسم بل كله التبسم ، وهذا دليل الاتزان وقد يضحك فتبدو نواجذه (أضراس العقل) ولم يكن ضحكه بقهقهة ولا رفع صوت .

بكاؤه صلى الله عليه وسلم

كان من جنس ضحكه لم يكن بشهيق ورفع صوت ، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملأ ويسمع لصدده أزيز . وكان بكاءه :

- ١ - رحمة للميت وخوفاً على أمته وشفقة عليها وهو الرحيم بأمرته الشفوق عليها ، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما : " للأنبياء منابر من ذهب ، فيجلسون عليها - قال : ويبقى منبري ، لا أجلس عليه ولا أقعد عليه ، قائم بين يدي ربي مخافة أن يبعث بي

إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقول الله عز وجل : يا محمد ما تريد أن نصنع بأمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم فيدعى بهم ، فيحاسبون ، فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي ، فما أزال أشفع حتى أعطي صكاكا برجال ، قد بعث بهم إلى النار ، وحتى إن مالكا - خازن النار - يقول : ما تركت للنار لغضب ربك في أمتك من نقمة " رواه ابن خزيمة في التوحيد الصفحة أو الرقم: ٢/٥٩٨ من موقع الدرر السنية .. فانظر إلى هذه النعمة المهداة والرحمة المسداة صلوات الله وسلامه عليه . اللهم اجزه عنا خير الجزاء يا رب العالمين .

٢- ومن خشية الله و عند سماع القرآن وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية . ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له وقال " تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون " وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود قوله تعالى : "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" وبكى لما مات عثمان بن مظعون وبكى لما كسفت الشمس وبكى في صلاة الكسوف وجعل ينفخ ويقول " رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك " وكان يبكي في صلاة الليل .

اللهم إننا نحبك ونحب نبيك الرؤوف الرحيم فاحشرنا في زمرة في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظله ، وأدخلنا بشفاعته جنتك وأكرمنا - على ضعفنا وتقصيرنا- فإنك أكرم الأكرمين ؛ يا رب العالمين .

والله في عون العبد مادام.....

- يقول النبي صلى الله عليه وسلم " إن أحببت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ، وإن أحببت أن يحبك الناس فلا يقع في يدك من حُطامها شيء إلا نبذته إليهم " وبهذا يجمع المرء بين حبتين يسعد فيهما في الدنيا والآخرة .
 - وقيل لابن المنكدر : أي الأعمال أفضل؟ قال : إدخال السرور على المؤمن ، فقيل : أي الدنيا أحب إليك ؟ قال : الإفضال على الإخوان . قلت هذا الكريم الزاهد .
 - وفي معنى ابن المنكدر يقول حميد بن الحسن : لأن أقضي حاجة لأخ أحب إلي من أن أعتكف سنة . وكان عمرو بن معاوية العقيلي يقول : اللهم بلغني عثرات الكرام . قلت : وما يقيل عثرات الكرام إلا الكريم .
 - وقال المأمون لمستشاره محمد بن عباد المهلب : أنت متلاف . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ منع الموجود سوء ظن بالله . يقول الله تعالى : " وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين " قلت : سبحان الله ؛ ما أروع هذا الرد ؟!
 - فما أثرُ المعروف ؟
 - يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المعروف يقي مصارع السوء " وفي هذا المعنى يقول ابن عباس رضي الله عنهما : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجد متكاً . وهو الي يقول أيضاً : ما رأيت رجلاً أوليته معروفاً إلا أضاع ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءاً إلا أظلم ما بيني وبينه .
 - يقول جعفر بن محمد : إن الحاجة تعرض للرجل قبلي فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها ، أو تأتية وقد استبطأها فلا يكون لها عنده موقع . قلت : هذا بحق الكريم المفضل وقال الشاعر :
- وبادر بسلطان إذا كنت قادراً زوال اقتدار أو غنى عنك يُعقّب
- ويمدح شاعرٌ رجلاً شهماً يعين إخوانه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً مغتتماً وجود المال قبل ذهابه :
- بدا حين أشرى بإخوانه ففكك عنهم شبابة العدم
- ونكّره الحزم غبّ الأمور فبادر قبل انتقال النعم
- والمقصود بشبابة العدم : حدته واذاه .وبدا بمعنى بدأ .
- وقال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم : رجلٌ بداني بالسلام ، ورجل وسّع لي في المجلس ، ورجل اغبرّت قدماه في المشي إليّ إرادة التسليم عليّ ، وأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل . قيل : ومن هو ؟ قال : رجل نزل به أمرٌ ، فبات ليلته بمن يُنزله ، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزله بي .

- وقال ابن قتيبة : رَبُّ المعروف (تعهده وتنميته) أشد من ابتدائه . قلت : تمام الأمر من صفات الكمال . ويقال : الابتداء بالمعروف نافلة ، وربُّه (إكماله) فريضة .
 - وقيل لبُزْجَمِهَره : هل يستطيع أحد أن يفعل المعروف من غير أن يُرْزَأَ (يخسر) شيئاً ؟ قال : نعم ؛ مَنْ أَحْبَبَتْ له الخير وبذلت له الودَّ فقد أصاب نصيباً من معروفك .
 - وقال جعفر بن محمد : ما توسَّل أحد إليّ بوسيلة هي أقرب به غلى ما يُحب من يد سلفت منِّي إليه ، أتبعْتُها أختها لأحسن ربّها وحفظها ، لأن منع الأوانل يقطع شكر الأواخر .
 - وقام رجل من مجلس الأمير خالد بن عبد الله القسريّ فقال خالد : إني لأبغض هذا الرجل وماله إليّ ذنبٌ . فقال رجل من القوم : أوله أيها الأمير معروفاً . ففعل ، فما لبث أن خفت على قلبه ، وصار أحد جلسائه . قلت : من صنع معروفاً فقد بذر بذرة الخير فأفادت عليه ظلالها .
 - وقال ابن عباس لا يتم المعروف إلا بثلاث : (تعجيله ، وتصغيره ، وستره) فإنه إذا عجله هنأه ، وإذا صغره عظّمه ، وإذا ستره تمّمه .
 - وقال أحد الشعراء في هذا المعنى :
- زاد معروفك عندي عظماً أنه عندك محقورٌ صغيرٌ
تتناساه ، كأن لم تأتِه وهو عند الناس مشهور كبيرٌ
- وقال الطائي يمدح من أحسن إليه في السرّ وتواضع فلم يفخر بما فعل :
- جودٌ مشيت به الضراء متّضعاً وعظمت عن ذكره وهو عظيمٌ
أخفيتّه ، فخفيتّه ، وطويتّه فنشرتّه ، والشخص منه عميمٌ
- ومعنى خفيتّه : أظهرته ، لقد أحسن إليه في السر فشكره في العلن ، فهما كريمان معاً .
- وقيل في معنى البيتين : ستر رجلٌ ما أولى ، ونشر رجلٌ ما أولى .
- وقال رجل حكيم لبنيه : إذا اتخذتُم عند رجل يداً فانسوها . وقالوا: المنّة تهدم الصنيعة . وقال شاعر :
- أفسدتُ بالمنّ ما أسديت من حسنٍ ليس الكريم إذا أسدى بمنّان
- وقال رجل لحكيم : أعطيت فلاناً كذا وكذا . فقال له : لا خير في المعروف إذا أُحصيَ
- فما ثواب المعروف ؟
- في الحديث المرفوع " فضل جاهك تعود به على أخيك صدقة منك عليه ، ولسانك تعبر به عن أخيك صدقة منك عليه ، وإماطتك الأذى عن الطريق صدقة منك على أهله " وفي بعض الحديث " كل معروف صدقة ، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده صدقة ، وما وقى المرء به عرضه صدقة ، وكل نفقة أنفقها فعلى الله خَلَفُها مثلها إلا في معصية أو بنيان " قال العريزي في شرحه لهذا الحديث : إنه البنيان الذي لم يُقصد به وجهُ الله .
- وكان يّال : بذلُ الجاه زكاة الشرف .

- وقال ابن عباس لا يُزهِدَنَّكَ في المعروف كُفْرٌ مَنْ كَفَرَهُ ، فإنه يشكركَ عليه مَنْ لم تصنعه له .

وأقول : وذو النفس الكريمة يُظهر نفسه مكتفياً وهو على أشد ما يكون حاجة

ولله در الشاعر حماد عجرد إذ يقول :

إن الكريم ليُخفي عنك عُسرته حتى تراه غنياً وهو مجهودٌ

- العرب تقول : من حَقَر شيئاً من المعروف حَرَمَ فَتَصَدَّقْ ولو بالقليل يا صديقي ،

- يقول حماد عجرد :

بُتَّ النوال ولا تمنَعكَ قِلَّتُهُ فكل ما سدَّ فقراً فهو محمودٌ

ويقول حكيم : أحدهم يحقر الشيء ، فيأتي ما هو شر منه (يعني المنع) .

وفي الحديث المرفوع : " أفضل الصدقة جهد المُقِلِّ " وفي الحديث " سبق درهم ألف

درهم " ويقول الشاعر في هذا المعنى :

وما أبالي إذا ضيف تضيّفني ما كان عندي إذا أعطيت مجهودي

جُهدُ المُقِلِّ إذا أعطاك مصطبراً ومكثراً في غنى سيّان في الجود

- قال بُزْرجَمهره : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تَفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق ،

فإنها لا تَبقى ، وقال شاعر ينظم قاله الحكيم بُزْر :

فأنفق إذا أنفقت إن كنت موسراً وأنفق إذا خيلت حين تُعسرُ

فلا الجود يُفني المال والجَدّ مَقْبَلٌ ولا البخل يُبقي المال والجَدّ مدبّرٌ

- ومَرَّ الحسن برجل يقلب في يديه درهماً ، فقال : أتحب درهمك هذا ؟ قال : نعم . قال : إِمّا إنه ليس لك حتى يخرج من يدك .

- ولا حاجة أن يوصي أحدا ورثته أن يتصدقوا بماله حين يكون عاقلاً فيتصرف فيه بما يشتهي في

حياته ، ويكون هو المتصدق . يقول أبو ذر رضي الله عنه : لك في مالك شريكان ، إذا جاء أخذه

ولم يؤامرك : الحَدَثان ، والقدر . وكلاهما يمرّ على الغثّ والثمين ، والورثة ينتظرون متى تموت

فيأخذون ما تحت يدك ، وأنت لم تقدّم لنفسك ، فإن استطعت أن لا تكون كذلك فافعل .

قال الشاعر :

سأحبس مالي على حاجتي وأوثر نفسي على الوارث

أعاذلُ: عاجلُ ما أشتهي أحبّ من المبطلِ الرائث

- وقال سعيد بن العاص : من رزقه الله رزقاً حسناً فليكن أسعد الناس به ، فإنه إنما يُترك لأحد رجلين :

إِمّا مصلح فلا يقلّ عليه شيء ، وإِمّا مفسد فلا يبقى له شيء

وقال الشاعر في هذا المعنى :

أنت للمال إذا أمسكته فإن أنفقتَه فالمال لك

وقال في المعنى نفسه حائطُ بنُ يعفر يخاطب نفسه :

ذريني أكن للمال رباً ولا يكن لي المالُ رباً تحمدي غبه غداً
أريني جواداً مات هزلاً لعنني أرى ماترين أو بخيلاً مخلصاً

اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (٢٢)

لو أن رجلاً غنياً كلفك ببناء قصر ، وطلب منك أن يكون البناء في الطرف الجنوبي ، والحديقة وبركتها في الطرف الشمالي ، واتفقتما على مساحة البناء والحديقة وحجم البركة ونوع الأشجار ، وطريقة البناء ، فلم تنفذ ما اتفقتما عليه كما يجب ، فكانت البركة صغيرة ، والبناء في الطرف الجنوبي ، وكانت الحديقة في الطرف الآخر ، وغرست نوعاً من الأشجار لم يطلبها فهل يعطيك أجرك مثلما اتفقتما ؟

ألا يغضب غضباً شديداً ويطالبك بالهدم وإعادة البناء كما طلب ، فهو صاحب الدار وينبغي بناؤها كما يريد هو ، لا كما تريد أنت ؟

ألا يطالب بكل ما دفعه لك من مال ، ويأبى أن تقوم بالعمل مرة ثانية ، ولعله يشتكيك إلى أولى الأمر ويُعزِمك مبالغ إضافية لما نتج من أضرار ، وتأخر في العمل ؟

هذا في الحياة الدنيا بين البشر أنفسهم ، ولعل عداوات تنشأ ومشاكل تستفحل بسبب الإخلال بالاتفاق .

فإذا قرأنا قوله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف في وعدنا إياه - جل في علاه - في عالم الذر أن نعبد وحده ولا نشرك به أحداً " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) " فقد استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو. وقد فطرهم الله على ذلك وجبلهم عليه . وقد روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها ، فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال " ألسن بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - إلى قوله " المبطلون " . فإذا قرأنا ذلك وجب علينا أن نفي بالوعد ونسأل الله تعالى أن يعيننا عليه .

وكما يرضى سبحانه عن المؤمنين الذين التزموا وعدهم فعبدوه وحده لا شريك الله ووعدهم فراديسه وجناته فقد غضب على من خان العهد والأمانة ، وجعل لله شريكاً أو كفر به أصلاً .

بعض المتجبرين يطلبون أو يفرضون بالإكراه أو الإغراء على أتباعهم أن يكونوا ضالين مثلهم ، ويتعهدون لمن آمن بالله وخالف الكفار أن يحملوا عنهم - إن كان من يوم آخر وحساب

وعقاب - أن يتحملوا عنهم أخطاءهم إن كفروا بالله وساروا على منوالهم في التيه والضلال .
 هكذا يزعمون . يقول الله تعالى ناقلاً عنهم قولهم " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا
 سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) " فوصفهم الله تعالى بالكذب ، فلن يستطيعوا فعل ذلك لأمر مهم واضح جلي ، أليست تقول القاعدة : " كل نفس بما كسبت رهينة " ألم تؤكد القاعدة المعنى ذاته في قوله تعالى " ولا تزر وازرة
 وزر أخرى ؟ " فكل معلق بكرعوبه ، ويوم القيامة رهيب يصفه المولى جل جلاله بذى الهول
 المظلم الشديد " إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً " في ذلك اليوم " .. يفر المرء من
 أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " بل ترى الإنسان يتمنى
 أن يدخل كل أحبائه ومعارفه - الذين كان في الدنيا يتمتع بهم ويركن عليهم ويدفع الغالي
 والرخيص في سبيل إسعادهم - في النار وأن ينجو بجلده " يود المجرم لو يفتدي من عذاب
 يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ، ثم ينجيه " .

بل إن هذا المجرم الذي كان يغوي الناس ويضلهم ويعددهم أن يحمل عنهم خطاياهم - ولن
 يحملها لأن كل ضال لا بد أن ينال عقابه الذي يستحقه - سوف يحمل مثل أثقالهم لأنه سن سنة
 خبيثة ، فتابعوه عليها . ألم يقل الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم " .. ومن سن سنة سيئة
 عمل بها بعده كان عليه وزرها ، ومثل أوزارهم من غير أن ينتقص من أوزارهم شيئاً " .
 يعضد هذا الحديث الشريف قوله تعالى في الآية التالية " وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ
 أَثْقَالِهِمْ " وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) " . ويقول تعالى في المعنى نفسه
 في سورة النحل " ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم
 (٢٥) " ، فمن كان إماماً في الضلالة ودعا إليها واتبع عليها فإنه يحمل وزر من أضله من غير
 أن ينقص من وزر المضل شيء ،

وترى الشيطان - الذي كان في الدنيا يلازم الإنسان أكثر من ملازمة الظل له ، ويوسوس له ليل
 نهار ، ويدعوه إلى الكفر والشرك والضلال - يتنصل من الكافر والمشرک ، ويسخر من كل
 أتباعه دون خجل ولا مواربة : " وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ
 وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ " وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي " فَلَا
 تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ " مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي " إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ
 مِنْ قَبْلُ " إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) " فقد بذل جهده في الوصول إلى هدفه الوحيد
 من البشر ، وهو إفسادهم وإغواؤهم ، وقد وصل إلى ما يريد ،

صرح الشيطان إذ ذاك - حيث لا ينفع الندم - :-

١- وعد الله تعالى عباده إن آمنوا به وأخلصوا في عبادته أن يرضى عنهم ، وأن يرضيهم
 فهو الحق وقوله الحق وفعله الحق سبحانه وقد وفى بوعدده .

٢- وعد الشيطان الناس بحياة رغيدة - وهو كاذب مخلف للوعد - فخسروا أنفسهم حين
 صدقوه .

٣- وتصديق الخاسر من المشركين والكفار لإبليس وأعوانه كان بمحض إرادتهم ، فليس له
 عليهم سلطان ، وما استجابوا له إلا لضعف في نفوسهم وسفه في عقولهم .

٤- فلا لوم عليه ، إنما اللوم عليهم ، فقد دغدغ أهواءهم وشهواتهم ، فمالوا إليه وتابعوه .

٥- ولن يستطيع الشيطان ولا أتباعه - إنساً وجناً - أن يفلتوا من العقاب الأليم ، نسأل الله الهدى والسداد .

٦- يتنصل الشيطان من عبادة هؤلاء إياه في الدنيا ، ويحملهم مسؤولية الغواية والفساد .

٧- يصدّقهم - وهو الكذوب - أن الظالمين في عذاب أليم ،

اللهم ، إنا نعوذ بك من همزات الشياطين ، ونعوذ بك ربّ أن يضلّونا ، إليك الملاذ وإليك الملجأ وعليك الاتكال ، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر يا رب العالمين ...
..اللهم آمين .

أتكون الملائكة رُسلًا للبشر (١٥)

قد يتساءل أحدهم : لم يرسل الله للبشر رسلاً منهم ، أفلا كان الأجدى أن يكون الرسول ملكاً ليصدقّه البشر ؟ إن الرسل تذكر أن بينها وبين الله رسلاً من الملائكة ، أفلا كانت هذه الملائكة رسلاً إلى البشر جميعاً ؟

قد علمنا أن الرسول يكون عادة من جنس المرسل إليه لأسباب عديدة ، منها :

١- أنه منهم يعرفون نسبه وأهله وأخلاقه ، وأنه من قومه للصوقه بهم عادات ومفاهيم : فنوح من قومه " إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه " وإلى عاد أخاهم هوداً " وإلى ثمود أخاهم صالحاً "

٢- إن الرسول يعيش حياة البشر لأنه بشر مثلهم أكلاً وشرباً ، وحياة وموتاً ، وصحة ومرضاً . يحس إحساسهم ويشعر شعورهم ، والشرعية والتعاليم نزلت تناسبهم . فحين يرون الرسول البشر ينفذ ما يأمرهم به وينهاهم عنه ويعلمهم إياه علموا أن ما يُطالبون به من تكاليف - والرسول قدوة وأسوة - يستطيع البشر العمل بها . ولو كان الرسول ملكاً لقالوا : إننا لا نستطيع ما يستطيع ، فهو أقوى وأقدر .

٣- لا يكون الإيمان إيماناً إلا حين يكون عن اعتقاد وتصديق دون خوف ولا وجل ، ودون تأثيرات قاهرة يزول الإيمان بزوالها . فقوة الملك وإمكاناته العجيبة لها تأثير يزرع الرهبة والخوف في نفوس الناس فينصاع لها البشر كلهم قهراً لا إيماناً وتصديقاً ، فينتفي الهدف الذي يقوم عليه صدق الإيمان وكذبه ، ويصبح البشر آلات يحركها الملك ، ولن تجد مؤمناً حقيقياً ولا كافراً حقيقياً . فلا تفاضل ولا تنافس ذاتياً يقوم عليه التقييم والحساب .

فلا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليه . ومن هنا نفهم قوله تعالى " قل: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً (الإسراء ٩٥) " وكان من رحمة الله تعالى بعباده أن أرسل محمداً عليه الصلاة والسلام منهم " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم " آل عمران ١٦٤ .

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية الكريمة في سورة الأنعام (بتصرف) " وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) " لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً أو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة الرجل ليتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري ، ولظنوه بشراً مثلهم أو مثل صاحبه الذي يرافقه ، وكرروا طلبهم إلى مالا نهاية .

ويقول القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره للآية الكريمة نفسها : لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة ; لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه ; فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربتة , ولما أنسوا به , ولداخلهم من الرعب من كلامه والالتقاء له ما يفهم عن كلامه , ويمنعهم عن سؤاله , فلا تعم المصلحة ; ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا : لست ملكا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم . وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطا في صورة آدميين , وأتى جبريل النبي عليهما الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي ولو أنزل ملك لرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء ,

كما أن الملائكة لا تنزل إلا في البت في الأمر وإنهائه , والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الفرقان " يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين (٢٢) " فهي تنزل للعذاب حين يأمر الله تعالى بإهلاك الظالمين . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته . وقال غيره لقامت الساعة , وقال مجاهد وعكرمة : لأهلكوا بعذاب الاستتصال , لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية فأظهرت له , فلم يؤمن أهلكه الله في الحال , وعلى هذا نفهم قوله تعالى في سورة الأنعام " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) "

قال الطبري رحمه الله تعالى : قال تعالى مخبرا عن المشركين في قيلهم لنبي الله صلى الله عليه وسلم : " وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا " الآية ٧ من سورة الفرقان " ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون " يقول : ولو أنزلنا ملكا على ما سألوا ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي , لجاءهم العذاب عاجلا غير آجل , ولم ينظروا فيؤخروا بالعقوبة مراجعة التوبة , كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات ثم كفرت بعد مجيئها من تعجيل النعمة وترك الإنظار .

فلن يكون الرسول إلا من جنس المرسل إليهم ليكون إيماناً وتصديقاً طوعاً يخالط القلوب ويمتزج بالجوارح دون مؤثرات خارجية قهرية يضيع فيها الصالح بالطالح والمصدق بالمكذب .

وقد يتساءل بعضهم : " هل للجن رسل منهم " أقول : تحت هذا العنوان يمكنك - أخي الحبيب - أن تطالع الجواب في مقال كتبتة , تراه في صفحات النت إن شاء الله تعالى

أرسل الله حيّ بيننا (٦)

يقرأ أحدنا قوله تعالى في سورة آل عمران " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) " فيرى المعاني التالية :

- ١- تحذيراً للمؤمنين أن يطيعوا اليهود والنصارى ، وأن يتخذوهم أولياء .
- ٢- لا يرضى أهل الكتاب منا إلا الردة عن الإسلام ، الدين العظيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده .
- ٣- والعاقل الذي يعيش في رياض القرآن العظيم وسنة النبي الكريم يعلم أنه على نور من ربه فيلتزمه ويسعد في أفيائه .
- ٤- من اعتصم بحبل الله المتين اهتدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فكان القرآن وكانت السنة المشرفة حصناً منيعاً يمنعانه أن ينزلق إلى مهاوي الكفر والضلال .
- ولا يرتد أحد عن الحق حين يكون القرآن بين يديه يتلوه ويتدارسه تفسيراً وفقهاً وحياءً ، وحين تكون سنة النبي صلى الله عليه وسلم نبراساً يضيء له دروب الحياة .
- القرآن الكريم بين أيدينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد أكد المولى سبحانه أنه سيحفظه ، بل هو حافظه إلى يوم القيامة : ألم يقل الله تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون " فالله تعالى تكفل أن يبقى القرآن العظيم كاملاً تاماً لا يعثره النقصان ولا الزيادة على مر الدهور وكرّ العصور . ففي هذه الكلمات السبع (أحد عشر) تأكيداً – والله الخالق الصادق لا يحتاج كلامه هذا التأكيد فهو رب الصدق . ومع هذا أكد كلامه بما لا يدع مجالاً للمتطعين والمتشدين المتفهمين . وإليك هذه التأكيدات كما ذكرها علماء البلاغة :
- ١-٢- إنَّ المؤكدة ، ونا ضمير العظمة المجموعتان في قوله " إنا " .
- ٣- ضمير العظمة " نحن "
- ٤-٥- التضعيف في الفعل نزل ، ونا ضمير العظمة في قوله " نزلنا " .
- ٦- تعريف الذكر بـ " ال " العهدية وما الذكر إلا القرآن الكريم .
- ٧-٨- إنَّ المؤكدة ونا ضمير العظمة في قوله " إنا " الثانية
- ٩- تقديم ما حقه التأخير ، فقدّم " له " الجار والمجرور على المتعلق به حافظون

١٠-١١- لام التوكيد ، والجمع " حافظون " في قوله " لحافظون " .

أما النبي عليه الصلاة والسلام فحيّ بيننا بسنته المطهرة التي نقلها إلينا أصحابه الأفاضل من بعده رضوان الله عليهم ، ثم التابعون لهم بإحسان ، فهو الوحيد من بين البشر - أنبياء وصالحين - نعرف سيرته المطهرة منذ ولد إلى أن توفاه الله وكأنه يعيش بيننا ، حتى إننا نعرف دقائق حياته بين أصحابه وزوجاته سلماً وحرباً وسياسة ودعوة وفكراً واجتماعاً فهو صلى الله عليه وسلم كتاب مفتوح بين يدي أتباعه إلى يوم الدين ، يقتبسون من فيوضه الدروس والعبر والأسوة الحسنة . ألم يقل الله تعالى " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً " وليكون أسوتنا الحسنة فقد جلّى الله تعالى سيرته لنا واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار .

عشت مع والدي رحمه الله قرابة أربعين سنة ، ولأني كنت أكبر أولاده فقد لازمته ملازمة غير منقطعة ، وأعرف عنه ما لا يعرفه غيري ، إلا أنني أعرف عن الحبيب المصطفى آلاف أضعاف ما أعرفه عن والدي بل عشرات الآلاف ضعف . وهذا يوضح قوله تعالى " وفيكم رسوله " فالرسول صلى الله عليه وسلم يعيش في قلوبنا وعقولنا وبين جوانحنا ، سيرته تفتح لنا كل يوم آفاقاً من التربية الرائعة والهداية الصافية .

أنت بيننا يا رسول الله في كل حركة وسكنة وفكرة وعمل . أنت قدوتنا وقائدنا وشفيعنا عند الله تعالى

اللهم إننا نحبك ونحب نبيك فارض عنا ورضنا اللهم آمين يا رب العالمين .

أقربهم مودة للذين آمنوا - ٨

تلوت اليوم قوله تعالى في سورة المائدة :

" لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا " فتوقفت عندها ولم أكمل الآية فالكلام شدني شداً ، وساءلت نفسي : لِمَ نجد اليهود شديدي العداوة للذين آمنوا ، وكان بإمكانهم أن يتدبروا ويتفكروا ، فيعلموا الحق ويتبعوه ، ويعلموا الباطل فيجتنبوه ، أليسوا من كانوا يهددون مشركي يثرب من الأوس والخزرج بخروج نبي حان أو أنه فيؤمنون به ويقاتلون تحت رايته هؤلاء المشركين فيقتلونهم قتل عاد وإرم ؟ ولماذا حين عرفوه قال كبيرهم : العداوة ما حيينا ، ولن نؤمن به . فقاتلهم وشتت بعضهم وأباد بعضهم الآخر ، فقالوا معاندين : ملحمة كتبت على بني إسرائيل . وحاولوا قتل النبي عليه الصلاة والسلام مراراً حرباً ومؤامرة وتسميماً فلم يفلحوا ، وكان بيدهم أن لا تكون ملحمة !! لا شك أنه الاستكبار وعناد الحق ومجافاته ، وغمط الناس ، فغضب الله عليهم ولعنهم .

ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله " وفي رواية " إلا حدث نفسه بقتله "

وأكملت قوله تعالى في الآية نفسها : " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين "

قلت في نفسي : وهل تنطبق هذه الآية على مجموع النصارى أو على بعضهم ؟ فإذا بالآية تعيدني إلى قراءتها مرة أخرى وتقول لي :

١- إن أولى صفاتهم أنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق حين رأوه فأمنوا بالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً .

٢- وأنهم كانوا ينتظرون النور الذي جاء فلما عرفوه وعلموا أنه يتصل بالنور الذي معهم أسرعوا إليه مجيبين .

٣- سألوا الله تعالى أن يجعلهم من الشاهدين ، وأن يدخلهم مع القوم الصالحين محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به .

وذكرت قوله تعالى في هذا الصنف الذي آمن بالإسلام ديناً وعقيدة ممن كانوا نصارى فمدحهم القرآن : " وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله.. "

وهم الذين قال الله فيهم " الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين " إلى قوله تعالى " لا نبتغي الجاهلين " .

قال عطاء بن أبي رباح هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين .

وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلثموا ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم - إذ كانوا على دين المسيح - من الرقة والرافة كما قال تعالى " وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية " وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، وليس القتال مشروعاً في ملتهم ، تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف .

وذكر ابن كثير في تفسيره كذلك أن بعض أهل الحبشة قدموا مع جعفر بن أبي طالب فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعلم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتكم إلى دينكم " فقالوا : لن ننقل عن ديننا فأنزل الله ذلك من قولهم " وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين " .

فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين

فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق جنات تجري من تحتها الأنهار ماكتين فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون " وذلك جزاء المحسنين في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان .

وكل من آمن بالإسلام قديماً أو حديثاً أو مستقبلاً يندرج في هذه الآيات حكماً .

أما ما نراه في عالمنا المعاصر من تألب النصارى على المسلمين فهؤلاء من الذين انغمسوا في الشرك ، فجعلوا لله ولداً وزوجة وشريكاً ، ثم انجرفوا في موجات الفكر اليهودي فكانوا عوناً له ، وفيهم ينطبق قوله تعالى " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم " وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ثمانين مليوناً من النصارى المتصهينين المتعاطفين مع اليهود قلباً وقالباً ، وهم الذين يمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك .

نسأل الله تعالى أن يفقهنا في الدين ويعلمنا التأويل ، ويثبتنا على الحق .. اللهم آمين .

إلا أن تتقوا منهم تقاة (١٤)

أقرأ الآية الكريمة " لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) " وأحاول أن أرى ظلالها في واقع المسلمين اليوم ، فأرى الناس ينقسمون فسطاطين في فهمها والعمل بها . فالمخاطب " المؤمنون " والمحذر منه " الكافرون " والمحدث عنه - الموضوع المطروح - موالاة الكافرين ، إن الموالاة " حب وإعجاب ومتابعة " . فهل يتصور من مسلم أن يحمل لمن كفر بمعتقده وحاربه فيه وضيق عليه بسببه الحب والاتباع؟! . ويفضله على المؤمن مثله أو يكون له عوناً على أخيه المؤمن؟ كما نرى - عياناً - في هذا الزمن الذي انقلبت فيه الموازين وغُثم على الكثير منهم حقيقة الإيمان والتصرف المناسب لمن يحمل أعظم دين وأصح معتقد؟!!

ولنقرأ الكلمة الأولى في هذه الآية المباركة " لا يتخذ " ، إنه فعل مضارع مسبوق بـ " لا " الناهية ، فجعلته نهياً يدل على الاستمرار إلى نهاية المطاف ، هذا النهي من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، فالموالاة كما ذكرت آنفاً " حب يمتزج بالقلوب ، وإعجاب يخالط النفوس ، واتباع حذو القدوة بالقدوة (الريشة بالريشة) " فإذا انقلب الكافر المخالف لك ديناً وحياة وسلوكاً حبيباً وصديقاً وأسوة فقد تغيرت المفاهيم ، واختلط الحابل بالنابل فصار المؤمن عدواً والمنافق صديقاً والكافر حبيباً ...

ثم يأتي الوعيد من الله تعالى إذ يقول : " ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء " فمن يرتكب نهى الله في هذا فقد برئ من الله ، ألم يوضح الله تعالى الأمر حين ذكر أن هؤلاء أعداء لله؟ ومن كان لله عدواً لله فهو عدو للمؤمنين ، هكذا ينبغي أن يكون المؤمنون ، دائماً في صف الله ومع الله ، فهم أولياؤه سبحانه ، ومن كان ولياً لله تعالى لم يوال غيره وغير أوليائه ، وإلا تاه عن الطريق وسقط في الفتنة " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة - إلى أن قال - ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل "

بل إننا نجد المولى سبحانه وتعالى حين يحذر المؤمنين من موالاة الكافرين يهدد المخالفين منهم ، ويخوفهم من غضبه . ومتى يغضب الله تعالى؟ إنه يغضب حين تنتهك محارمه ، فينتقل الموالون إلى صف الأعداء دروا أم لم يدروا . " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً " فماذا يبقى للمؤمنين من خير إذا وضعوا أنفسهم تحت سوط التهديد الإلهي ووعيده سبحانه؟! .

بل إن المسلم حين يوالي غير المسلم ويتخلى عن موالاة إخوانه المؤمنين ويضع نفسه تحت تصرف اليهود والنصارى الذي يحاربون الإسلام والمسلمين فقد انتقل إلى الصف المغاير وصار جزءاً منهم معادياً لمن كان معهم من المؤمنين ، وتمعن أخي المسلم بهذه الآية الفاصلة المقررة لذلك " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم " . نعم فإنه منهم ، وبهذا خرج من بوتقة المسلمين ، فهل يرضى المسلم ذو العقيدة الناصعة أن يترك الماء الزلال إلى غيره من الشوائب والفساد؟!!

فمن خاف في بعض البلدان والأوقات من شر أعداء الله ، ولم يستطع مجاهرتهم والوقوف أمامهم فله أن يتقيهم بظاهره دون باطنه ونيتة ، دليله ما روى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال : إنا لنكشر (نضحك) في وجوه أقوام ، وقلوبنا تلعنهم . وهذا تنبيه إلى أن التقية واضحة المعالم ، فهي في اللسان لا في القلب والعمل ، قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ، ويؤيد هذا المعنى قولُ الله تعالى " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان " هذه الآية التي نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه حين عذبه المشركون إلى أن عرضوا عليه صرصاراً وقالوا هذا ربك ، فقال نعم ، فتركوه ، فانطلق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يبكي ويشكو مستغفراً . فسأله النبي صلى الله عليه وسلم : أقالها معتقداً أم تقية ؟ فأجاب : بل لم تتعدّ اللسان يا رسول الله ، فيطمئنه النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً " فإن عادوا فعد " .

ونسأل أنفسنا سؤال الخائف الحذر من تحذير الله تعالى حين يقول " ويحذركم الله نفسه " ممّ يحذرنا الله تعالى إن جانبنا الصواب ، فانتقل البعض إلى موالاة الكافرين ؟ إن سبحانه يحذرنا نقمته في مخالفته ، وسطوته وعذابه لمن وإلى أعداءه وعادى أوليائه .. ومن يقدر على غضب الله تعالى ... نعوذ بالله من غضبه ونقمته ، ونسأله العفو والرضا .

والعاقل من يتعظ بمن سلفه فماتوا ، أو بمن صبّ الله عليهم نقمته فشقتوا ، وليسأل المرء نفسه : إلام النجاة في الدنيا ، وليست الدنيا دار نجاة .. وإلى من نعود بعد هذه المسيرة القصيرة في هذه الحياة الفانية ؟ فيأتيه الجواب سريعاً قولاً من العاقلين ، وحالاً مما تراه ونسمعه ونلمسه " وإلى الله المصير " فإليه - سبحانه- المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله، فمن نجا فقد سعد ، ومن هوى فقد تعس

فعلام يضيع الجهلة من الخونة والعلماء أنفسهم في خدمة العدو وإرضائه ، وهم في ذلهم يتمرغون فلا يربحون الدارين ، إنهم في الدنيا أذلاء وفي الآخرة أشقياء .

الحمد لله

ما أعظم كلمة " الحمد لله " إنها حسنات ثقيلة في ميزان المسلم يلقي الله تعالى بها فيرضى عنه ، ويكرمه . وهل الحمد إلا لله تعالى ، فهو الخلق به سبحانه ، إنه الخالق والرزاق وذو الأفضال الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " .

و" الحمد لله " فضل منه تعالى على العباد أن علمهم أن يحمده فيصبحوا قريبين من جوده وكرمه وودده ورضوانه .

فقد روى أبو سعيد بن المعلى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد) . ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج ، قلت له : ألم تقل (لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن) . قال : ({ الحمد لله رب العالمين } : هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته) . رواه البخاري .

وقد بدأت خمس سور في القرآن الكريم بالحمدلة (الفاتحة والأنعم والكهف وسبأ وفاطر) للدلالة على عظم فوائد حمد الله تعالى . وقد كانت الفاتحة أعظم سورة في القرآن لأمر عديدة منها ابتداؤها بالحمدلة .

وعلمنا الحبيب المصطفى أن نحمد الله تعالى حين نستيقظ من سبات هو كالموت ، فقال صلى الله عليه وسلم " : (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) . رواه البخاري عن أبي ذر الغفاري . والدليل على أن النوم كالموت قوله تعالى في سورة الأنعام " وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار " وقوله تعالى " الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى " ، أفلا نشكر الملك العليم العلام على أن أحيانا بعدما أماتنا ؟ .

والحمد أكبر من الشكر ، فالشكر لما يحب الإنسان ويأنس له فقط لقوله تعالى " وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم " أما الحمد فللسراء والضراء . فكان الحمد أعظم وأكبر . ومما يدل على أن الحمد للسراء كما هي للضراء ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم ويعوده ، فقعده عند رأسه ، فقال له : " أسلم " . فنظر إلى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : " الحمد لله الذي أنقذه من النار " أخرجه البخاري .

وقد حمد نبينا الكريم ربه حمداً رائعاً يكتب بماء الحياة ، وعلم أصحابه أن يقولوا مثله ، فقد روى أبو أمامة الباهلي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الحمد لله ربنا ، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى ، ربنا " وقال مرة " : إذا رفع مائدته : (الحمد لله الذي كفانا وأروانا ، غير مكفي ولا مكفور) رواه البخاري . فالله تعالى يحب إذا أكل عبده من فضله أن يحمده ، ليس غير . وقد قال صلى الله عليه وسلم " إذا أكل أو شرب قال : " الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وسوغه وجعل له مخرجا " .

يؤكد هذا ما قاله علي رضي الله عنه: هل تدرون ما حق الطعام ؟ قالوا : وما حقه ؟ قال : أن تقولوا : بسم الله , اللهم بارك لنا فيما رزقتنا قالوا : وما شكره ؟ قال : أن تقولوا : الحمد لله .

وحين يهدي الله تعالى المسلم للخير تسمعه يحمد الله تعالى أن أخذ بيده إلى الصواب " دليل ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى ليلة أسري به بإيلياء بقدرحين من خمر ولبن ، فنظر إليهما ، ثم أخذ اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذي هداك للفطرة ، ولو أخذت الخمر غوت أمتك " أخرجه البخاري .

ومن عظيم مكانة الصاحبين الجليلين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم حمد ربه حين رآهما قادمين نحوه فقال : " الحمد لله الذي أيدني بكما " رواه الدوسي أبو أروى ، وأخرجه ابن أبي حاتم في علله .

والقول في الحمد كثير جداً ، وما ذكرت إلا القليل تذكرة لي ولإخواني ، وأختتم هذه الفائدة بحديث يوضح فضل الحمد في العفو والمغفرة ، وفيه بشرى في المغفرة عظيمة

يقول صلى الله عليه وسلم " من أكل طعاماً ثم قال : الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوباً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا [الثوب] ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " ..

ومن منا يستنكف أن يغفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر غير المحروم من رحمة ربه ...

نسأل الله تعالى أن يكون رمضان هذا عتقاً لنا من النار وسبباً في رحمة الله وجنته .

اللهم آمين يا رب العالمين .

الدمار مآل الاستكبار (٢١)

يرسل الله تعالى الرسل للبشر قاطبة ، ألم يقل سبحانه " وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ "؟ وهذا هو العدل بعينه ، فإن آمنوا نجوا ، وإن كفروا حل عليهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة .

وعلى هذا يقول تعالى في أهل القرى المؤمنة " وما كان ربك ليهلك القرى وأهلها مصلحون " ألم يؤكد المولى سبحانه هذا المعنى بقوله " ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليماً ؟ " فالؤمن معزز مكرم لأنه آمن بالحق من ربه ، وعمل ما استطاع في إرضائه سبحانه .

ويقول في أهل القرى الكافرة " وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون " وقال في هذا المعنى كذلك " وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا ، وجعلنا لمهلكهم موعداً " . فقد أذرتهم الرسل ، فأبوا الهداية ، وولغوا في الضلال ، وأصروا عليه فكان إهلاكهم واجباً .

إننا نرى الرسل الكرام يدعون الناس إلى الله ، فينذرون ، ويبشرون ، والسعيد من بدأ طريقه إلى الهدى فهداه مولاه فغنم ، والشقي من أبى واستكبر فزاده الله ضلالاً فشقي في الدارين . ولا ننس أن الله تعالى يمد كلاً من الطرفين بما يريد " كلاً نُمِدَّ هَوَلاءَ وهَوَلاءَ من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً " .

وما من قوم استكبروا فحادوا عن شرع ربهم وقست قلوبهم وسخروا من عذاب الله تعالى إلا حاقت بهم صاعقة العذاب ، فكان دمارهم مخيفاً . والكفار لضعف تفكيرهم وسواد قلوبهم يسخرون من الرسل ويسألونهم عذاب الله ، ولا يدرون ما يحل بهم لو جاءهم العذاب . وانظر ما يقول الكفار في سورة هود حين يؤخر الله تعالى عنهم العذاب لأجل مسمى : " وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ " ألا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) " فهم يقولون : ما يحبس العذاب عنهم ويؤخره ، فإن سجاياهم قد ألقت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد . وحين يحق العذاب عليهم فلن يتأخر وسينالون سوء الجزاء بما كانوا يُكذِّبون ويسخرون .

فترى قوم نوح في سورة هود يستعجلون نقمة الله وعذابه وسخطه حين يستكبرون على نوح ويهزءون منه " قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) " لقد حاجبتنا فأكثرنا ذلك ونحن لا نتبعك فهات ما عند ربك من النعمة والعذاب ودع علينا بما شئت ولا نراك صادقاً . فجاءهم الطوفان فأغرقهم الله تعالى عن بكرة أبيهم .

أما قوم صالح فقد استعجلوا العذاب مكذبين به ساخرين ، فجاءهم سريعاً فاستأصلهم " قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) " في سورة النمل .

إنهم طالبوا بالعذاب قبل الرحمة ، فنبههم صالح عليه السلام إلى ما ينبغي أن يسألوه من مغفرة وتوبة ، وقال لهم : لم تؤخروا الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب ! . " فأخذتهم

الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين . " في سورة الذاريات . وكانت نهايتهم مأساوية يتجنبها كل عاقل لبیب ذو قلب بصیر .

وهؤلاء قوم لوط ينهاتهم نبيهم الكريم لوط عليه السلام - في سورة العنكبوت - عن الفحشاء والمنكر والفساد الأخلاقي الذميمة ، فما يزدادون إلا تمادياً في الفحشاء واستكباراً عن الحق ، فينعي عليهم فعلتهم ويخوفهم من عذاب الله وأخذه إياهم بقوة ، فيتحدون الخالق قائلين " ...فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّتُمْ بَعْدَ اللَّهِ أَنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) " فعاقبهم الله عقابين أليمين متتابعين ، أرسل عليهم حاصباً ثم خسف بهم الأرض نسأل الله العفو والعافية .

أما أصحاب الأيكة فقد أرسل الله تعالى لهم شعبياً عليه السلام يأمرهم بطاعة الله وإيفاء الكيل والوزن الحق ، وأن يحفظوا للناس حقوقهم ، فلا يأكلوها ، وأمرهم بتقوى الله سبحانه ، فكفروا به وسخروا منه واتهموه بالسحر والكذب معاً ، وتحذوه أن ينالهم عقاب الله تعالى واستكبروا على الإيمان ، وأنكروا العذاب فقالوا - في سورة الشعراء - : " فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) " فطلبوا العذاب نازلاً من السماء . وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى " وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً " - إلى أن قالوا - " أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهلال والملائكة قبيلاً " وقوله " وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . (٣٢) " سورة الأنفال .

وهكذا يقول هؤلاء الكفار الجهلة في كل زمان ومكان الجملة نفسها ، وانطبق عليهم قول الله تعالى يصف الكفار بأنهم نسخة واحدة متكررة - وإن طال أزمانهم - فقلوبهم وتفكيرهم وكفرهم واحد ، " أتواصوا به؟! بل هم قوم طاغون . " الذاريات .

فمن عرف الله حق المعرفة أحبه لعظيم نعمه وكثرتها : " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " وخافه لعظيم هيئته وكمال صفاته سبحانه . .. إن من دخل الإيمان قلبه وعرف طريقه وسلوكه بتقوى وصل دار الأمان وكان من الفائزين .. الله اجعلنا منهم يا رب العالمين ...

"أمر عجيب"

قدمت مرة من أم القيوين - وهي إمارة صغيرة من الإمارات العربية المتحدة وكنت في زيارة لأحد الأحاب عانداً إلى بيتي في الشارقة، ودخلت عجمان حتى وصلت إلى الدوار قرب جامعة عجمان التكنولوجية، فأذن للعصر فدخلت مسجد الجامعة، ولما انتهت الصلاة اتجهت نحو الباب، فلفت نظري أن شاباً عملاقاً ذا لحية لطيفة كان ينظر إليّ نظرات حسبتها فضولية، ولم أعرفه، فسلمت عليه قائلاً في نفسي لعله ينتظر أحد المصلين من إخوانه أو رفاقه الطلاب ، فردّ السلام ، ولما خرجت من الباب رأيته يناديني باسمي: أستاذ عثمان.. أنا أنتظر، فلمّ تجاهلتنني؟

قلت: ومن أنت يا ولدي؟ وأنّى لي أن أعرفك حتى أتجاهلك؟

قال: أنا أحد تلاميذك في ثانوية دبي يا أستاذي.

نظرت إليه متعجباً ثم قلت له مبتسماً: لا أتذكر أن أحد تلاميذي بطول خشبة الكهرباء.

ضحك الشاب وقال: هذه عادتك يا أستاذي، لمّ تغيرها، تدخل إلى القلوب بأسلوبك الفكاهي المتميز.

قلت: أمتأكد أنك أحد تلاميذي؟ كيف كنت تدخل بين الكرسي والطاولة في الصف؟

ضحك الشاب وقال: لن أذكر اسمي لأنك ستعرفه لو نبهتك إلى جملة كنت تقولها لي.

قلت: هات يا ولدي.. وما أظنني أتذكر فأنا كثير النسيان.

قال: لا.. إنك تعرفني جيداً يا أستاذ.. كنت تقول لي: إن اسمك يا ولدي لا يسمى المسلمون أولادهم به في بلاد الشام، فهو خاص بالنصارى، وكنت تقول أيضاً: إنك التلميذ اللببي الوحيد الذي تتلمذ على يديك..

فتحت له ذراعي وقلبي بأن واحد، وقلت له: أهلاً يا (وليد إلياس).. انزل قليلاً حتى أقبل وجنتيك، وأضمك إلى صدري.. كم أنا مشتاق إليك.. كيف غبت عني فلم أعرفك.. حببك هذا الطول المفرط وهذه اللحية المحببة، والشباب الناهد، حفظك الله يا ولدي.

قال والابتسامة تملأ فمه، ووجهه يشرق بالإيمان:

- أتذكر يا أستاذي ما كنت تغرسه فينا من معاني الإيمان ، وأفكار التوحيد؟ أتذكر قصصك الهادفة والأفكار الإسلامية التي غذيتنا بها؟ لقد نما غرسك يا أستاذي وجاء من يقطف ثمرته، فالفضل لله سبحانه في السير على درب الهداية ثم إليك.. لقد كان كلامك نوراً أضاء لي ولكثير من زملائي في الصف فجزاك الله خيراً عنا.. وأجزل لك المثوبة.

كانت الدموع تتساقط بغزارة، وأنا الذي لم تعتد عيناه الدموع إلا وحيداً، كما تساقطت وأنا أسترجع ما قاله لي وأسطر مقالته على هذه الصفحة، وكان قلبي كما هو الآن ينبض بشدة، يا الله إن عملنا معشر المعلمين عمل الأنبياء والمرسلين، اللهم اجعله في صحائف أعمالنا..

ودّعت الشاب على لقاء قريب يشاؤه الله تعالى ونحدده نحن مع بعض رفاقه الشباب، وانطلقت إلى الشارقة عن طريق "النعمية" كان الطريق أمام الجامعة عريضاً مزدوجاً، فما إن انعطفت يميناً في شارع واحد ذي اتجاهين حتى كنت أسير بسرعة ستين كيلو متر في الساعة، وعلى اليسار من الشارع، وسيارة تقترب مني بسرعة أكثر من سيارتي.. لم أنتبه إلا والمسافة بيننا لا تتجاوز الخمسين متراً، وسيكون الاصطدام مروّعاً بقوة مئة وخمسين كيلو متر في الساعة، يا الله يا رب.. وحاولت كبج السيارة ، وكبَحَ الرجل اندفاع سيارته، ثم توقفنا وجهاً لوجه.. اصطدم قلبي بقلبه وارتعش جسمي وارتعش جسمه، لكن السيارتين لم تصطدما، ولم تهتز.. نزلت من السيارة لأرى المسافة المتبقية بينهما..

أتدري أخي القارئ كم كانت؟ لن تصدق إذا قلت لك : كاد صداما السيارتين يلتصقان، بل إنهما ملتصقان، فلم أستطع رؤية الأرض بينهما وسجدت لله سبحانه هو الحفيظ الرؤوف، البر الرحيم.. يا رب لك الحمد، وأنت ولي في الدنيا والآخرة.. ما أعظمك وما أرحمك بعبادك..

إِنْ غَابَ الْعِلْمُ ! فَقَلِيلًا مِنَ اللَّطْفِ (١٦)

أَمَّا أَمْسُ والأَيَّامُ قبله في صلاة العشاء ونافلة التراويح شاب في مقتبل العمر لطيف المعشر ، دمث الأخلاق - ولا نزكي على الله أحداً - وكان المصلون مرتاحين للصلاة وراعه ، والسبب وضوح قراءته ، وحركاته المتأنية ، وتخفيف الصلاة ، فهو يقرأ في الركعة آيات قليلة ، وقد يعلق الإمام الراتب - الأصيل - بعد ركعة النافلة الرابعة على بعض الآيات ، ويترك المصلين يعيشون في ظلالها ، أو يوضح حكماً فقهياً في الصيام وغيره ، أو نهذاً قليلاً مسبحين ذاكرين ، ثم نقوم لتتمة الصلاة . ونسأل الله تعالى القبول .

قام الإمام الشاب يصلي الركعتين السابعة والثامنة ، وسها في قعود الركعة الثامنة فقرأ التشهد فقط ، وقام للركعة الثالثة ، فما نبهه المصلون حتى كان واقفاً ، فلم يعد للقعود ، وصلى الركعة الثالثة ثم الرابعة ، وسلم ، بعدها صلى ركعتي الشفع ، ثم ركعة الوتر ، وبهذا يكون قد صلى عشر ركعات في النافلة - التراويح - وكانت آخر الركعات الأربع متواصلة .

كنت والإمام الأصيل نصلي وراعه ، فلم نعلق على ما جرى ظناً منا أنه قد يمرّ على المصلين مثل هذا - وكثيراً ما يمرّ -

والصلاة صحيحة ، فالرجل يصلي بنا النافلة ، فغير نيته من صلاة ركعتين إلى إتمام أربع ركعات ، وهذا خير من نزوله وقد استوى واقفاً . ولو ظنّ أنه قام إلى الركعة الثانية ، فسلم في الركعة الثالثة لنبهناه إلى ذلك فقام بنا إلى الرابعة ، ثم سجد سجود السهو أسوة بما فعله الحبيب المصطفى حين سها ، فصلى ركعتين وسلم ، فنبهه (ذو اليمين) إلى أنه صلى بالمسلمين ركعتين ، فلما استوثق النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك قام فاتم ركعتين وسجد سجود السهو .

كل هذا لم يحصل ، وكانت صلاتنا صحيحة ، إلا أن بعض المصلين جاءوا يحتجون على خطأ الإمام العظيم الذي خرب عليهم صلاتهم ! تسبقهم اصواتهم العالية ، يصاحبها الضجيج الناتج عن اختلاط الأصوات ببعضها ببعض ، وكأن القيامة قامت ولم تقعد ، ينظرون إلينا ، يسألون ويجيبون بأن واحد . هذا يصيح : لقد أخطأ الإمام ، فلم تقمّوه ، وذلك ينبه إلى أنه وهو في الثالثة والستين من عمره لم ير صلاة مثل هذه الصلاة - وكان الرجل عالم عصره وفقهه أوانه ، قد حاز علوم الأولين والآخرين ، وحواسن صدره وعقله ، إلا ما رآه اليوم من خطأ عظيم يريد له تفسيراً . وثالث يتأفف أن يكون هذا الشاب إماماً ، فهو يجهل أحكام الصلاة ! وكان قبل يوم أو يومين يعلن رضاه عن أداء الإمام ، ولكن ما رآه الآن من خطأ جسيم جعله يغير رأيه !.. ورابع وخامس هذا يسأل ثم يجيب ، ولا أدري لم السؤال إن كان يعلم الجواب ، وعيون بعضهم تقدح غضباً ، وبعضهم يتململ محتجاً أو حزيناً أن يصل المسلمون إلى هذا المستوى المتدني من الفقه والعلم ، وفهم أحكام العبادات !.

صورة التقطتها أمس ، وأحببت أن أنقلها إلى الأخ القارئ ليرى المستوى الذي يعيشه المسلمون المصلون . وسألت نفسي إن كان هذا مستوى من نظن فيهم الخير ، فماذا نقول في مجتمعنا خارج المسجد فيمن لا

يعرفون أبواب المساجد ، ولم يزرهم رمضان في بيوتهم وحياتهم ؟.. أو أنهم لم يسمعوا بمجيئه ، أو لعلمهم ظنوا أن رمضان هذا العام لن يزورنا في هذا الحرّ اللاهب .

ولا أنس أن أقرّ بخطأ ارتكبناه معاً ، الإمام وأنا حين ظننا أن مثل هذا الأمر يعرفه الناس ، فلم يقف أحدنا موضعاً الحكم الفقهي لمثل هذه الحالة بعد الصلاة مباشرة . وهذا دليل آخر على ضعف الإنسان في ظنه وتصرفه ... والإقرار بالذنب فضيلة ، ومحاولة إصلاحه خطوة على الطريق الصحيح أليس كذلك ؟.

الدنيا لأربعة نفر - ١٠

روى أبو كبشة الأنماري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . قال :

١- ما نقص مال عبد من صدقة ،

٢- ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاء ،

٣- ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر - أو كلمة نحوها

وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . فقال : إنما الدنيا لأربعة نفر :

١- عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقي ربه فيه ويصل به رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ،

٢- وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ،

٣- وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهو بأخبث المنازل ،

٤- وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء ،

المحدث: [الترمذي](#) - المصدر: [سنن الترمذي](#) - الصفحة أو الرقم: ٢٣٢٥ / حسن صحيح

- في حديث آخر يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم أن المال بالصدقة يزيد ، وكررها ثلاثاً حين قال صلى الله عليه وسلم : (بل يزيد ، بل يزيد ، بل يزيد) وقد يتساءل أحدنا ، بل قل : - أحدهم ، فالمسلم يعلم علم اليقين أن الحبيب المصطفى صادق لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى - كيف يزيد المال وهو ينقص بالصدقة ؟

قد جربنا وجرب غيرنا هذا ، فعلمنا أن الصدقة تمنع مصيبة قد تحدث ، أو مرضاً قد يصيب ، أو ضرراً قد يقع ، أو حادثة قد تذهب بالمال كله أو بعضه ، ثم إن المتصدق لوجه الله تعالى تظهر البركة في ماله ، وينمو برضاء الله تعالى ، ويأتيه الرزق من حيث لا يدري ، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن ملكين يدعوان ، يقول الأول : " اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً " . والصدقة قرض منك

يتقبله الله تعالى ، ويجزيكه بأضعاف ما أنفقت في الدنيا وفي الآخرة ، ألم يقل الله تعالى " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة " ؟ ومن أصدق من الله قيلاً ؟

- وقد يُظلم المسلم ، يظلمه أخوه ، فيأكل نصيبه أو يغمطه حقه أو يغتابه أو ينم عليه - فليصبر وهو قادر أن ينتقم لنفسه ، فيجزي الظلم بالظلم ، والقهر بالقهر ، فإذا المجتمع ينقلب ناراً تلظى ، والحياة تتحوّل ثأراً والنفوس تزداد بغضاء وشحناء.

- وقد يتسائل أحدنا وما فائدة الصبر على الظلم إذا امتنهن الإنسان ولم يعيش حياة حرة كريمة ؟
فالجواب : إن الحديث لا يُقصد فيه أن يعيش المسلم في جو خائق وظلم محيق ، وانتبه إلى قوله صلى الله عليه وسلم : (ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها) ، هي مظلمة قد تنال المرء عمداً أو عن غير عمد ، ويستطيع أن يأخذ حقه بيديه فيتناسى هذا الحق ليصل إلى هدف أكبر ، إلى درجة المحسن الذي يغض الطرف ليعطي المجتمع المسلم درساً في الأخلاق الحميدة ، وليعلم المظلوم أنه وإن قدر على الانتقام وإعادة حقه فقد دفع بالتي هي أحسن ، فإذا عدوّه وظالمه يعتذر له وينقلب محباً بعد أن كان شائناً . ألم يعلمنا الله تعالى ذلك حين قال " ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يُلقاها إلا الذين صبروا ، وما يُلقاها إلا ذو حظ عظيم " ؟ أما إذا نقشى الظلم في مجتمع فالتصرف المؤدي إلى استعادة الحقوق له طرق أخرى ، لا يقصدها هذا الحديث الشريف ، والله أعلم .

- أما الذي يتخذ من السؤال باباً للغنى فقد أخطأ الطريق ، وضل الصراط المستقيم ، إن المسلم عزيز النفس لا يرضى لها الدون ، وقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً سأله وهو قادر على العمل فأعطاه حبلاً وأمره أن يحتطب ويعيش من كد يمينه ، وأخبرنا أن المتسول يلقاه المسلمون يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم . إن المتسول الذي يلحف في السؤال ويمد يده للناس وهو قادر على العمل يستسهل جمع المال بسؤال الناس لن يشبع ولو جمع المال الكثير بهذه الطريقة لأن الله تعالى يمد له في جشعه ، فلا يشعر بلذة الحياة ، ويعيش - وهو ذو مال - عيشة الفقراء . ومثله البخيل ، ألم نقرأ في المأثور أن البخيل يعيش في فقر خشية الفقر ؟

- أما الحديث الذي نبهنا إليه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " وأحدثكم حديثاً فاحفظوه

فقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يغرّس في قلوبنا مفهوم النية الصالحة ، والعمل بهذه النية ، فهي التي يقبلها المولى عز وجل " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى "

فالرجل الأول ذو مال يصرفه في مجال التقوى وصلة الرحم والصدقات ومساعدة المحتاجين ونشر العلم ، ويستعمل علمه في مرضاة الله ونفع العباد ، فهو في أعلى المنازل .

والرجل الثاني آتاه الله العلم ولم يؤته المال ، فكان يعلم الناس ويعمل بعلمه فيما يرضي الله تعالى ويتمنى أن يؤتيه الله مالاً ليصرفه في وجوه الخير كما فعل صاحبه ، فأجره الله على نيته ورفع به إلى مرتبة الرجل الأول .

والرجل الثالث آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط فيه خبط أعمى ، ويصرفه في المفاسد والخناس والفجور وفي ما يغضب الله تعالى من إسراف وتبذير وصرف في الملذات وغيرها ، فهو في أخبت المنازل وأسوأ المراتب .

والرجل الرابع لا مال لديه ولا علم ، فهو الشيطان الجاهل الذي يتمنى أن يكون له ما يراه عند صاحبه ليفعل ما يفعله من انغماس في اللهو ، وارتكاب للموبقات ، وسعي إلى الرذيلة والفساد ، فهو في نيته هذه ينزل في منازل صاحبه الخبيثة .

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا ، وارزقنا رضاك والجنة .

إنما يتقبل الله من المتقين (٣٠)

كنا نسمع قصة قابيل وهابيل ابني آدم عليه السلام مذ كنا صغارا لا نقرأ ولا نكتب ، نسمعها من أمي ، وكانت رحمها الله ذكية أريبة وشاعرة تنظم المقطوعات الشعرية بلهجتنا العامية سريعا ، وتعلمنا إياها ، وكانت تحفظ قصصا كثيرة تسردها بدقائقتها وكأنها تقرأ من كتاب .

ولم أكن أحب سماع قصة هذين الأخوين ، وأتألم حين أسمعها لما فيها من قطع للرحم وصلف وتكبر يمثله قابيل قاتل أخيه ، ولا أكاد أصدق أن يقتل الأخ أخاه لامرأة ، فيدخل بسببها النار ، وأقول في نفسي : إنني أحب الجمال ، لا شك في ذلك ، أما أن يكون الاستئثار به سبب دخولي النار خالداً فيها - وهذه خسارة ما بعدها خسارة - فأمر لا يمكنني تصوّره .

لكنني رأيت وقرأت وسمعت عن رجال يفعلون كل شيء في سبيل شهواتهم ، لا يرعون عهداً ولا ذمة ، ولا يعرفون حلالاً ولا حراماً ، فالحق ما يريدون ، والعدل ما يرغبون ، والصواب ما يحكمون . يضربون بكل الشرائع والقوانين عرض الحائط حين تمس مصالحهم ، ويدورون حول ذواتهم ، ولا يرون سوى أنفسهم . ولا يرتاحون إلا عندما يجدون الناس يمالئونهم ويحسبون حسابهم ، ويعملون لإرضائهم . وإلا فالويل والشبور وعظام الأمور لمن يمس شعرة منهم أو يخرج عن نطاقهم . أو يرى غير رأيهم .

يتبارى الأخوان في ميزان العدل ، فيقدّم كل منهما قرباناً لربه سبحانه ينتظر الحكم ، وكان عليهما أن يرضيا بما يقسم الله لهما ، فلما خسر قابيل ما كان يرجو هدد وتوعد وأرغد وأزبد ، " قال لأقتلك " وهل يغير القتل من الحقيقة شيئاً ، وما يدل التهديد والوعيد إلا على ضعف النفس أمام الهوى وضعتها في ميزان الرجال . فماذا تقول في امرئ لا يعرف غير البلطجة والعنصرية في الوصول إلى مآربه ؟! رافضاً القبول بما قسمه الله له وحكم ، يعتدي على الأمنين ويسلب حقوقهم ، ويرفع في وجوههم السلاح ، ويحاول إخافتهم والتأثير عليهم ؟

وهل التهديد يغير من الواقع موقفاً ومن الحقيقة شيئاً ؟ تقبل الله من هابيل قربانه ولم يتقبله من قابيل . فهلا سأل هذا الأخير نفسه السبب ؟ بلى إنه سمعه من أخيه حين ردّ على تهديده بطمأنينة عالية الوتيرة " إنما يتقبل الله من المتقين " وكان عليه أن يراجع نفسه ويغير من سلوكه ليتقبل الله منه ، ولن يتقبل الله إلا ممن يلزمون شريعته ، فيعملون بأمره وينتهون عن نواهيه . وما من رجل أطاع ربه إلا رضي عنه وفتح المغاليق أمامه .

ونبهه هابيل إلى أمور عدة منها : أن القاتل يتحمل وزراً كبيراً حين يزهق روحاً في غير حق . وأن كثيراً من ذنوب المقتول - حين يأخذ حقه من قاتله يوم القيامة - يحملها القاتل فوق ذنوبه " إنني أريد أن تبوء

بإثمى وإثمك ... " وأن جزاء القاتل الظالم النار " فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين " وإنها لعقوبة صارمة لا نجاة منها أبد الأبدية . والعجيب أنني قرأت للشاعر النصيري " سليمان العيسى " أن هابيل يتحمل مسؤولية مقتله لأنه صرح باستفازته لأخيه القاتل حين قال " إني أريد أن تبوء بإثمى وإثمك " واستنتج الرجل هذه الفكرة الغبية من كلمة " أريد " فقد كان المقتول مصمماً أن يُقتل ! . وللقارئ أن يحكم على الشاعر الغبي من استنتاجه العبقرى هذا!!

ولم تنفع الموعظة ولا النصيحة التي أسداها هابيل إلى قابيل ، فقد كانت نفس القاتل تسوّل له القتل وتزينه له ، فاغتنم فرصة كان أخوه غافلاً عنه ، فأرداه ميتاً فكان أشد العالمين خسارة ، لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل " لقد سنّ سنة سيئة ، فكان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . قال تعالى مؤكداً هذا المعنى في سورة المائدة " فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) " والنفس أمارة بالسوء تردي صاحبها في المهالك . أفليس على الإنسان أن يفكر ألف مرة قبل أن يُقدم على ما يضره قبل أن يضر غيره ؟! نعوذ بالله من ساعة الغفلة .

قتله ، فهمدت حركته ، وتركه في العراء لا يدري ما يفعل بجثة أخيه . وأراد الله تعالى أن يعلمه كيف يدفن أخاه فأرسل غرابين يقتتلان ، فقتل أحدهما الآخر ، وحفر حفرة في الأرض واره فيها ، فعلم القاتل أنه أقل حيلة وأضعف تصرفاً من هذا الغراب فأحس بالندم جرّاء فعلته ، وندم ، ولعلنا نتساءل : علام كان الندم ؟

حين يخطئ المرء ويندم ويستغفر الله تعالى يغفر الله له . فهل كان ندم هذا القاتل من هذا النوع الذي يُغفر فيه لفاعله ؟ يقول العلماء : إن هذا الندم ندمٌ فقد لا ندمٌ ذنب ، وبصيغة أخرى : إنه ندم على فقد أخيه لا على ذنبه الذي اجترحه . وقد مر قبل قليل أنّ على ابن آدم الأول كفلاً من دمها لأنه أول من سن القتل. وقد روى أبو بكر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم " (سنن الترمذي) ، ولعله ندم أن الغراب كان أذكى منه حين دفن أخاه ، ولم يهتد هو إلى ذلك قبل الغراب .

قال تعالى في فداحة قتل المؤمن دون سبب " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢) " قال ابن عباس رضي الله عنهما : من قتل نفساً واحدة حرمها الله مثل من قتل الناس جميعاً وروى ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير : من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً ومن شد على عضو نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً .

وقد أعجبني قول سليمان بن علي الربيعي ، قال : قلت للحسن البصري : هذه الآية لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل فقال : إي والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دماننا وقال الحسن البصري " فكأنما قتل الناس جميعاً " قال : وزرا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً " قال : أجرا .. نعم فدماء المسلمين أغلى وأكرم .

إنه أخي من دونك - ٩

تروي السيرة أن صاحب لواء المسلمين في غزوة بدر مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وصاحب لواء المشركين أخوه أبو عزيز ، وحامل اللواء من أحرص المقاتلين على النصر ، فهو عرضة للقتل أكثر من غيره ، فسقوطه يعني سقوط اللواء ، وهذه بداية الهزيمة وشؤم النهاية. فلما نصر الله تعالى المسلمين كان أبو عزيز بين الأسرى يقيده أحد المسلمين ، فلما رأى أبو عزيز أخاه مصعباً قال له مستعظفاً ، محرّكاً فيه عاطفة الأخوة والدم : يا أخي وصّ المسلم بي ، لكنّ أوّل سفير لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أنّ لو كان النصر حليف المشركين فلن يرحموا المسلمين ، ولو كانوا ذوي رحم . بل إنهم ما جمعوا الجموع وجيشوا الجيش إلا للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين فلا هوادة معهم ، قال مصعب للمسلم : شدّ عليه يا أخي ، فإن له أماً غنية تفديده . فقال أبو عزيز : أهذه وصاتك بي يا أخي ؟! . رد عليه مصعب بلسان الإيمان وصرامة الموقف قائلاً : صه ، فإنه أخي من دونك .

ذكرني هذا الموقف بموقف أبي الأنبياء عليه صلاة الله وسلامه من أبيه أزر ، وردت قصته في الآية ٧٤ من سورة الأنعام تبدأ بالآية الكريمة :

" وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتتخذ أصناماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين "

فقد وعظ إبراهيم أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال " قال : أتتأله لصنم تعبد من دون الله ، إنك والسالكين مسلكك تانهين لا تهتدون بل إنكم في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم . قالها منبهاً شدة جرم من يتنكب طريق الهداية ويعبد صنماً لا يضر ولا ينفع ، أو يعبد بشراً مثله يأكل ويشرب ، ويصح ويمرض .

وقد ذكر تعالى قصة الولد الصالح والنبي النابه إبراهيم مع أبيه في سورة " مريم " ابتداء من الآية ٤٢ في قوله : " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه :

١- يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟

٢- يا أبت إنني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ،

٣- يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً .

٤- يا أبت إنني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . "

تَقَرَّبَ إليه حين كلمه بلطف الذكي الأريب ناصحاً متودِّداً ، ومنبهاً محذراً من أن عبادة ما لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ، إن ذلك نزول بالإنسان إلى مستوى الدونية ، وأن اتباع الحق أولى ولو كان الناصح أصغر وأسنّ ، فالصغير قد يصل إلى العلم والهداية قبل الكبير ، وأن العاقل يتبع المهتدي أيا كانت مرتبته الاجتماعية ليصل إلى منبع الضياء ونور الحق . إن الشيطان حريص على إفساد البشر وضلالهم فهو عاص لله تعالى ويريد أن ينزل الناس معه ليكونوا معاً في النار والعذاب .. وكان إبراهيم عليه السلام حريصاً على هداية والده ، فمن كان عبداً لله نجا ، ومن كان عبداً للشيطان هلك ، وشتان ما بين أن تكون ولياً لله تعالى أو للشيطان الرجيم .

إلا أن أباه كان سادراً في غيّه ، فعاب على ولده أن يسلك طريقاً غير طريقه ومسلكاً غير مسلكه ، وهدده بالقتل ، ثم طرده " قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً " ،

فما كان من إبراهيم عليه السلام وقد كان لسانه ينطق بالحكمة والنبوة إلا أن أجابه بلطف المقال : " قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً " فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه كما قال تعالى " وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم "

وثبت في الصحيح أن إبراهيم يلقي أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر : يا بني اليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : أي رب ألم تعدني أنك لا تخزيني يوم يبعثون وأي خزي أخزي من أبي الأبعد ؟

ولم يكن الله تعالى ليغفر لمن عبد غيره ، أو أشرك غيره بعبادته ، ألم يقرر سبحانه القاعدة التي أقرها في ملكوته سبحانه " إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً " النساء ١١٦ ...

ونودي إبراهيم - وهو بين يدي ربه يشفع لوالده الكافر - يا إبراهيم انظر ما وراءك فإذا هو بذبح متلطيخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار . لقد انقلب والده خنزيراً قذراً تحمله زبانية العذاب إلى النار . نعوذ بالله أن نكون وقوداً لها ، أو من أهلها .

إنها صلاة التساريح (١١)

نحن بحاجة إلى التوازن في كل شيء ، فتعطي كل أمر حقه إن أردت أن تنال حقه . وتدفع لكل سلعة حقه لتنالها كاملة . ولن أطيل في المقدمة لأن ما يشغلني أو يهمني القضية نفسها .

(ألا إن سلعة الله غالية) هذه جملة ردها النبي عليه الصلاة والسلام مراراً ، والكثير منا فهمها ، ولا أقول إن الأكثر لم يفهموها إنما أقول : إنهم تجاهلوا ، ولم يعطوها حقه . والدليل على ذلك أننا ندخل السوق ، فننتج للبضاعة الجيدة وندفع في اقتنائها ما يناسبها من ثمن ، ولن ينال أحدنا سلعة ثمينة بثمن بخس ، أليس الأمر كذلك ؟ ولن يأخذ بالثمن البخس إلا السلعة المزجاة التي يتدافعها الناس إلا من ضاقت يده عن السلعة الغالية ، فأرضى نفسه بما دونها .

قد يتساءل أحدكم : ما ذا تقصد بهذه المقدمة ، وتدعي أنك تودّ الدخول فيما تبغي طرحه سريعاً ، ودون مقدمات ؟ أقول : إنها صلاة (التراويح) التي يجعلها الكثير من المصلين صلاة (التساريح) ويحرص على أدائها خلف إمام جاهل أو متجاهل - والأمر سيان - بقراءة عجلة وحركات متسارعة ، فينهي صلاة العشاء وسنتها وثمانتي ركعات والشفع والوتر بنصف ساعة ، وكأنه كان في ميدان السبق يلاحقه المأمومون وراءه بحركات متتابعة ، ليس فيها روح ولا تفكر ولا تدبر ، وكأنهم يريدون قضاء مهمة شاقة فُرضت عليهم ، فاستثقلوها ، ولا بدّ من أدائها ، فهي من (بروتوكولات رمضان) ، ومفيدة في الهضم بعد أن يملأ الصائم بطنه أكثر مما ينبغي . وينطلق بعد هذه الحركات الرياضية - أقصد الصلاة (الماراثونية) إلى السهرات الطويلة ذات اللغو المتراكم ، أو المسلسلات الشائقة ، أو البرامج المخصصة للصائمين المساكين الذين منعهم رمضان في النهار من متابعتها ، فلا بأس أن يتابعها في الليل بدل القيام والتهجد واغتنام هذا الشهر الفضيل !!! .

دخلت أمس إلى المسجد بعد أن أدّنت لصلاة العشاء ، وأخذ الإمام في صلاته يقرأ في سورة الأعراف الآيتين أو الثلاث لا يتعدّها في الركعة الواحدة ، وكانت حركاته في القيام والركوع والسجود متوسطة ولم يكن بين الركعات ما يفيد معنى التراويح الذي فقهه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ولا التابعون ، إنما هي حركات رياضية متأنية نوعاً ما .

إلا أن الإمام كما يبدو لا يفقه معنى الآيات التي يقرأها ، فيبدأ القراءة من مكان غير مناسب ويقف والمعنى لمّا ينته ، فلما أنهى الركعات الأربع الأولى من صلاة التساريح (التراويح) قام يسألني إن كنت أود أن أقول شيئاً ، ولم أكن راغباً ، إلا أنني وقفت أذكر لهم أنني كنت يوماً أصلي خلف أحد الأئمة ، فقرأ من سورة مريم حتى قوله تعالى " وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً " وركع ، فانتابتنني قشعريرة ، وأصابني هم ثقيل ، فكيف يركع هذا الإمام قبل أن يُخرج المصلين من جهنم ، أليس من الواجب أن يركع بعد قوله

تعالى " ثم ننجي الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيه جثياً " ، فنكون بذلك بعيدين عن النار وهولها ؟ ما لنا وللظالمين ولسنا منهم .بعون الله ورحمته . وظللت متألماً أرجو رحمة ربي وعفوه إلى أن قام وقرأ الفاتحة ، وأكمل الآية .

ثم نبهت الإمام أنه كان يقرأ قصة إبليس الذي أبى السجود لآدم عليه السلام وقرأ إلى قوله تعالى " قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين " ثم ركع ، وما كان له أن يركع عند المعنى الذي فيه كبر و صلف وقلة أدب مع الخالق عز وجل ، فهذا إبليس يتحدى ويتسافه بحضرة الجليل سبحانه ، وكان ينبغي للإمام أن يقرأ قوله تعالى يوبخ إبليس ويطرده من رحمته ويهدده " قال : اخرج منها مذعوماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين "

وقلت - وقد سمعت من قبل أن الناس يريدون منه أن يسرع - إن الصلاة لقاء بالله تعالى ، فينبغي أن تكون خاشعة متأنية ، فأنت بحضرة المولى سبحانه ، ورضاء الله تعالى غايتنا ، لا رضاء الآخرين ، فمن أحب أن ينال ثواباً ضافياً وجزاء كاملاً فليدفع الثمن ، ولن يأخذ أحداً سلعة غالية بثمن بخس . ومن أحب أن يقيم الصلاة فليترك أهواءه وكسله جانباً ، وليس بين السرعة في هذه الركيعات والتأني سوى دقائق خمس أو ست ، فهل نبخل بتلك الدقائق هنا لنبذرها في مكان آخر .

ولا أدري ألاقت كلماتي هذه آذاناً سمیعة ؟! ... اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد .

إنهم جميعاً سواء

أخذ أحدهم - أمس - بيدي بعد صلاة العصر وسألني : أصبح أن للنساء في الشرع نصيباً في الميراث ؟ نظرت إليه متعجباً من سؤاله ، وكان علي أن لا أتعجب ، فالجهل والعادات الجاهلية تحكمنا بمفاهيمها . فترى الكثير يُصلون خلف الإمام وفي الصف الأول ثم ترى نساءهم كاسيات عاريات ، وتجذب بعض التجار يحرصون على الصلوات في المساجد ، ويسمعون العظات والعبر والأحكام الشرعية في الربا والتهديد الشديد المبطن والظاهر في تحريره ، وتراهم في معاملاتهم غارقين فيه ، لا يتورعون عن أكله والعمل به . والأمثلة عن الجهل الواقع والجهل المتعمد في مجتمعنا كثيرة ، منها سؤال هذا الرجل الذي بلغ الأربعين عن نصيب المرأة في الميراث .

قلت له : إذا مات والد الإنسان فلن يؤول ماله ؟ أتأخذ الدولة أم يُوزع على المساكين أم يكون لقضاء دين المعسر أم لولده ؟ ، قال : لولده ومن خرج من صلبه . قلت أترى أختك بنت أبيك خرجت من صلبه أم جاءت من مكان آخر ؟ . قال : ولكنها امرأة . قلت وما الفرق بين الرجل والمرأة في الحقوق ؟ قال : وهل يجوز أن يخرج المال والأرض من آل فلان إلى غيرهم من الأسر بموت الأب ؟ قلت : وكيف يخرج وهو ما يزال ملكاً لأختك وحدها ، تصرفه كما تصرفه أنت ، وتنميته كما تنميته أنت ؟ . قال تصرفه على أولادها وزوجها . قلت ألا تصرف المال التي ترثه من أبيك على زوجتك وهي ليست من أسرتكم ؟ قال : هي زوجتي . قلت : وهو زوجها . قال وتصرفه على أولاد الغرباء . قلت وهم - أيضاً - أولادها .

قال : إن الأرض التي بذل والدي عمره في خدمتها وزرعها تذهب للغرباء إذا . قلت : إن المرء حين يموت يترك كل شيء لأولاده ، فليس في الإسلام فرق بين الذكر والأنثى وقرأ معي هذه المساواة في سورة " الأحزاب " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِمِينَ وَالصَّانِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) " تجد أن الله تعالى ساوى بين الذكر والأنثى في الحقوق والواجبات . قال : وقد يأخذن كثيراً ؟ قلت إن القرآن الكريم صرح بحق المرأة في الميراث في سورة النساء كثيراً كان الميراث أم قليلاً ، فقال : " لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) " وما علينا - معشر المسلمين - إلا أن نقول : سمعنا وأطعنا راضية بذلك قلوبنا ، قانعة به نفوسنا . قال سعيد بن جبير وقتادة رحمهما الله : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً ، فأنزل الله الآية السابقة توضح أن للرجال وللنساء كباراً وصغاراً حقوقاً ثابتة لا ينتقص منها إلا ضعيف الإيمان جاهلي النزعة الذي يقدم العادات الخاطئة على الأحكام الإلهية ، ويتخذها شرعاً من دون شرع الله ، ثم يزعم أنه مسلم .

بعضهم يأكل حق النساء بطريقة اللف والدوران . فهؤلاء ثلاثة رجال لهم ثلاث أخوات . فحين مات أبوهم قسموا الأرض ثلاثة أقسام وألحق كل منهم نصيب أخت منهن بنصيبه ، فأحدهم أعطى أخته بعض المال ترضية ، والحقيقة أنها لم ترض ، ولكن الحياء أو قل : الخجل أو الخوف من هجران إخوتها لها جعلها تتغاضى عن حقها وترضى بالذي وصلها من أخيها . والثانية كان زوجها غنياً ، فأمرها أن تتنازل عن حقها تجنباً للمشاكل التي قد تنجم عن مطالبتها بحقها ، وكان فيه تقوى ، فعوضها ذهباً وأساور . أما الثالثة فقد بنى أخوها في البداية بيتاً فوق نصيبه من الأرض ، وضم نصيبها صحناً لداره ، فلما كبر أولاده وسع بيته وبنى فوق أرضها غرفاً وملاحق ، فلما كبر أبناء أخته وطالبوا بحق أمهم عرض عليهم ثمن نصيبها من الأرض بالسعر الذي كان قبل عشرين سنة ، ثم جاءني يستحل ذلك قائلاً : هكذا كان ثمن الأرض . فلما نبهته أنه يأكل حقها ادعى أنها لم تطالبه بقطعة الأرض حين مات أبوهما ، وأنها لو طالبت به بحقها ما قصر . قلت له : يا هذا ؛ إن تقسيم الأرض ابتداءً ثلاث حصص أمر فاقع في رغبة الذكور أن يقضموا حق أخواتهن ، وأنت أحدهم ، وقد تناسيت حق أختك ، فأيقظك من سباتك أولادها ولولا ذلك لبقيت متناوماً . إن الأرض بمجملها بعد هذه السنوات تضاعف ثمنها ، فهل ترضى أن تنتفع بذلك وتهضم حق أختك ؟

إن الجميع سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو ولاء . فهذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت هي حدود الله فلا يجوز لأحد أن يتعداها ويتجاوزها . ولهذا قال " ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم " فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة بل نزل على حكم الله وفريضته وقسمته نال رضوان الله وحاز جنته خالداً فيها .

والعجيب أننا كنا في بعض المجالس نتذكر صلة الأرحام وكان أحداً قليلاً ما يشارك ، فأحببت أن يخوض معنا فسألته كم مرة في الشهر تزور أخواتك ؟ ففاجأني أن له أختاً واحدة لم يزرها منذ أن مات والدها منذ اثنتين وعشرين سنة . فلما صُدمت لهذا الجواب المفاجئ سألته السبب فقال : إنها طالبت بنصيبها من الميراث . والعجيب أنه لم يقاطعها بعد أن أعطاه نصيبها ، إنما قاطعها لأنها طالبت بحقها ولم يعطها شيئاً .

إن ما ذكرته غيظ من فيض ، ولا يعني هذا أن الغالبية من المسلمين على هذا المنوال من قطع الرحم وأكل حقوق المرأة . إنهم قليلون إذا قورنوا بالملتزمين حدود الله . لكنهم إذا عدتهم كثيرون ، وخاصة في القرى والبادية لتفشى الجهل في تلكما البيئتين ، وللذكورية الفاقعة فيهما .

فهل من عودة إلى شرع الله وهديه؟ وهل يتذكر أمثال هؤلاء أن الدنيا فانية ؟ وأن الموت قاب قوسين من البشر أو أدنى ؟ هدايا الله إلى مرضاته والعمل بشريعته ، وأعاننا على ذلك .

آه ، لو أنني أعرف لغته (١٧)

تبدو عليه سيماء اللطف والذوق ، يلقاك بابتسامة ترتاح لها ، ويحييك رافعاً يده كلما دخل مكاناً كنت فيه ، ويلفظ كلمات أفهمها تدل على السلام والترحيب ، أستطيع أن أفهم كثيراً مما يقول لأنني درست لغته الإنجليزية حين كنت طالباً في المدرسة ، لكنني لا أستطيع أن أكلمه أو أجاريه في حديثه كما يفعل من عاش في بلده أو تعلم فيها أو كان من أهلها .

رأني أصلي فسألني عما أفعل ، فقلت له أنا مسلم ، فبدأ يسألني عن الإسلام ، وكنت قادراً على حوارهِ وتعريفه بالإسلام لو كنت أحسن لغته ، وتألّمت مرتين ، أما الأولى فلأنني لا أملك أداة الحوار فأروي ظمأه في معرفة ديني ، وأما الثانية فلأنني عاجز أن أقوم بواجب الدعوة في أرض خصبة لا يعرف الكثير من أهلها حقيقة الإسلام .

يقولون: من تعلم لغة قوم أن مكرهم ، وأزيد قائلاً : من تعلم لغة قوم دخل إلى حياتهم ، وعرفهم بالله تعالى ودعاهم إلى عقيدة التوحيد ، فهدى الله على يديه أقواماً وأنقذهم من النار ، وأقام الحجة على الآخرين وأعذر إلى الله . أما أن أرى نفسي مكتوف اليدين في موقف يمكن أن ترى نور الإسلام فيه مشعاً فأمرٌ يحز في النفس ، وتصورت نفسي في نهر يعجّ بالأسماك بين يدي ، وأنا عطل من شبكة الصيد .

آه لو كنت أحسن لغته ، ولكن : ليت ، وهل تنفع شيئاً ليت ؟ ! .

كنا ندرس اللغة الأجنبية لننجح آخر السنة ، ليس غير ، ولم نكن ننظر إلى البعيد ، كنا قاصري التفكير آنبي الهدف ، ولم يكن من ناصح يعلمنا التفكير السليم ، المتقدّم النظر إلى الهدف البعيد ، أو قراءة ما وراء السطور في صفحات حياتنا . ولم نكن نعلم في باكورة أيامنا الهدف الحقيقي من الحياة ، وكان الجهل قاسماً مشتركاً في بيتنا آنذا .

وتقودني هذه الذكرى إلى أن أمسك القرآن الكريم وأقرأ في سورة إبراهيم " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) " وأنتبه إلى حكمة إرسال الأنبياء إلى أقوامهم حصراً ، فهم يتحدثون بـ " بلغتهم " ويعلمون منها كل شاردة وواردة ، وهم بهذا الأقدّر على الدعوة إلى الله ومخاطبة الناس بما يفهمون ، وأذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه " " لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغته قومه " وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم فاخص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم قال ابن كثير رحمه الله : هذا من لطفه تعالى بخلقهم أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريد ربهم منهم .

فلما كانت رسالة الإسلام عامة ، وقد كانت الرسائل قبله خاصة أرسل الله تعالى نبيه الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم للعرب والعجم وغيرهم فقال تعالى : " " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً " [سبأ : ٢٨] .

قال القرطبي رحمه الله في هذا : ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية ؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الحجة ، وقال صلى الله عليه وسلم : (أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه) . وقال صلى الله عليه وسلم منبهاً إلى عالمية الإسلام : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) . أخرج مسلم . فأكد أن الدين عند الله الإسلام ، وأن على الأمم الأخرى من أهل الكتاب أن يتبعوه ليكونوا من أهل الجنة ويفوزوا برضا الله تعالى .

يروى أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : ... ٥ - وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة . "

وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم مؤكداً عالمية دعوة الإسلام " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " . فإذا بالعجم يحملون الدعوة إلى أقوامهم كما نزلت على الحبيب المصطفى طرية كاملة لا نقص فيها ولا كدر .

حدثني أحد الشباب من تلاميذي أنهم كانوا ثلاثة من الشباب ذهبوا إلى دار صديق لهم في ولاية أمريكية تبعد عن مدينتهم ساعتين ، وكان موعد زيارتهم له عند المغرب ، فلما وصلوا إلى بيته قبله - وكان في عمله وعاد من طريق مزدحم - صلوا المغرب في حديقة عامة قريبة من داره ، وأمهم أحدهم . ولما رأى المارة ما يفعلون أوقف الفضول بعضهم فسألوهم عما كانوا يفعلون ، فأخبروهم أنهم مسلمون وقد كانوا يصلون ، فتعجب هؤلاء الأمريكيون من صلاتهم في مكان عام ، وهم يصلون في الكنائس فقط .

ودار حوار بين هؤلاء الثلاثة ، وبين الأمريكيين - عددهم سبع عشرة بين رجل وامرأة - وانضم الرابع إليهم حين وصل وكانوا يحسنون الإنجليزية بطلاقة زهاء ساعتين ، فأمن سبعة وأعلنوا شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " ووعدهم خمسة أن يدرسوا الإسلام ويتعرفوا عليه ، فكان تأخر صاحب البيت عن الوصول إلى بيته في الوقت المناسب خيراً وبركة ، فقد كان المكسب عظيماً لقد هدى الله للإسلام من هدى ، وإقامة للحجة على الباقي

اهدنا الصراط المستقيم (٣)

(هدى) : في مختار الصحاح : الهدى الرِّشَاد ،

يقال هَدَاهُ اللَّهُ لِلدِّينِ يَهْدِيهِ هُدًى. وقوله تعالى (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) قال أبو عمرو بن العلاء معناه أولم يُبَيِّنْ لَهُمْ. وَهَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ وَالْبَيْتَ هِدَايَةً عَرَفْتُهُ هَذِهِ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ. وَغَيْرُهُمْ يَقُولُ هَدَيْتُهُ إِلَى الطَّرِيقِ وَإِلَى الدَّارِ. وَقَدْ وَرَدَ (هُدًى) فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوَاجٍ:

١- مُعَدًى بِنَفْسِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) وقوله تعالى: (وَهْدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

٢- وَمُعَدًى بِاللَّامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) وقوله تعالى: (قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ).

٣- وَمُعَدًى بِأَلْيِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ).

والهدى من الله تعالى (من يهدي الله فهو المهتد) وعلى هذا ندعو الله تعالى أن يهدينا إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

دعاني إلى كتابة هذه الخاطرة أن نصرانياً دخل إحدى غرف البالتوك المسلمة ، وطلب الحديث ، فلما ملك اللاقط قال : إنكم معشر المسلمين ضالون ، وتعترفون بضلالكم ، فإننا نراكم تدعون باستمرار " اهدنا الصراط المستقيم " ولو لم تكونوا ضالين لم تجأروا بالدعاء المتتابع طالبين الهداية . أما نحن النصاري فقد تأصلت الهداية في قلوبنا ، فلسنا ندعو لأنفسنا بالهداية ، إنها ممتزجة فينا ، وما يطلب الشيء إلا فاقده .

أقول : إن المسلم يقرأ الفاتحة سبع عشرة مرة في صلاة الفرض ، ناهيك عن السنن الرواتب والنوافل والوتر ، ويكثر من قراءتها كلما حزن الإنسان أمر فالتجأ إلى الله تعالى ينشده العون والمغفرة والهداية . وليس الإكثار من طلب الشيء يعني فقدانه وعدم الحصول عليه . إن لطلب الهداية المستمر معاني عديدة ، لا يعرفها إلا ذوو الإيمان الحي في القلوب الشفافة .

من هذه المعاني :

١- أن تتجذر الهداية في القلوب وتنمو في الأفئدة ، ويبتعد الضلال حين تضيء النفوس بنور الإيمان ، وتغذي بنسغه الريان الدافق .

٢- إن الإيمان يزيد وينقص . يزيد بالتقوى والعمل الصالح ، وينقص بالتكاسل والانحراف عن النهج القويم ، وقولك المستمر " اهدنا الصراط المستقيم " دعاء من الأعماق أن يثبت الإيمان في قلب المؤمن ثم يزداد بالتقوى والعمل الطيب .

٣- وتكرارنا " اهدنا الصراط المستقيم " دعاء يتجه بالعباد بإخلاص إلى المولى سبحانه أن يهدينا للعمل بكتابته وسنة نبيه ، فهو الميزان الحقيقي للإيمان الصحيح ، فالله تعالى لا يقبل إيماناً بلا عمل ولا عملاً بلا إيمان .

٤- وحين تحضر المرء وفاته فهو بين طريقتين مختلفتين ، الأول يقود إلى رضى الله والجنة ، والثاني يؤول إلى سخطه والنار ، ومن دعاء المسلم الذي لا ينفك يدعو به " اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها " وقولنا " اهدنا الصراط المستقيم " دعاء حثيث يدفع إلى الموت على ملة الإسلام فـ " إن الدين عند الله الإسلام " ، " ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه " .

٥- وفي القبر – أولى مراحل الآخرة – يستقبلنا الملك يسألان كل ميت ثلاثة أسئلة عليها مدار حياتنا الأول ومآل حياتنا الأخرى : من ربك ؟ ما دينك ؟ ماذا تقول في الرجل الذي بعث إليكم ؟ والهداية الربانية التي عشنا في رحابها طيلة أعمارنا تتكفل في قول الإجابة الصحيحة : الله ربي لا إله إلا هو الخلق بالعبادة ، الجدير بالحب ، عشنا له وبه ، هو الذي تتجه القلوب إليه سبحانه من إله عظيم . وديننا الإسلام لم أكن أرضى عنه بديلاً ، عشت في رحابه ، فكان البلمس لنفسي والنور لقلبي ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حبيبي وشفيعي ، آمنت به نبياً كريماً أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة . وهدى الله به الأمة وكشف به الغمة . وبهذه الهداية يكون قبر المسلم روضة من رياض الجنة .

٦- ومن الهداية – أيضاً – أن يكون للمسلم نورٌ في ظلمات ذلك اليوم الطويل المهلوق وقرأ معي قوله تعالى في سورة الحديد " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم " ونحن نطلب الهداية لذلك الموقف العظيم .

٧- ومن الهداية أيضاً أن يحوز المسلم كتابه بيمينه ، فيسعد السعادة الكبرى ويباهي بذلك ، وقرأ قوله تعالى في سورة الحاقة موضحاً ذلك الموقف البهيج " فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابه ، فهو في عيشة راضية في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية " . إنها هداية رائعة أن ينال المسلم كتابه بيمينه ، اللهم اهدنا لذلك يا رب وتكرم علينا .

٨- ومن الهداية أن ينجو المسلم من النار وهو يجتاز الصراط المستقيم ، ألم يقل الله تعالى " وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً "؟ ولا بد من الرجاء لله تعالى أن ينجينا من النار حين نكون على الصراط ، والتعيس من كبا به عمله وحظه ، فهو في جنة فيها وكان من أهلها والعياذ بالله تعالى منها .

لهذا وغيره من المعاني الثرة يجد المسلم يدعو ربه ليلاً ونهاراً أن يهديه الصراط المستقيم ، وأن يُديم عليه نعمة الهداية

ومن ادعى الهداية فقد سقط في سوء أعماله وخطل تفكيره ، ولن ينفعه إذ ذاك فلسفته القاصرة ولا تفكيره الضحل ..

وقد أفلح من عاش في رحاب " اهدنا الصراط المستقيم "

تصوير الحياة (٢٣)

تعال نصوّر ما يجري أمامنا من فوق ناحية البحر ، من ارتفاع بخار متصاعد من مائه ، يبدو خفيفاً يكاد لا يُرى إلا إذا أمعنا في النظر . يظل مرتفعاً قليلاً قليلاً ليبلغ بعد ذلك عنان السماء ، فإذا به يتجمع خيوطاً دقيقة بيضاء يلمحها الناظر دون عناء ، ثم نرى هذه الخيوط تتشابك بلطف وهدوء فإذا بها قطن مندوف رقيق الحاشية تتخللها زرقة السماء الصافية ، وترى هنا وهناك مثيلات لها تتجمع قريباً منها أو بعيداً .. ثم تراها تتقارب بفعل الرياح المتحركة حولها ، فإذا بها غيمة بيضاء رقيقة تكبر وتنمو وتتحرك ببطء نحو الشرق ، وقد تقف قليلاً لينضم إليها رقيقات الحواشي التي كانت قبل قليل مثلهنّ ، وتكبر الرقعة البيضاء وتتسع رويداً رويداً مساحة وسماكة ليتغير لونها إلى الرمادي الخفيف بلحوق قطع الغيوم الأخرى بها أو بأخواتها حتى تراهنّ يملأن السماء الفسيحة ويتزاحمن فيها ، ولعل بعضها يعلو بعضها حتى تصبح سوداء أو مثل ذلك ، وتمنع عنا رؤية السماء ، فإذا بالنور يضعف والهواء يشتد فيدفع هذه السحب نحو الشرق بقوة ، ولعل بعضها يصطدم بالأخرى فإذا بضوء ساطع قويّ يصدر عنها يملأ جنبات الأرض ، ثم تسمع صوت الرعد مجللاً مدوياً كمداغ الحرب الضخمة العملاقة ، ولكننا لا نرى قذائف الدمار تحطم الأبنية والمنشآت ، بل نحس بقطرات المطر تتوالي برفق فوق رؤوسنا ، وتتوقف على ثيابنا ، فإذا ما زادت قليلاً بدأت ثيابنا تتبل ، وبدأت حبات الغيث تمتزج بالقشرة الأرضية من تربة جافة ، فإذا رائحة الأرض طيبة النسيم تخرق خياشيمنا ، وما أطيبها من رائحة ، ثم تنقلب القطرات طلاً يتوالى دقائق ثم ينقلب وإبلاً فيختلط بالأرض ، ثم يخرقها ، ثم يسيل عليها .

وتشرب الأرض العطشى ماء الحياة ، وترتوي جنباتها ، فتنتشي بعد أيام أو أسابيع وتتشقق ليخرج منها الزرع والخضرة فئاكل ، ولتكتسي الأشجار حلة قشبية ، ثم تتدلى ثماراً وأعناناً فنتذوق ، ويمتلئ ضرع الحيوانات ألباناً وتكتنز لحماً ، وتتجمل جلوداً وفروات ، فتكون حياة للإنسان ورزقاً وسعادة . ، وقد كان قبل أن ينزل الغيث ينظر إلى السماء راجياً رحمة ربه وفضله وخيره .

ثم تسطع الشمس من جديد وترسل اشعتها ، فإذا بالأخضر يصفرّ وإذا بالماء ينحسر ، وإذا بالحياة تبدأ دورة جديدة مستمرة إلى ما شاء الله أن تستمر ...

يقول تعالى مصوراً ما ذكرته قبل قليل بأسلوب تصويري بديع يدل على عظمة الخالق سبحانه

١- " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ

٢- فَتُثِيرُ سَحَابًا

٣- فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ

٤- وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۝

٥- فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) " وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩)

٦- فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ

٧- إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ۖ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) " من سورة الروم

هكذا - أخي الحبيب - يخرج الله تعالى الحي من الميت ، وهكذا يعيدنا حين يشاء - سبحانه - إلى الحياة في اليوم الآخر الذي حدده ، ووعدناه . فأمن به ذوو البصائر ، وغفل عنه أصحاب القلوب الميتة .

إن المولى الجليل خلقنا من عدم ، أفلا يحيينا من وجود ، والوجود أسهل من العدم ، وكل أمر سهل إذا أراد الله تعالى ، وانتبه معي إلى هذا النداء العلوي الذي يأخذ بالألباب ، فيفهمه من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُكَ " (٤٣) " سورة الروم. فهل بعد هذا من وضوح ؟؟؟

اللهم إننا آمنة بك وبذلك اليوم وبرسلك وملائكتك وكتبك ، فاقبلنا ولا تردنا خائبين .

جبريل عليه السلام واليهود - ٥

يقول الله تعالى في الآية ٩٧ من سورة البقرة " قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) "

سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي ، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال : (جبريل) قالوا : ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ، ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعتك ، فأنزل الله الآية إلى قوله : " للكافرين " أخرجه الترمذي . من تفسير القرطبي رحمه الله تعالى . وقال المراغي رحمه الله في تفسير الآية : إن أحد علماء اليهود وهو عبد الله بن سوريا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي ، فقال : هو جبريل . فقال ابن سوريا : هو عدو اليهود لأنه أنذرهم بخراب بيت المقدس ، فكان ما أنذر به .

ولا شك أن هذا منهم دليل على خطئ الرأي وعدم التدبر ، ، وإنما ذكره الكتاب الكريم ليستبين للناس حُجج أهل الكتاب ويعرفوا مقدار مرائهم ، وسخفهم في جدلهم ، وأنهم ضعاف الأحلام ، قليلو التبصر في عواقب ما يقولون ، وذلك لأسباب عديدة منها :

١- أن عداوتهم لجبريل عليه السلام قائمة على الوهم والغباء وعدم التبصرة ، فليس جبريل من خرب بيت المقدس ، والذي خربها اليهود أنفسهم بتكبرهم سبل السلام وابتعادهم عن العمل بالتوراة وفسقهم ، فسلط الله تعالى عدوهم عليهم لفسادهم ، وما كان جبريل عليه السلام سوى منذر وناصح ، فلما لم يستقيموا دمر الله عليهم مدينتهم .

٢- أن ميكائيل نفسه لو أمره الله تعالى أن ينذرهم لفعل ، فالملائكة عليهم السلام " لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون " .

٣- أن اليهود عاصون لله تعالى لا لجبريل ، فهو سبحانه يحدد الرسل ويختارهم لتنفيذ ما يأمر ، وهو الذي يدبر الأمر ، وما على الملائكة سوى الطاعة ، وفي هذا يستوي الملائكة كلهم ، كما أن لكل ملك عملاً يؤديه كما رُسم له .

٤- أن من غباء اليهود وفساد عقولهم وسواد قلوبهم أنهم يريدون أن يفرضوا على العزيز الحكيم الأنبياء الذين يريدون والملائكة الذين يتخيرون ، وإلا استنكفوا عن عبادة الله ، وخالفوا أمره . وكأنهم المنعمون المتفضلون على الله تعالى بعبادتهم إياه . أليسوا هم من أساءوا إلى مقام الله تعالى فقالوا : " يد الله مغلولة " ألم يدعوا الغنى واستهزئوا بالذات الإلهية حين قالوا " إن الله فقير ونحن أغنياء " فكان التهديد من الله على جرأتهم على الله تعالى في الآية الأولى " غلت أيديهم ولعنوا بما

قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء " وكان الجواب على الثانية قوله تعالى " سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد " وهو تهديد شديد لليهود الملعونين لكفرهم وسواد قلوبهم وسوء أعمالهم .

ويكرم الله تعالى سفيره الرائع جبريل عليه السلام حين يرفع من قدره فيجعله أميناً على رسالاته للأنبياء جميعاً " قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . " ، وهو الذي كان رفيق الرسول صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى بيت المقدس وإلى السماء ، وهو من قاد ألفاً من الملائكة مسؤمين في غزوة بدر . وأكرمه الله تعالى حين قرر أن من عادى جبريل كمن عادى الله تعالى ، فكان كافراً " من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين " . كما أنه سبحانه ضمه إليه في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم في سورة التحريم حين قال : " وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير " .

إن الله تعالى مدح جبريل عليه السلام في القرآن الكريم فقال: " علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قال قوسين أو أدنى " وقال " ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى " . لكم حبي ووديلكم حبي وودي

اللهم إننا معشر المسلمين نحب أمينك على رسالاتك سيدنا جبريل عليه السلام ، بحبك أنت يا رب العالمين . اللهم فبلغنا بهذا الحب رضاك والجنة ، واحشرنا مع حبيبك المصطفى صلى الله عليه وسلم آمين مطمئنين في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظله . وارزقنا الفردوس الأعلى بفضلك ومنك يا أكرم الأكرمين ... اللهم آمين يا رب العالمين .

خطوات الشيطان (٢٠)

لو نظرنا في القرآن الكريم وهو يحذر من الشيطان لوجدنا التحذير من (خطواته) . لا من الشيطان مباشرة فالشيطان خبيث في طرائق إغوائه البشر ، يعرف ضالته منهم ، فيدخل لكل واحد من الباب الواهي الذي تقوى فيه أهواؤه ورغباته ، فيدغدغ مشاعره ، ويمنيّه ، ويلبس عليه الأمور ، فإذا رآه صد عليه باباً لم يمل منه ولم ينصرف عنه ، إنما بحث عن باب آخر ينفذ منه إليه ، ولا ينفك عنه مادام حياً . ألم يخبرنا الله تعالى عن دأب الشيطان في بذل كل الطرق لإغواء الإنسان ، فقال في سورة الأعراف " قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَفْغَدَنَّ لَهُمْ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَيَسَّرُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) " فعن عن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال فعصاه وأسلم ، " قال " قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال : تقاتل فتقتل فتتجك المرأة ويقسم المال ؟ ، قال فعصاه وجاهد " . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة " . من كتاب عمدة التفسير (غريب) .

فالشيطان لا يألو يكيد للإنسان فهم عدوه الأول وبسببه خرج من الجنة ، ويسعى بكل ما يستطيع هو وأتباعه إلى أن يأخذ الإنسان معه إلى النار " قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " .

وذكر التحذير من خطوات الشيطان - في القرآن الكريم - أربع مرات

١- في سورة البقرة " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) . " تنبه للأكل الحلال والبعد عن الحرام .

٢- في سورة البقرة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) . " تحت على الدخول في الإسلام ونبذ وسوسات الشيطان .

٣- في سورة الأنعام " وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) . " توضح أن الله خلق الأنعام للأكل من لحومها ونشرب من ألبانها ، فهي رزق سخره الله تعالى للناس .

٤- في سورة النور " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ

يَشَاءُ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) . " فالشيطان يحب الفاحشة ويدعو إليها ، ويزين المنكر ويسهله ليقع الناس فيه ، ومن لجأ إلى الله أعاده من الشيطان ووسوساته .

والملاحظ : ١- أن الآيات الثلاث الأولى انتهت بتنبيه مهم جداً ومباشر هو مِلاك الفكرة في الآيات " إنه لكم عدو مبين " فعداوته واضحة بيّنة لكل ذي عينين .

٢- أما الآية الرابعة فنبتت بطريق غير مباشر لعداوة الشيطان لنا ، وكأنه لوضوح التحذير مباشرٌ ، " فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " أفلا يكون عدواً مبيناً ؟ .

الشيطان لعنه الله مُرَبٍّ ، نعم هو مُرَبٍّ ، ولكنه شرّير يربي أتباعه على الكفر والفساد ، ويشدهم بالتدرّج إلى المهالك لينكسوا على رؤوسهم في جهنم معه ، ثم يتبرأ منهم كعادة الخبيثين في كل زمان ومكان . يدّعي الإصلاح ليوقع أصحاب الأهواء في حباله . يتابعهم خطوة خطوة ويمتّيعهم مرة وراء مرة ، ويقسم لهم أغلظ الأيمان ليضلهم عن سبيل الله

وإليك هذا المثل في الإغواء بـ (خطواته المتدرجة) : فالشيطان لا يأمرك بالزنا مباشرة لأنك ستعرف مقصده وتتعوّذ منه فوراً . وهو يريد ابتداء أن يكسب ثقتك ،

- انظر إلى هذه الفتاة الجميلة .
- أعوذ بالله ، إنه الفساد بعينه .
- ولم يا صاحبي ؟
- إن النظرة سهم قاتل من سهامك يا إبليس .
- هل تراني أسدد السهام إلى قلبك؟!!
- إن النظرة بريد الزنا ، يشغل القلب ، ويبعده عن الله .
- أنا لا أريد أن تصل إلى هذا صدقتي .
- كيف أصدقك وأنت تأمرني أن أنظر إليها ، والعين تزني ، وزناها النظر .
- إن الله جميل يحب الجمال ، وأنت رجل مؤمن يزيدك النظر إلى صنع الخالق الجميل إيماناً ، ويزيدك تقوى . فانظر إليها يا رجل واذكر الله تعالى ... ينظر إبليس إليها ، ويذكر الله مظهر الخشوع .
- ينظر الفتى إليها فيشدهُ جمالها ، ويذكر الله بقلبه ، ثم بلسانه فقط لأن إبليس يتمثل بها ، ويبدأ بإغوائه .
- ابتسم لها يا رجل .
- أعوذ بالله منك ، كيف ابتسم لها ؟
- كيف تبتسم لها؟! ! أتجهل طريقة الابتسام؟!!
- لست أقصد هذا ولكن الابتسامة دعوة لها أن تجاملني . وبدء بحديث .
- أنسيت أن تبسمك في وجه أخيك صدقة؟
- هي ليست رجلاً ، إنها امرأة ، وقد يتقدم المرء بالابتسامة خطوة أخرى .

- إنها أختك في الله . بل إن تبسمك في وجهها جزء من الدعوة إلى الله تعالى .
 - ويبتسم لها . فتبادلته الابتسام ويحييه إبليس المتمثل بها بابتسامة عريضة تأسره وتستجر قلبه وعقله .
 - رأيت الحب الأخوي الطاهر أيها المتزمت؟
 - نعم إنه لطاهر حقاً - يقولها مشدوداً إليها راغباً بها ، منعطفاً إليها .
 - ألا تسلم عليها أيها الأبله؟! إنني أدعوك إلى شعيرة إسلامية ضاعت منك .
 - يا أيها الشيطان تكاد توقعني في حبانك .
 - أنسيت يا رجل قوله تعالى " فسلموا على أنفسكم تحية من الله مباركة طيبة " وهي منكم معشر المسلمين ، ومن أنفسكم .
 - يسلم عليها .. و.. و..
- قال شوقي :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
هذه واحدة من خطوات الشيطان ، والقياس واضح بين أخي الحبيب .

رب العالمين (٢)

نقرأ في سورة الفاتحة " الحمد لله رب العالمين " ، وقد يتساءل أحدهم – وليكن صاحبكم عثمان – لِمَ قال سبحانه : (رب العالمين) ، ولم يقل رب العالم ؟

بعضهم يقول إن الناس عالم ، والحيوان عالم ، والنبات عالم ، والحماد عالم ، فالمجموع (عالمون) أو عوالم فهو سبحانه رب العالمين ...

ويقول بعضهم : والشياطين عالم آخر والملائكة كذلك ، وهؤلاء أجزاء من العالمين .

ويقول آخرون : إن الشمس والكواكب والأرضين والمجرات والأفلاك عوالم نضيفها للعوالم الأخرى ، وهو سبحانه ربها جميعاً .

ويُضاف إليها كذلك السماوات السبع بمن فيها من مخلوقات لا يعلمها إلا الله تعالى ، فيتسع العالم إلى أضعاف الأضعاف فإذا العالم يرحب ليكون عوالم كثيرة .

قرات في مجلة حضارة الإسلام التي كانت تصدر في دمشق عام ١٩٧٠ مقالاً يذكر فيه علماء الفلك أن قطر السماء الدنيا سبعون مليار سنة ضوئية ، ثم يعقبون قائلين " وقد يكون أضعاف هذا والله أعلم – " .

وفي عام ٢٠٠٢ أقرأ مقالاً للعلماء يقولون إنهم اكتشفوا أن قطر السماء الدنيا ١٤٠ مليار سنة ضوئية ، ثم يعقبون كذلك " وقد يكون أضعاف هذا والله أعلم " .

أما في العام ٢٠٠٥ فقد اكتشف الفلكيون مجرة قطرها خمسون مليار سنة ضوئية ، ولا ننس أن بين المجرة وأختها أضعاف أضعاف مسافة قطرها . وهذا يعني أن قطر السماء الدنيا لا يُقدَّر ، وإذا علمنا أن السماء الدنيا للسماء الثانية كحلقة في فلاة ، والسماء الثانية للسماء الثالثة كحلقة في فلاة ، ... وأن السماء السابعة لكرسي الرحمن كحلقة في فلاة وإن الكرسي للعرش كحلقة في فلاة ، وأن العرش لعلم الله كحلقة في فلاة – هكذا أخبرنا الصادق المصدوق – أيقنا أن الله ربُّ العالمين لا رب العالم فقط ، وفهمنا قوله تعالى في سورة الفاتحة " الحمد لله رب العالمين "

يروى القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير سورة " فصلت " حين يتحدث في تفسير قوله تعالى " ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين " أن موسى عليه السلام سأل ربه : لولم تأتيا طائعتين ما أنت فاعل بهما؟

فقال تعالى : أسلّط عليهما دابة من دوابي فتبتلعهما .

قال موسى : يا رب؛ فأين دابتك ؟

قال : في مرج من مروجي .

قال موسى : يا رب ؛ فأين مروجك ؟

قال : في علم من علمي .

وتوقفت ملياً في ملكوت هذه المحاورة القصيرة بين رب العالمين ومخلوق كريم من مخلوقاته . فارتعدت
مستصغراً نفسي ومن حولي ، موقناً بعظمة الخالق جل شأنه

وقلت : لا إله إلا أنت سبحانك .. أنت رب العالمين

... على أن تأجرني ثماني حجج ... (٢٥)

أتلو قوله تعالى في صورة القصص على لسان الرجل الصالح في (مدين) يخاطب أو يخطب الشاب موسى عليه السلام لابنته " قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) " سورة القصص

أقف عند هذه الآية الكريمة فأرى فيها السياسة والاقتصاد والحالة الاجتماعية والحاجات الإنسانية مجتمعة بشكل متناسق ، فقد وصل هذا الشاب المتميز إلى مدين هارباً من بطش فرعون وجوره ورأى فتاتين تنتظران أن ينتهي الرجل من سقي أنعامهم ليبدأ دورهما في ذلك ، فهما عقيقتان لا تختلطان بالرجال ، ولعل أسرتهما ليس فيها رجال يقومون بهذه المهمة (الرعي) فاضطرتا إلى هذا العمل المرهق . فيسقي لهما ، وتأبى أخلاقه العظيمة أن يستغل عمله في الحديث معهما ، فيتولّى إلى الظل ويسأل الله أن يحفظه في غربته ويجد له من فضله الكبير مخرجاً . فيدعو بهذا الدعاء الذي سرعان ما وصل فكانت الإجابة فورية " رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير (٢٤) " .

وينطلق هذا الشاب خلف الفتاة إلى أبيها – ولعلك أخي الحبيب تقرأ مقالي " تأملات تربوية في سورة القصص " فتضح الصورة أكثر – ويقص الشاب على أبيها قصته مع طاغوت مصر ، فيطمئنه أن سلطان هذا الفرعون لا يصل إلى مدين ، فهو الآن في أمان .

وحين يتعرف الأب القصة يجد في ملامح هذا الشاب المؤمن الجريء الخير ، وهو بحاجة إلى شاب يقوم على خدمة الأسرة ، ولن يجد خيراً منه يعرض عليه عرضاً يجعله من أركان أسرته . إنه يخطبه لإحدى بنتيه ، وليس من العيب أن يتخير الأب لابنته زوجاً صالحاً كما يتخير لولده زوجة صالحة ، بل إن تخير بعل الزوجة أهم وأفضل من البحث عن زوجة للابن ، فللزوجة القوام ، وهو المسيطر على البيت وسيد ، فإن كان صالحاً ارتاحت الزوجة وإن لم يكن عاشت في ضنك وتعاسة ، فطلب المرأة الطلاق عزيزٌ وصعبٌ .

وتعجبني كلمة " إني أريد " فقد ألقى في هذه الكلمة بكل ثقله . ومن يرغب عن زوج لإحدى ابنتيه فيه مثل صفات موسى عليه الصلاة والسلام؟! وكأنه بهذه الكلمة يفتح الباب أمام موسى على مصراعيه ليختار إحداها دون حرج ، فهناك بيت يسكنه وزوجة طيبة وعمل يكسب منه قوته ، وشيخ صالح يستفيد من حنكته وخبرته في الحياة . واختار الصغرى كما ذكر المفسرون ، وكان قولها لأبيها " يا بت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين " دليلاً على رضاها عن صفتين رأتها فيهما (القوة والأمانة) وهذا ما تريده المرأة في الرجل زوجاً وأباً وأخاً وولداً . والنكاح سنة النبي صلى الله عليه وسلم " ... وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " وما أودع الله رغبة الرجال في النساء ورغبة النساء في الرجال إلا لتستمر الحياة في الأرض ويعمر الكون إلى قيام الساعة .

ولا بد من المهر ، فهو ركن في الزواج وتوثيق لعراه ، والشاب فقير لا يملك مالاً ، وقانون فرعون فيمن هرب من سطوته ولم يقدر عليه ثماني سنين أن يسقط الحكم ، فإن عاد الغائب بعد هذه السنين فلن تطاله يد

القانون ، هذا عند (فرعون الجائر) ، (فرعون الظالم) ، (فرعون المستبد) ، (فرعون الطاغية) . مثال الظلم في القرآن الكريم ، فماذا يقول المظلومون والمقهورون والمطاردون في عالم الظلم والقهر في أيامنا هذه ؟! وقد مرّ على سنّ القانون الجائر (٤٩) الصادر عام ١٩٨٠ في سورية الحبيبة الذي يحكم بالإعدام على الإخوان ومن شايعهم وأعانهم ، أكثر من ثلاثين سنة ، قتل بسببه أكثر من عشرين ألفاً في سجون الظالمين وأكثر من ثلاثين ألفاً في مدينة حماة عام ١٩٨٢ وأكثر من عشرين ألفاً في بقية المدن السورية المنكوبة ، وما زال الحكم بهذا القانون مستمراً ، ألا ترى - أخي القارئ - فراعنة العصر أشدّ لوئماً وخسة من فرعون موسى ؟! ثم يدمر فرعون سورية الأمة كلها بأهلها ومدنها وقراها والحياة فيها، وما يزال يفعل الأفاعيل .

وأكمل موسى عليه السلام عشرة أعوام ، والأنبياء يحبون الكمال ويعملون به وهم قدوتنا بذلك صلوات الله عليه وسلامه . لقد كان عند حسن ظن عمّه به ، وكان زوجاً صالحاً في بناء أسرة مسلمة طيبة نقية . وتعجبني مقالة الشيخ " وما أريد أن أشق عليك " فهو حريص على رضا الشاب ، ولعله إن اعترض فسيخفف عنه المهر، ولا بأس أن يأخذ زوجته ويعمل في مكان آخر إن أراد ، فلن يشق عليه والدها ، ولعل الله تعالى يرزق ابنته الأخرى زوجاً صالحاً مثل موسى فيكمل العمل . لكنّ الشاب موسى الذي وجد المأوى والزوجة الصالحة والرجل الذي احتضنه في أشد الساعات قسوة ، هذا الشاب أهلّ للرضا بما ناله من خير ، وأهلّ لحسن الظنّ فيه .

وانطبق المثل العربي (إن الطيور على أشكالها تقع) على هذه الأسرة الجديدة ، وصدق فيهم قوله تعالى في سورة النور "وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ (٢٦) "

الهم ارزق شبابنا وشاباتنا نصفهم الآخر الطيب ، وأنشئ منهم بيوتاً طيبة طاهرة يُذكر فيها اسمك الكريم ، .. واكلاًهم برعايتك وعنايتك وفضلك العميم .. اللهم آمين .

كم لبثتم في الأرض عدد سنين (١٩)

إنه لموقف عصيب لا يُحتمل ذلك الذي يوبخ فيه الله تعالى أولئك المشركين والكفار الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدين ، في سورة " المؤمنون " فالنار تلفح وجوههم ، وهم فيها كالحون ، والملئك سبحانه يؤنبهم لتكذيبهم آياته ورسله ، فيعترفون بخطئهم ، فلا يُقبل هذا الاعتراف الذي جاء بعد أوانه ، ويُقرُّون بضلالتهم وشقوتهم ، ثم يسألون الله تعالى أن يعيدهم إلى الدنيا ليعبدوه كما أمر ، فيأبى ذلك .

قال ابن كثير في هذا الموقف : هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول " ائسنوا فيها " وامكنوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي . وقال عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون خازن النار مالكاً ، فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون . قال عبد الله بن عمرو : هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك . ثم يدعون ربهم فيقولون " ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون " قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم " ائسنوا فيها ولا تكلمون " قال فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم . قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير ، أولها زفير وآخرها شهيق .

وتسألهم الملائكة بعد ذلك : كم لبثتم في الأرض عدد سنين " .. فالسؤال واضح لا لبس فيه ، إنه كم عشت من السنوات في الأرض . فيكون جوابهم عجباً لا يتناسب والسؤال لشدة ما يصيبهم من ضنك وألم وعذاب شديد ، فيقولون بالحرف الواحد " لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادين " . لقد انقلبت سنوات حياتهم في الدنيا بالنسبة لخلودهم في النار يوماً ، بل ساعات قصيرة ، ثم يعلمون أن ما عاشوه في الدنيا الفانية لا يساوي شيئاً مما يعانونه في جهنم ، فيحيلون الجواب عن السؤال لمن كان معهم من الزبانية ، فهي التي تعرف الجواب الحقيقي . وهذا التعبير تصوير مخيف لما يلاقيه الكفار في عذاب جهنم حتى رأوا حياتهم في دنياهم لا تسوي سوى ساعات في خلودهم الطويل في النار والعياذ بالله .

نجد مثل هذا الرد في سورة الروم ، إذ يقول الله تعالى " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) " فحين يطول يوم القيامة خمسين ألف سنة ، والمشركون تحت حر الشمس اللاهب ، والعرق يغمرهم ، فيقارنون بين هذا الموقف الطويل الشديد وبين حياتهم في الدنيا يرون قصر مقامهم فيها ، فيقسمون أنهم لم يعيشوا فيها سوى ساعة من نهار . وهذا ما نجده في سورة الأحقاف في قوله تعالى يخاطب الحبيب المصطفى يصبره على ما يلاقي من المشركين ، ويأمره أن لا يستعجل عذاب المشركين فهو آتيهم لا محالة : " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) " لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم ، إن العقوبة قادمة لا محالة . وكقوله تبارك وتعالى " فذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً (المزمّل) وهي كقوله تعالى " فمهل الكافرين أمهلهم رويداً (الطارق) . فمأل الكفار والمشركين النار ، أعاذنا الله منها .

أما مثيل قوله تعالى " كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ " فقوله جل وعلا " كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها " (النازعات) فساعات الدنيا قليلة ، نعم ، قليلة إذا ما قيست بساعات الآخرة ، بل هي صفر في خط طويل ممتد إلى ما لا نهاية . وكقوله عز وجل " ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم " الآية ٤٥ من سورة يونس

بل إن أعقل المسئولين - إن كان في الكافرين عقلاء ، ولن ترى - يظن أنه لبث في الدنيا يوماً واحداً ، بينما يقول غيره بصوت خافت إنه عاش عشرة أيام فقط ، وإقرامعي قوله تعالى في سورة طه : " يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) ، يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) "

اللهم إنا نسألك إيماناً بك يزداد ، وعملاً إلى رضاك ينقاد ، واجعلنا من أهل طاعتك ، وأدخلنا الجنة برحمتك ، اللهم آمين ، يا رب العالمين .

لسان الذي يلحدون إليه أعجمي (١٨)

منذ القديم وإلى هذه اللحظة يفترى الكافرون على نبي الإسلام ما يفترون ، ويدّعون ما يدّعون ، ويرمونّه - عليه الصلاة والسلام - بأنه افترى هذا القرآن حين تعلّمه من غيره ! ومما يضحك له الإنسان - من ألم - أن هذا الادعاء صيباني ، لا يقول به عاقل ، ومتى كان الكافرون عاقلين ؟. فالحجة التي بنّوا عليها ادّعاءهم تافهة لا وزن لها - كبقية الاتهامات الأخرى - لكنّ تافهة هذا الادعاء ناتجة عن أن الصغير لا يقبل بها ، ويسخر من سردها .

فقد روى ابن إسحاق أنه كان في مكة فتى أعجمي قرب الصفا ، يبيع بعض السلع البسيطة ، يمرّ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم كما يمرّ عليه الناس ، ويكلّمه كما يكلّمه الآخرون ، ولم يكن هذا الأعجمي ينطق من العربية سوى كلمات وجمل لا يكاد يبينها ، ولا يُحسن نطقها ، ادّعى كفار مكة أنه علّم النبي عليه الصلاة والسلام القرآن والحكمة !!.

وعلى الرغم أنّ هذا الادعاء لا وزن له إلا أنه ينبغي أن نشير إليه ، رادّين على تخرصات المتخرصين وادّعاء الكاذبين :

- ١- لو كان هذا الغلام ذا حكمة وفهم ما وضع نفسه في الموضع الذي هو فيه ، يمرّ عليه الجميع من كبار وصغار ، وينظر إليه الكثير نظرة ازدراء .
 - ٢- أتى لهذا الفتى أن يعلم رسول الله القرآن والحكمة - على فرض وجودها عنده - وأداة التعليم واللغة وحسن البيان ليست فيه ؟! وفاقد الشيء لا يعطيه .
 - ٣- كان أحرى بهذا الأعجمي - الذي اتّصف بالعلم والحكمة على حد قول الكفار - أن ينسب القرآن إلى نفسه ، فيفخر بذلك على أهل مكة ومن حولها ، ويتبوّأ فيهم مركز الصدارة ، لا خانة النسيان !!.
 - ٤- ولم تكاسل هؤلاء جميعاً ، فلم يتعلّموا منه - إن صح زعمهم - فافادوا ، واستفادوا ، ونافسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته ؟!!.
 - ٥- وعلى فرض أنه صلى الله عليه وسلم - حسب ادّعاء الكافرين - تعلّم من ذلك الأعجمي القرآن والحكمة ، ثمّ صاغ ذلك بأسلوب عربي مبين ... أما كان أهل قريش - وهم أفصح العرب - أن يصوغوا الأفكار بقالب سامٍ من البلاغة ، مثلهم - في ذلك مثل النبي صلى الله عليه وسلم ؟!! لقد تحدّاهم القرآن أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور فقط من مثله ، فعجزوا أيضاً ، ثم تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله فباءوا بالفشل .
- صدق الله تعالى إذ يقول في الآية ١٠٣ من سورة النحل : " ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين "

أمة مشهورة بالبلاغة والفصاحة يأتيها رجل منهم بكلام من كلامهم ، ويتحدّاهم أن يكونوا مثله في حسن البلاغة والبيان ، فلا يستطيعون ، وينبهرون حين يتلو عليه الآيات القرآنية ، ثم يصمتون إعجاباً ... أخرى بها أن تصدّق أنه كلام الله المنزّل على رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولئن اجتمع الماديّون الملحدون في روسيا الشيوعية عام أربعة وخمسين وتسع مئة وألف في مؤتمر المستشرقين يدّعون أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد - وهو الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم - بل هو من عمل جماعة أدبية فكرية كبيرة ، وأنه لا يمكن أن يكون قد كُتب في الجزيرة العربية وحدها ، بل إن بعض أجزائه قد كتبت خارج الجزيرة !!! .

إنّ هذا الافتراء الجاهلي في القرن العشرين أقلّ خطأ من افتراء الجاهلين في مكة إذ ذاك . ولا شك أن أقوال هؤلاء وهؤلاء خطأ كلها . . لكنّ جاهليي القرن العشرين أقرّوا أن رجلاً واحداً بل رجلين أو أكثر لا يستطيعون تأليف كتاب يتضمّن قواعد الحياة كلها وأسسها إلى يوم القيامة .

وغاب عن عقول ملاحدة القرن العشرين أن العالم كله - ماضيه وحاضره ومستقبله - لا يستطيع أن يأتي بمثله - إنسهم وجانهم - لأنه كلام الله تعالى الذي " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد " .

من وحي أحد في آل عمران (٢٦)

لما انهزم ما انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل منهم نادى الشيطان : ألا إن محمدا قد قتل ، ورجع ابن قمينة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمدا ، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، والرسول والأنبياء يُقتلون كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى : " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) " : فنبه الله تعالى أن الرسول عليه الصلاة والسلام بشر ممن خلق ، وهو رسول من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، له بداية وله نهاية ، وله أسوة بهم في الرسالة وأن يُقتل كما قُتل الكثير منهم .

وروي أن رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشطح في دمه في غزوة أحد فقال له : يا فلان أشعرت أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم . وكأنه يقول له : إن قُتل رسول الله في سبيل دينه فعلام تقف هكذا مكتوف اليدين خواراً؟! مُت على ما مات عليه رسول الله .

- ثبت في الصحاح وغيرها أن الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل على فرس من مسكنه بالسُنْح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغطى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال بعد أن تأكد من موته : بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد متها . ثم خرج وعمر يكلم الناس أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يمت وأنه سيعود . فقال : اجلس يا عمر ، ثم قال أبو بكر : أما بعد ؛ فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم قرأ الآية السابقة . قال الراوي : فوالله لكان الناس - لشدة المفاجأة التي عَقدت ألسنتهم وطاشت لها عقولهم - لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها . وقال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تُقلني رجلاي .

- ولن يموت أحد إلا بقدر الله ، فمن خاف الموت فقد ضعف إيمانه، وظهر الخوف والجبن عليه ، فجاءت الآية التالية تشجع هؤلاء الذين خافوا وضعفوا في القتال " وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) " ولا يموت الإنسان حتى يستوفي أجله ويستوفي المدة التي ضربها الله له ولهذا قال تعالى " كتابا مؤجلا " كقوله " وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب " ، إن الإقدام والإحجام لا يُنقص من العمر ولا يزيد فيه . قال حجر بن عدي في حرب الفرس وكان نهر دجلة بين الجيشين : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة - يعني دجلة - ثم أقحم فرسه

دجلة ، فتبعه الناس فلما رأهم العدو داخلهم الرعب الشديد ، فهربوا ، ولاحقهم المسلمون يبطشون بهم يمناً ويسرة ، ونصرهم الله تعالى نصراً مؤزراً ، فربحوا الدنيا والآخرة

- إن الرّبيّين - وهم أصحاب الإيمان القوي الذي نذروا أنفسهم لله - ممن كانوا مع أنبيائهم لم يتركوا القتال في سبيل الله والجهاد لإعلاء كلمته سبحانه ، واستمروا في جهادهم لإعلاء كلمة الحق والذود عنها ، فلما صاح صائح في غزوة أحد : إن محمداً قد قُتل ترك كثيرٌ من المسلمين المعركة وضعفوا وهربوا منها ، فعاتبهم الله تعالى قائلاً : " وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) " . فإذا كان من قبلنا صبروا في القتال وثبتوا في مواقعهم ، ونفوا عن أنفسهم الخور والوهن ، وتحملوا الإرهاق والنصب ، فلم يذلوا لعدوهم ، وصبروا في الميدان صبراً عجبياً ، كان أولى بالمسلمين أن يكونوا كذلك . فإن فعلوا نالوا كسبين كبيرين : أولهما : رضا الله تعالى وحبّه وثانيهما : النصر والتمكين

- وهذا ما نالوه فعلاً حين لجأوا إلى الله تعالى داعين متبتلين " وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) " . يقول الإمام الطبري في تفسيره في تفسير هذه الآية : اجعلنا ممن يثبت لحرب عدوك وقتالهم ، ولا تجعلنا ممن يهزم فيفرّ منهم ولا يثبت قدمه في مكان واحد لحربهم ، وانصرنا على الذين جحدوا وحدانيتك ونبوة نبيك . وإنما هذا تأنيب من الله عز وجل لعباده الذين فروا عن العدو يوم أحد وتركوا قتالهم ، وتأنيب لهم ، يقول الله عز وجل : هلا فعلتم إذ قيل لكم : قتل نبيكم كما فعل هؤلاء الربيون الذين كانوا قبلكم من أتباع الأنبياء إذ قتل أنبياءهم ، فصبرتم لعدوكم صبرهم ، ولم تضعفوا وتستكينوا لعدوكم ، فتحاولوا الارتداد على أعقابكم ، كما لم يضعف هؤلاء الربيون ولم يستكينوا لعدوهم ، وسألتم ربكم النصر والظفر كما سألوا ، فينصركم الله عليهم كما نصروا ، فإن الله يحب من صبر لأمره وعلى جهاد عدوه ، فيعطيه النصر والظفر على عدوه ، واعلموا أنما ضعفتم فهربتم بذنوب منكم ، واستغفروا كما استغفروا ، وامضوا على دينكم كما مضوا على دينهم ، ولا ترتدوا على أعقابكم راجعين ، واسألوه كما سألوه أن يثبت أقدامكم ، واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين . فكل هذا من قولهم قد كان . وقد قتل نبيهم فلم يفعلوا كما فعلتم . فماذا كانت النتيجة ؟ إن الله أعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم ، وعلى جهاد عدوهم ، والاستعانة بالله في أمورهم ، واقتنائهم مناهج إمامهم جزاءً في الدنيا ، وذلك النصر على عدوهم وعدو الله ، والظفر والفتح عليهم ، والتمكين لهم في البلاد ، ووهبهم خير جزاء الآخرة ، على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة ، ووهبهم رضوان الله ورحمته . يقول تعالى " فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) " . وتنبيه أخي الحبيب إلى قوله تعالى " حسن ثواب الآخرة " ، ولم يقل ثواب الآخرة ، مع العلم أن ثواب الآخرة الجنة ، فإنه سبحانه أعطاهم أحسن العطاء ورفعهم أعلى الدرجات وأكرمهم غاية الإكرام . فقد وصلوا درجة الإحسان ، وهي أعظم المراتب في الجنة . رزقنا الله إياها ، وأعاذنا من غضبه والنار .

- عشت في ظلال تلكم الآيات أنتسم عبير الجنة بذكر الربيّين والصالحين ، وأشرنب إلى تلكم السويغات في غزوة أخذ أرى صور الصحابة الكرام في جبل الرماة وفي ساح المعركة ، وألمح نور النبي صلى الله عليه وسلم ثابتاً في أرض الرباط وحوله بعض أصحابه الذين ثبتوا معه ، وأسمع الحبيب المصطفى صلوات الله عليه وسلم يقول لسعد : ارم سعد؛ فذاك أبي وأمي ، فتنتشي نفسي كأنني سعد رضي الله عنه ، وأتمنى لو كنت مكان طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وأرضاه يقف أمام الحبيب قائلاً : صدري دون صدرك يا رسول الله ونحري دون نحرك . وأسمع صوت كعب بن مالك رضي الله عنه يرى النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإرجاف بموته فينادي هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

لم يمت ، يا معشر المسلمين أبشروا ، فيشير إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن أنصت ، كي لا يقصده المشركون ويجتهدوا في قتله صلى الله عليه وسلم .

- وأرى أبي بن خلف يهاجم النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : لا نجوتُ إن نجوتَ ، فلما دنا وقام له في الشعب أحد الصحابة يدرأ عنه فيقول المصطفى دعوه ، ويتناول حربة الحارث بن الصمة وينتفض بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يستقبله فيطعنه في عنقه طعنة يكاد يسقط لها عن فرسه مراراً ، وكان هذا الشقي يهدد النبي - في مكة - بالقتل ، فيرد النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: بل أنا أقتلك إن شاء الله . ويتراجع أبي بن خلف إلى قريش وهو يقول : قتلني محمد ، وكان قد خدشه خدشاً غير كبير ، فيقولون له ما عليك من بأس ، قد ذهب والله فؤادك ، والله ما بك من بأس . فيقول أبي : إنه قد قال لي بمكة إني قاتلك ، فوالله لو بصق عليّ لقتلني ، ويحتقن الدم في عنقه ، ويموت قافلاً إلى مكة - في نار جهنم يا عدو الله - أقولها متشفياً به ، إن أشقى الناس من قتل نبياً أو قتله نبي.

- وأسمع الحوار بين أبي سفيان والمسلمين- وكان على كفره - ، فيناديهم وهو أمامهم على جبل عال : أشرفتُ فَعَال ؛ إن الحرب سجال . اعلُ هبل، اعلُ هبل . فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : قم يا عمر - وكان ذا صوت جهوري : فقل : الله أعلى وأجل . لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، ويسأل أبو سفيان : أمحمد فيكم أم قتل ؟ فيقول عمر بل هو حي بيننا وهذا أبو بكر إلى جانبه . ويُقتل حمزة أسد الله وأسود رسوله ، فيبكيه رسول الله ويبكيه المسلمون ويبكون قتلاهم ، لكنهم يتابعون المشركين إلى حمراء الأسد وهم مثخنون بالجراح يصرون على القتل والجهاد إلى آخر رمق من حياتهم .

- هكذا المسلم أبي شجاع لا يخاف الموت ولا يهاب الأعداء ، صلى عليك الله يا سيد الأبطال ويا قائد الغر الميامين ورضي الله عن صحابتك الكرام وأرضاهم ، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . اللهم آمين ..

من وصيا لقمان (٢٤)

قال سعيد بن المسيب رحمه الله : كان لقمان من سودان مصر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان لقمان عبدا حبشيا نجارا ، قال له مولاه اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، قال أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله ثم قال اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، قال أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وذكر أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال في لقمان : كان رجلا سكيئا طويل التفكير عميق النظر ، لم ينم نهارا قط ، ولم يره أحد قط يعبت ولا يضحك وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتي ما أوتي .

والمقصود في قوله تعالى " ولقد آتينا لقمان الحكمة ، أن اشكر الله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه " الفقه في الإسلام . ولم يكن لقمان نبيا ولم يوح إليه - على أشهر الأقوال - ، وأوتي الفهم والعلم والتعبير ، ووصاه ربه سبحانه أن يشكر الله عز وجل على ما أتاه ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصه به دون سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ، وأنباه أن نفع الشكر وثوابه يعود على الشاكرين لقوله تعالى " ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهّدون " وقوله " ومن كفر فإن الله غني حميد " يقرر أن الله تعالى لا يحتاج للعباد ولا يتضرر بعصيانهم إياه ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعا .

وعلى الوالد أن يرعى أولاده ، ويعلمهم ويرببهم امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما " والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته " هكذا كان لقمان . ونجد في القرآن وصايا لقمان لابنه ترسم في الزمان أخلاقاً وأدباً وعلماً ، وجاءت هذه الوصايا تنير الطريق أمام الأبناء على مدى الأيام معالم التربية القرآنية الفريدة :

١- يظلم الإنسان بالشرك ربه حين ينفي عنه ربوبيته وألوهيته ووجدانيته ، فيشرك معه في العبادة غيره ، ويظلم نفسه حين يغضب ربه فتكون النار مأواه وسوء المنقلب نهايته . ويظلم الآخرين حين يضلهم ويسلك بهم سبيل الغواية والفساد . " يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) " .

٢- إن الله تعالى لا تخفى عليه الأعمال مهما كانت صغيرة أو خفية ، وسيحضرها يوم القيامة ويجازي عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولا يظلم الله تعالى أحداً " يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " إنه سبحانه لا يعزب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض ، في نفس الإنسان وضميره أو في الماديات

والمحسوسات . إنه يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فإذا كان الله سبحانه لطيفاً خبيراً ، عليمًا حكيمًا فالحذر مطلوب ، والإصلاح في القول والعمل مرجو ، فلا يجدنا الله تعالى إلا حيث يرضى .

٣- ولأن الله تعالى خلقنا لعبادته فإنه يأمرنا بإقامة الصلاة ، إنها تعبير عن حبه سبحانه والرغبة في لقائه ، والوقوف بين يديه طائعين خاشعين . فمن كان الله مبتغاه سلك الطريق المؤدي إليه فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر لأنهما السبيل إلى إقامة مجتمع نظيف طاهر أسه الفضيلة والعدل والمساواة . إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء والمصلحين ، وهو نهج يرضاه ذوو الفطرة السليمة ، ويأباه أهل الأهواء فيحاربونه ويضعون في مسربه العقبات ، فلا بد من الصبر والجد والمثابرة " يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) " فمن اتصف بهذه الصفات الأربع كان من أولي العزم ، ومن كان من أولي العزم حاز قصب السبق ، ووصل غايته النبيلة .

٤- إن التواضع ولين الجانب يجذب القلوب ويذهب السخيمة ، ويعين على الوصول إلى الهدف ، وهكذا كان لنبي صلى الله عليه وسلم ، فمدحه المولى الجليل " فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك ... " وهو صلى الله عليه وسلم يوجه إلى اللطف فيقول " ... ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة والمخيلة لا يحبها الله " إن التواضع والتكبر مقتلة للدعوة والداعي ، ولن يقبل الناس دعوة - ولو كانت صحيحة - من متكبر متعجرف يرى نفسه أفضل الجميع ويعاملهم من فوق ، وكأنه الشمس في سماءها والقمر في عليائه ! والله تعالى يكره المتعالي المستكبر . فما كان اللطف في شيء إلا زانه ولا التعظيم في شيء إلا شانه . يقول لقمان في هذا " وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) "

٥- قال لقمان لابنه يعظه مرة : يا بني إن الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك وقال له كذلك : يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعني السلام) ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . والله تعالى يحب التوسط في الأمر فلا يحب مشية المتخاذل المتباطئ - دون عذر - ولا مشية الخيلاء والتفاخر . ويكره رفع الصوت فيما لا فائدة منه وقد نهى الحبي عن علو الصوت وشبهه بصوت الحمار ونهيقه " إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأيت شيطاناً " يقول الله تعالى في ذلك على لسان لقمان الحكيم " وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) "

إن غض الأصوات أدب رفيع ذكره الله تعالى في أول سورة الحجرات ، ومدح الملتزمين به .

وقد روي بعض الحكم المتفرقة نوردها هنا للعتة والعبرة :

- وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ، ويخرج خردلة حتى نفذ الخردل ، فقال : يا بني ؛ لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفتط قال فتفطر ابنه
- قال أنس بن مالك رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " رَبِّ أَشْعَثُ ذِي طَمْرِينَ يُصَفِّحُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ (يُدْفَعُ) إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ " .

- وروي عن أنس رضي الله عنه " قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يُفتقدوا أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة " .
- قال أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينعكوا وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتجلى في صدره لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم " .
- وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله إلى الله الغبراء قيل ومن الغبراء ؟ قال الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم.
- وقال الفضيل بن عياض بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أنعم عليك ألم أعطك ألم أسترك ؟ ألم .. ألم .. ألم أجمل ذكرك ، ثم قال الفضيل إن استطعت أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس محبوباً عند الله .
- وكان الخليل بن أحمد يقول اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك واجعلني في نفسي من أوضع خلقك وعند الناس من أوسط خلقك .
- وعن علي رضي الله عنه " قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم ، واكتم واصمت تسلم ، تسرا الأبرار ، وتغيظ الفجار .
- وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة ، وقال محمد بن العلاء من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس ، وقال سماك بن سلمة إياك وكثرة الأخلاء . وقال أبان بن عثمان إن أحببت أن يسلم إليك دينك فأقل من المعارف
- وعن هارون بن أبي عيسى عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع وفتنة للمتبوع . وقال ابن عون عن الحسن خرج ابن مسعود فاتبعه أناس فقال والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجل
- وفي بعض الأخبار أن موسى عليه السلام " قال لربي إسرائيل ما لكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم الذناب؟! البسوا ثياب الملوك وألبنوا قلوبكم بالخشية . "

موقفان متمايزان (٢٩)

لما وصل موسى بقومه على أرض فلسطين وانطلق بهم إلى بيت المقدس أمرهم موسى عليه السلام أن يدخلوها فاتحين ويُجلّوا من احتلها واتخذها موطناً ، فهي سكنى أبيهم يعقوب عليه السلام وسكنى أولاده قبل أن يذهبوا إلى يوسف عليه السلام في مصر " يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) " (من سورة المائدة) فوجدوا فيها قوما من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها فأمرهم رسول الله - موسى عليه السلام - بالدخول إليها وقتال أعدائهم ، وبشرهم بالنصر والظفر عليهم . فعصوه وخالفوا أمره خوفاً من العمالق الأقوياء ، فعوقبوا بالذهاب في التيه ، والتمادي في سيرهم حائرين ، لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى .

لقد اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمروا بدخولها وقتال أهلها قوماً جبارين أشداء ، وأنهم لا يقدرّون على مقاومتهم ولا حربهم ، ولا يمكنهم الدخول إليها ما داموا فيها ، فإن يخرج هؤلاء العمالقة منها دخلوها ، وإلا فلا طاقة لأصحاب موسى بهم . " قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) " وهذا رد الجبان الذي يؤثر السلامة على استرداد حقه ، ويفرط فيه خوفاً وهلعاً . إن هؤلاء اليهود اعتادوا أن يكونوا خدماً في مملكة فرعون ، وتصرفهم هذا تصرف الخدم والعبيد الذين ألفوا حياة الذل والهوان ، فكانت عقوبتهم أن يتيهوا في الصحراء أربعين سنة ، فينقرض هؤلاء ، ويخرج من أصلابهم رجال عاشوا الحرية ، وتذوّقوا طعم الكرامة ، فعلى يد أمثال هؤلاء تُستردّ الحقوق . وقالوا مقولة الجهل بالذات العلية حين طلبوا من موسى - راغبين عن الجهاد - أن يذهب وربّه ليقاتلا ، أما هم فيودّون النصر على طبق من الورد يقدم لهم سهلاً يسيراً .

إن الفرق بين أصحاب موسى عليه السلام وأصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم في شبيه هذا الموقف كبير ، ففي غزوة بدر حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه والمسلمين الذين خرجوا لاصطياد القافلة ففوجئوا بجيش قريش المدجج بالسلاح ، وكان العهد بين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين في المدينة أن يمنعوه في مدينتهم كما يمنعون نساءهم وأبناءهم ، ولم يعدوه أن يحموه خارج المدينة . فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرى رأيهم ويتوثّق من إيمانهم فقال : أشيروا عليّ أيها الناس ، فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنّا ، ثم تكلم المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : " اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون " . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا

معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له به .

ثم قال أشيروا علي أيها الناس - فالتكلمون الثلاثة من المهاجرين وهو يريد الأنصار . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له سعد بن معاذ : والله ، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ؛ قال قولة المؤمن الصادق المحب لله ورسوله : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

ألا ترى أيها الأخ القارئ البون الشاسع بين ما قاله المؤمن بالله ورسوله الذي يعتبر نفسه جندياً من جنود الله ، ويرى أن عليه أن يقول سمعنا وأطعنا ، ثم يمثل للأوامر دون تلكؤ ولا تكاسل ، وبين ما قاله اليهود لنبيهم ؟ فأمّر الله ورسوله لا بد من الالتزام به - إن كنا مؤمنين - لنحوز رضاه والجنة في الآخرة ، والعز والنصر في الدنيا .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ؛ ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم . هذا رد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى من المسلمين الطاعة والامتثال والاستعداد النفسي والقلبي ، كان الله تعالى راضياً عنهم ، ومن رضي الله عنه فقد فاز ، وكان النصر على خطاهم . وكان جزاء يهود أن قال تعالى يوبخهم ويعاقبهم ، ويسمهم بالفسق ، والفساق منبؤ مطروح : " قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) "

وسارعوا إلى مغفرة من ربكم - ٧

إذا كان علماء الفلك قد اكتشفوا مجرة فقدروا قطرها بخمسين مليار سنة ضوئية ، وهي نقطة في بحر السماء الدنيا ، فكم قطر السماء الدنيا ؟ .. وإذا كانت السماء الدنيا للسماء الثانية كحلقة في فلاة ، فكم قطر السماء الثانية ؟ .. وإذا كانت السماء السادسة للسماء السابعة كحلقة في فلاة ، فكم قطر السماء السابعة ؟

وإذا قرأنا قوله تعالى في سورة آل عمران : " وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) " تساءلنا : إذا كان عرض إحدى الجنان التي أعدها الله تعالى للمؤمنين يعادل عرض السماوات والأرض فكم طولها ؟؟ وكم حجم الجنان الأخرى وهي كثيرة : الفردوس الأعلى ، وجنة عدن ، وجنة المأوى وجنة الخلد ، وجنة النعيم ؟ وغيرها كثير لا يعلمه إلا الله تعالى .

إن ملكوت الله تعالى كبير لا يعلمه إلا من خلقه ، والخير فيه ينتظر المؤمن الذي آمن بالله رباً واحداً لا شريك له ، وآمن بملأنكته ورسله واليوم الآخر ، فعمل صالحاً يرضي ربه فأكرمه .

ولاحظوا معي فعل الأمر والحض على المسارعة ، " سارعوا " إنه على وزن " فاعل " الذي يعني التنافس والمباراة بين المؤمنين في الوصول إلى جنان الخلد التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولا يصل إليها إلا من شمر عن سواعد الجد وشد المنزر ، واجتهد في الطاعة .

ولا بد قبل الدخول إلى الجنة من مغفرة الله تعالى " وسارعوا إلى مغفرة من ربكم .. " ولن يدخل أحد الجنة بعمله ، إنما يرافق العمل نية خالصة لرضاء المولى وكسب عفوه اللذين يجعلنا من السعداء الذين يحوزون دار الخلد والأمان .

هذه الدار أعدت للمتقين وهم السابقون الذين ذكروا في سورة " الواقعة " . ذكروا في تلك السورة وهم يفوزون بالجنة العالية دون أن يذكر فيها سبب حصولهم على المكانة العالية ، إلا أننا نجد في هذه الآية من سورة آل عمران صفات تؤهلهم لما وصلوا إليه من النعيم المقيم " الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) " فهم :

١- ينفقون في حاتي الفقر والغنى ويتصدقون باستمرار .

٢- يجترعون الغيظ ويسكتون عنه وهم قادرون على الانتقام ، محتسبين الأجر عند الله .

٣- ويعاملون الناس بالعفو والمغفرة لأنهم يريدون من الله العفو والمغفرة .

٤- يحسنون إلى الناس ويكرمونهم على ما بدر منهم ، وكأن شيئاً لم يكن .

ونرى التدرج في هذه الآية من تحمل الأذى ، إلى العفو والمغفرة ، إلى الإحسان إلى من أساء إليك ، وهذه صفة لا يمتلكها إلا أولو العزم وأصحاب الهمم العالية والنفوس الرضية .

ثم تأتي الآية التي تتحدث عن أهل اليمين : " وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ جَزَاءُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٥) " وسورة الواقعة تذكر فوزهم برضا الله والجنة دون ذكر الأسباب المانحة لهذه الدرجة لكننا نرى في هذه الآية أنهم :

١- بعد أن ظلموا أنفسهم استغفروا الله تعالى وتابوا إليه ، فهو الغفور الرحيم .

٢- أقلعوا عن الذنوب ، واجتهدوا أن لا يقعوا فيها .

٣- وعموا علم اليقين أن من اجتهد في التوبة وحرص عليها يغفر الله له ويعفو عنه ، فهو الذي يقبل التوبة عن عباده .

والنفس ثلاثة أنواع : النفس المطمئنة ، والنفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء . أما الأولى والثانية ، فالشيطان مرتاح من متابعتهم ، فالأولى قريبة إلى الله تعالى ملتزمة بطاعته ، ومجتهدة في السمو والارتفاع ، هذه تحرق الشيطان إن حاول الدنو منها ، والثالثة باعت نفسها للشيطان ، وأفسدت أكثر مما طلب منها ، فهذه لا يتعب الشيطان في التلاعب بها ،

أما النفس اللوامة فتري الشيطان يحاول إغواءها وإيقاعها في الفتن ، فإن قدر عليها واطمأن إلى ذلك ذكرت الله سبحانه فاستغفرت وتابت ، فالشيطان معها في مدّ وجزر ، وكر وفر لا يمل منها وهي لا تمكنه من نفسها ، تضعف أمام إغراءاته ثم تنتبه من غفلتها ، فتلجأ إلى الله وتلوذ بحماه سبحانه ..

وهؤلاء الذين يسعون إلى رضا الله ، فيتوبون إليه ويستغفرونه ، ويجهدون أن يتفكّلتوا من أحابيل الضلال والغواية يغفر الله لهم ، فهو سبحانه خلقهم من ضعف ، والضعيف قد يزل إلا أنه بعد الكبوة ينطلق إلى الأمام فيتخلص من وهدة الزلات وحفر الذنوب . " أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) " هؤلاء أصحاب اليمين ..

وما أروع التعبير القرآني في وصف السابقين وأصحاب اليمين في سورة الواقعة : " فأما إن كان من المقربين فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . "

اللهم اجعلنا من المقربين ومن أصحاب اليمين ، فأنت الغفار ، وأنت أكرم الأكرمين .

وعلى الأعراف رجال (١٢)

قرأت الليلة من سورة الأعراف قوله تعالى " ونزعنا ما في صدورهم من غل " والغل بكسر الغين : الغش والحدق الكامن في الصدر، فمما أنعم الله به على أهل الجنة نزع الغل من صدورهم . والنزع : الاستخراج . فأذهب الله تعالى في الجنة ما كان في قلوبهم من الغل في الدنيا . قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين) . وقيل : نزعُ الغل في الجنة ألا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل منازلهم .

وما أجمل أن يعيش الناس متحابين متآلفين يرضى كل واحد منهم بما قسم الله له دون شحناء ولا بغضاء ولا غلٍ ولا حسد ، ولكن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، فلا بد من أدوات ذلك الامتحان ليطمئن الناس ، أما الجنة فدار قرار للمؤمنين خالدين فيها بسلام وأمان لا يعكر حياتهم شيء مما يحصل في الدنيا

فإذا أهل الجنة يحمدون الله تعالى على ما وهبهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وهادهم في الدنيا إلى سبيل النعيم المقيم ، فحازوه بفضلهم وكرمه سبحانه ، وأعادوا الفضل له حين قالوا : " وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله " فتناديهم الملائكة بعد حمدهم مهنة بفوزهم ونجاحهم " أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون "

وقد يتساءل بعضنا : كيف يدخلون الجنة بعملهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يذكر أنه ما من أحد يدخل الجنة بعمله ، بل برحمة الله ، فلما قيل له : حتى أنت يا رسول الله ؟؛ قال حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته . فالجواب أن عمل الإنسان مهما حسن وعظم فينعم الله تعالى أكبر من ذلك ، لكن النية الصالحة هي السبب في رحمة الله لهم ، فقد عملوا مع النية ما وسعهم فرضي الله عن نيّتهم وعملهم المتساقق مع النية . ألم يقل الله تعالى : " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " والإنسان بضعفه لا يدخل الجنة إنما يدخلها ببذل الجهد والنية الخالصة لله تعالى ، فإذا اجتمعاً أدخله الله الجنة برحمته ، وجزاه خير الجزاء .

فإذا ما استقر المؤمنون في الجنة وعاشوا نعيمها اطلعوا على أهل النار وسألوهم سؤال العارف بأحوالهم شاكرين الله تعالى على كرمه ومنه " .. أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً " . والسؤال لا يحتاج جواباً فهو تحصيل حاصل ، ولكنه يصور حسرة الكافرين أن يخلدوا في النار ، ويخلد المؤمنون الذين كانوا يوماً ما محل السخرية والهزء في الجنة . فيكون جوابهم كلمة واحدة تنم عن ألمهم

وخزيهم : " نَعَمْ " . وهل هناك سوى الذل والعذاب ؟ نسأل الله العافية . ويزيد ألم الكفار البدني ألم حسي حين يطرق سمعهم نداءً يسمعه الجميع موبخاً الكافرين لاعتنا إياهم " .. فأذن مؤذنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين " . ماذا فعل الظالمون حتى استحقوا تلك اللعنة الأبدية والعذاب المتجدد ؟! فيوضح المنادي ثلاثة أمور كانت سمة هؤلاء المجرمين حتى استحقوا هذه اللعنة : ١- " الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

٢- وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا

٣- وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) " سورة الأعراف.

فهم بالإضافة إلى كفرهم بالله واليوم الآخر يحاولون إبعاد الناس عن الإيمان ، ويتابعون المؤمنين بالإيذاء والصد عن الحق ، ويفسدون ، ويقلبون موازين الحياة ، فيجعلونها جحيماً .

قال القرطبي رحمه الله تعالى (بتصرف) : لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجاباً ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذي قال الله تعالى " فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب " سورة الحديد. وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه " وعلى الأعراف رجال "

وقال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار ، وإليك بعض ما قيل في الأعراف

١- والأعراف جمع عُرف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً ، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه .

٢- والأعراف المكان المرتفع المشرف . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : الأعراف جمع تل بين الجنة والنار ، حبس عليه من أهل الذنوب بين الجنة والنار ،

٣- أو هو سور بين الجنة والنار ، له باب ز

٤- وقال بعض المفسرين : إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس .

٥- وأصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استوت حسناته وسيئاته فقال " أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون " . وقيل : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار قال فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم فـ " إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين " فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم .

٦- وقيل : فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ، وإذا صرفت أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار " قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين " فهم يتشرفون إلى الجنة ويتمنون أن يكونوا من أهلها ولا يحبون النظر إلى النار وأهلها ، بل يخافون أن ينظروا ، وهل يحب أحدنا أن ينظر إلى النار وأهلها ؟ ولكن تُصرف أبصارهم إلى النار وأهلها ، فيتعوذون بالله من منازلهم

٧- فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورا وكل أمة نورا ، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا " ربنا أتمم لنا نورنا "

٨- وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهناك يقول الله تعالى " لم يدخلوها وهم يطمعون " أن يدخلوها برحمة الله وفضله :

٩- وبينما أصحاب الأعراف بذلك المكان ، وأراد الله الجليل أن يعافيههم انطلقت بهم الملائكة إلى نهر يقال له نهر الحياة ، حافته قصب الذهب مكللاً باللؤلؤ ، ترابه المسك ، فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم ، وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها ، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم إلى الرحمن تبارك وتعالى فقال " تمنوا ما شئتم " فيتمنون ، حتى إذا انقطعت أمنيائهم قال لهم " لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً " فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها ، يسمون مساكين أهل الجنة .

١٠- عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف قال " هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي ، فارعوا من الجنة حيث شئتم " وهذا مرسل حسن .

١١- ونجد أصحاب الأعراف يحدثون أهل النار والجنة ، ونراهم هنا يكلمون المستكبرين الذين أساءوا إلى المؤمنين بالله ، وكانوا يعنفونهم ويسخرون منهم " ونادى أصحاب الأعراف رجلاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ، هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ " ويقولون لأهل الجنة حين يرونهم يدخلونها راغبين أن يكونوا معهم " ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون " . إنهم يطمعون أن يدخلوها ، وما جعل الطمع في قلوبهم إلا لكرامة تُراد بهم . قال قتادة رحمه الله يخاطبنا : قد أنباكم الله بمكانهم من الطمع

١٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنزلهم الله تلك المنزلة - الأعراف - ليعرفوا في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوزوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم في ذلك يُحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها ، وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله .

السبت ١٢ رمضان ١٤٣١

ويقتلون الذين يأمرون بالقسط ... (١٣)

ذم الله تعالى أهل الكتاب بما ارتكبه من المآثم والمحارم في تكذيبهم قديما وحديثا بآيات الله ، وبما بلغتهم الرسل استكبارا عليهم ، وعنادا لهم ، وتعاضما على الحق ، واستنكافا عن اتباعه . ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إلا لأنهم دعّوهم إلى الحق ، وهذا غاية الكبر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " الكبر بظر الحق وغمط الناس " .

روى أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال " رجل قتل نبيا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم " الآية ٢١ آل عمران . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلا من بني إسرائيل فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل " .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار وأقاموا سوق بقتلهم من آخره ، ذلك حين تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق ، فقابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى " فبشرهم بعذاب أليم " إنه عذاب موجه مهين . ، وعودة إلى الآية الكريمة نفسها نجد أنفسنا واقفين على المعاني التالية :

١- إنهم يأبون الهداية ، ويكفرون بالرسالات السماوية ، ران الصدا على قلوبهم والعفء على عقولهم ، فما يدرون حقيقة الأمر ، ولا يفرقون بين النور والظلام والحق والباطل ، ومن كانوا هكذا فالاستكبار ديدنهم والاستعلاء صفتهم .

٢- فلا يقبلون نصحا ولا يرتضون هديا . وتراهم بدل تكريم المصلحين والاستفادة منهم يعاملونهم معاملة المجرمين ، فيعتدون عليهم بالضرب والتعذيب والقتل . ويطمسون كل خير ويسعون في كل شر ،

٣- ويتابعون المتنوّرين من أتباع المصلحين بالاستئصال والقتل والتعذيب ، ويضيقون عليهم سبل الحياة ويحاربونهم في رزقهم ومعيشتهم ، ويغسلون أدمغتهم بالترغيب والترهيب. وهم غير قادرين على رؤية من يخالفهم رأياً وطريقة ، ولا سماع آرائهم ومحاورتهم للوصول إلى الصواب. وهذه وهدة الأنانية ، وجور الديكتاتورية ، ومقتل الإنسانية .

٤- إنهم لا يرون العدل عدلاً إلا إذا صبّ في مصلحتهم ، ولا الخير خيراً إلا إذا كان في خدمتهم ، فالمعروف في شريعتهم أن تحابيبهم وتسير في ركابهم ، والمنكر في قانونهم أن تنبهم على أخطائهم وتطالبهم بما عليهم من واجبات .

٥- ومن رأى نفسه فوق الآخرين ، فعاملهم معاملة الدون وجعلهم عبيداً له وخولاً ، وسلبهم حقهم وافتات عليهم ، فقد تجاوز حده ، وظلم نفسه ، وكان العقاب له جزاءً والهوان له مآلاً ، والعذاب له مصاحباً ، والألم له رفيقاً .

٦- إن الإنذار للعذاب والهوان ، والبشرى للتكريم والإعزاز ، أما أن تستعمل كلمة البشرى في مكان الإنذار والتهديد " فبشرهم بعذاب أليم " فهي للتحقير والهزاء والسخرية بمن تعالى على الناس وغمّطهم حقوقهم .

وما نراه في عالمنا الواقع من تغييب للمفكرين الأحرار في السجون والمعتقلات ، ومن تكميم الأفواه المنادية بإنسانية الإنسان ، وتهجير الشرفاء ، والتضييق عليهم وعلى من يتعاطف معهم ويمد لهم يد العون لدليل على واقعية الآية الكريمة التي وضعت الملح على الجرح ، فدعت إلى الإصلاح والعمل به ، وإلى تكريم المصلحين والحفاظ عليهم والافتداء بهم .

وكان التهديد واضحاً ، والوعيد مجلجلاً لمن وقف في طريقهم وآذاهم وتنكب مسيرتهم ، واستكبر عن الحق وأهله . ولئن ظهر في الدنيا فظهوره امتحان له يودي به المهالك ، ولا يحق إلا الحق ، ولا ينتصر إلا أهله ، ولو بعد حين " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، إن الله قويّ عزيز " .

يبدل الله سيئاتهم حسنات (٢٨)

في صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا وكذا ، فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه . فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا) .. فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طویل : يا رسول الله ، رأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا اقتطعها فهل له من توبة ؟ قال : (هل أسلمت) ؟ قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال (نعم . تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات) . قال : وغدراتي وفجراتي يا نبي الله ؟ قال : (نعم) . قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى توارى .

. قال مبشر بن عبيد ، وكان عالماً بالأنحو والعربية : الحاجة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا . والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا . وقالوا : إن الحاجة والداجة الذنوب الضخمة الكبيرة التي لا يجترحها إلا كل عتَل جواظ .

فباب التوبة مفتوح لكل إنسان في كل زمان ومكان ليلاً ونهاراً ، وما على الإنسان إلا أن يلجئه نادماً على ما فعله ، مستغفراً ربه ، راجياً غفرانه ورحمته ، مصمماً أن لا يعود إلى الذنب ما استطاع باذلاً جهده في طاعة ربه . وسيقبله الله تعالى ، فالله يفرح بعودة عبده إليه تائباً ، ويقبله متى عاد إليه .

قال القرطبي رحمه الله معلقاً : فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : (أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن) . وقال ابن كثير رحمه الله : قد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل كما هو

معلوم في قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته وغير ذلك من الأحاديث وقوله تعالى " وفي تبديل السيئات حسنات قولان : أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروي عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بدلن بعد حرّه خريفاً وبعد طول النفس الوجيفا

يعني تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها . وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات ، وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وأبدلهم بالفجور إحساناً ، وبالكفر إسلاماً ... والقول الثاني : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه فإنه لا يضره ، وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبتت السنة بذلك .

وفي تفسير ابن كثير أيضاً : وقال الحافظ الطبراني فيما يرويه عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطني صحيفتك فيعطيه إياها فما وجد في صحيفة من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكتب ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة فتلك مائة " وفي الطبراني أيضاً عن سلمان قال : يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها ، فإذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات . وحدث أيضاً عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات .

وقال أيضاً حدثنا قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف (المتقين) ثم (الشاكرين) ثم (الخائفين) ثم (أصحاب اليمين) . قلت لم سمو أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيامهم فقرءوا سيئاتهم حرفاً حرفاً وقالوا يا ربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا ؟ فعند ذلك محاب الله السيئات ، وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا " هاؤم اقرءوا كتابيه " فهم أكثر أهل الجنة .

وفي كرم الله تعالى على عباده المحسنين في سورة الزمر " لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) " يتغاضى الله عن سيئات عباده التائبين المتقين ، فيمحو سيئاتهم الكبيرة ، فكان من باب أولى أن يغفر لهم ما هو أقل من ذلك ، فهو الكريم العفو الغفور جل جلاله ، وعم نواله سبحانه . فإذا ما غفر لهم جزاهم على كل أعمالهم الخيرة على تفاوت نسبة الخير فيها بأعلى ما فعلوه من أعمال صالحة ، فإذا صانفهم ليس فيها إلا الحسنات الكبيرة ، وكتبهم الله من أهل الجنان .. اللهم اجعلنا منهم .

ومن كرمه وفضله سبحانه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه - في سورة الطور - نقرأ هذه الآية الكريمة " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (٢١) " فنجد أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم لنقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك . قال ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لنقر بهم عينه ، وقال في رواية أخرى : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان فإن

كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئا . فإذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحقهم به وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب أنى لي هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك " إسناده صحيح وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له "

إن فضل الله وكرمه دالآن على عظمتة ورحمته بعباده سبحانه ، إنه الله ، الذي يستحق العبادة ، والخالق الذي يستحق أن نلجأ إليه شاكرين حامدين .

اللهم عاملنا بما أنت أهل له ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ..

اللهم آمين يا رب العالمين .

الفهرس

أخبار البكائين	٣
أستاذي لا يحمل شهادة عليا	٥
السلف الصالح... أين نحن منهم	٧
الشفاعة	٩
الله أكبر	١١
المبارك وابن عياض	١٣
أين تحب أن تكون	١٥
بين جبريل ويوسف عليهما السلام	١٧
تخترق الحجب	١٩
جواهر الكلام	٢١
رحمة الله بأمة الحبيب المصطفى	٢٣
رحمة الله بأمة الحبيب المصطفى	٢٦
صلاة التراويح أم صلاة التساريح؟	٢٩

٣١	صيام إمبريالي
٣٢	ضيف لطيف
٣٣	فضل الله على خلقه
٣٥	قرّاء آخر زمان !
٣٧	كبر، كبر
٣٩	ليتتنا نصوم ونفطر معاً
٤١	ليلة القدر
٤٣	اتخاذ الإخوان واختيارهم
٤٦	(الحرص والإلحاح)
٤٨	الزيارة والتلاقي
٥٠	القناعة والعفة
٥٣	المعاتبه الإخوانية
٥٥	أنت والصديق
٥٧	إيت القوم الظالمين
٥٩	إيتوني به أستخلصه لنفسي
٦١	بعض ما قيل في الحاكم والسلطان من عيون الأخبار
٦٦	حُسن الخلق ومداراة الناس
٦٨	فغفر له
٧٠	في الرجال عامة
٧٤	في الغيبة والعيوب (٢)
٧٦	في النساء عامّة
٧٩	في بيت الله
٨١	قول في المحبة
٨٤	لا تقصص رؤياك على إخوتك
٨٦	لمن كان له قلب
٨٨	شمائل سيد الخلق
٩٠	والله في عون العبد مادام

- اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (٢٢) ٩٣
- أتكون الملائكة رُسلاً للبشر (١٥) ٩٥
- أرسول الله حيٌّ بيننا (٦) ٩٧
- أقربهم مودة للذين آمنوا - ٨ ٩٩
- إلا أن تتقوا منهم تقاة (١٤) ١٠١
- الحمد لله ١٠٣
- الدمار مآل الاستكبار (٢١) ١٠٥
- أمر عجيب ١٠٧
- إن غاب العلم ! فقليلًا من اللطف (١٦) ١٠٩
- الدنيا لأربعة نفر - ١٠ ١١٠
- إنما يتقبل الله من المتقين (٣٠) ١١٢
- إنه أخي من دونك - ٩ ١١٤
- إنها صلاة التساريع (١١) ١١٦
- إنهم جميعاً سواء ١١٨
- آه ، لو أنني أعرف لغته (١٧) ١٢٠
- اهدنا الصراط المستقيم (٣) ١٢٢
- تصوير الحياة (٢٣) ١٢٤
- جبريل عليه السلام واليهود - ٥ ١٢٦
- خطوات الشيطان (٢٠) ١٢٨
- رب العالمين (٢) ١٣١
- على أن تأجرني ثماني حجج (٢٥) ١٣٣
- كم لبثتم في الأرض عدد سنين (١٩) ١٣٥
- لسان الذي يلحدون إليه أعجمي (١٨) ١٣٧
- من وحي أحد في آل عمران (٢٦) ١٣٩
- من وصيا لقمان (٢٤) ١٤٢
- موقفان متمایزان (٢٩) ١٤٥
- وسارعوا إلى مغفرة من ربكم - ٧ ١٤٧

١٤٩	وعلى الأعراف رجال (١٢)
١٥٢	ويقتلون الذين يأمرون بالقسط ... (١٣)
١٥٤	يبذل الله سيئاتهم حسنات (٢٨)
١٥٦	الفهرس